



النظرات

بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

الجزء الاول

(الطبعة الثالثة)

١٤ رمضان سنة ١٣٣٨ هـ — أول يونيه سنة ١٩٢٠ م

تطلب من مكتبة الهلال بأول شارع الفجاله بمصر

عنوان المؤلف : بالجمعية التشريعية بمصر

المطبعة الرحمانية

بشارع الخرنفش بمصر

المقدمة

يسألني كثير من الناس كشأنهم في سؤال الكتاب والشعراء، كيف أكتب رسائلي كأنما يريدون أن يعرفوا الطريق التي أسلكها اليها فيسلكوها معي ، وخير لهم ألاّ يفعلوا ، فاني لا أحب لهم ولا لأحد من الشادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتاب غيري ، وليعلموا إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر أني مااستطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل التي يعلمونها بهذا الاسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه إلا لاني استطعت أن أتفلّتَ من قيود التمثّل والاحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء مانفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها عليّ وعجزها عن أن تمسك إلا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي ، فلقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ماشاء الله أن أقرأ ثم لاألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي إلاَّ جمالُ آثاره وروْعة حسنه ورنّة الطرب به ، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشوَ به حافظتي ، أو أستعين به على تهذيب بياني ، أو تقويم لساني ، أو تكثير مادة علمي باللغة والادب ، بل كل ما كان من

أمرى أننى كنت امرأ أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته فى صورة
الانسان ، أو مطلع البدر ، أو مغرب الشمس ، أو هجعة الليل ،
أو يقظة الفجر ، أو قمم الجبال ، أو سفوح التلال ، أو شواطئ
الانهار ، أو أمواج البحار ، أو نغمة الغناء ، أو رنة الحداء ، أو
مجتمع الاطيار ، أو منتثر الازهار ، أو رقة الحس ، أو عذوبة
النفس ، أو بيت الشعر ، أو قطعة النثر ، فكنت أمر بروض
البيان مرًّا فاذا لاحت لى زهرة جميلة بين أزهاره ، تتألق
فى غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت بين يديها وقفة المعجَب بها
الحانى عليها المستهتَر بحسن تكوينها واشراق منظرها من حيث
لا أريد اقتطافها أو إزعاجها من مكانها ، ثم أتركها حيث هى وقد
علقتْ بنفسى صورتُها إلى أخرى غيرها . وهكذا حتى أخرج
من ذلك الروض بنفس تطير سروراً به ، وتسيل وجداً عليه ، وما
هو إلا أن درتُ ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت
على أزهارها بعض وقفات ، حتى شعرتُ أن قد بُدلتُ بنفسى
نفساً غيرها ، وأن بين جنبيّ حالا غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل ،
فأصبحت أرى الأشياء بعين غير التى كنت أراها بها . وأرى فيها
من المعانى الغريبة المؤثرة مايملأ العين حسناً ، والنفس بهجة ، فقد
كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم ، وأرى الجمال فرأيت لبه

وجوهره ، وأرى الخير فرأيت حسنَه ، وأرى الشر فرأيت قبحَه ،
وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى البأساء فرأيت مدامعها ،
وأرى العيون فرأيت السحر الكامن فى محاجرها ، وأرى الثغور
فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت
خيوطها الفضية الهفافة بين السماء والارض ، وأرى القمر فرأيت
شعاعه كأنما يَهُم أن ينبسط حتى يَفيض عن جوانبه فيضا ، وأرى
الفجر فرأيت بياضه وهو يدب فى تجاليد [1] الظلام دبيب
المشيب فى تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية
تطل على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته
وهو يهوى بأجنحته السوداء إلى الارض هُوِيّ الكرى إلى
الاجفان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيف
الاوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها ، فأحببت
الادب حباً جماً ملأ مابين جانحيّ فلم تكن ساعة من الساعات
أحب اليّ ولا آثر عندى من ساعة أخلو فيها بنفسى وأمسك
عليّ بابى ثم أسلم نفسى الى كتابى فيخيل اليّ كأنى قد انتقلت من
هذا العالم الذى أنا فيه إلى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فأشاهد
بعينى تلك العصور الجميلة عصورَ العربية الاولى ، وأرى العرب

(١) التجاليد الجسم

في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها، وأطنابها وأعوادها، وإبلها وشائها، وشيحها وقيصومها، وأرى مساجلاتها ومنافراتها، وحبها وغرامها، وعفتها ووفاءها، وصبرها وبلاءها، وحداءها وغناءها، وأسواق شعرائها، ومواقف خطبائها، وفقرها وإقلالها، وشحوب وجوهها، وسمرة ألوانها، وضوى أجسامها، وترددها في بيدائها بين حمارّة [1] القيظ وصبارّة [2] البرد، وتنقلها من صحراء إلى ريف، ومن مشتى إلى مصيف، ومن نجد إلى وهد، ومن شرف إلى غور، وانتجاعها مواقع الغيث، ومنابت العشب، وقناعتها من الطعام بأحفان التمر وقعاب اللبن وأصوع الشعير، فاذا جد الجد أكلت القد [3] واشتوت الجلد، وتبلغت بالضب واليربوع وعراقيب الآبال وأظلاف الابقار، واكتفاءها من اللباس بأكسية الكرابيس وأردية الاشعار، وقمص الاوبار، فاذا أعوزها ذلك لبست الظل، وافترشت الرمل، غير ناقة ولا ساخطة ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه، ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الاسلامية فأرى رغد عيشها، ولين طعامها، واعشوشاب جانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها، وسرورها

(١) شدة الحر (٢) شدة البرد (٣) السير يقد من جلد

وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأعلاق الروم، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها، ومجامع أنسها، ومسارح لهوها، ومجالات سبقها، وملاعب جيادها، ومذاهب طرائدها، ومواقف حجها، وازدحام شعرائها على أبواب أمرائها، وجوائز أمرائها في أيدي شعرائها، وانطلاق ألسنتها بوصف ماتشاء من الأعواد والبرابط والمعازف والمزاهر والأقداح والدنان والموائد والصحف وألوان الطعام حلوه وحامضه، وأصناف الشراب حلاله وحرامه، والطيور المحلقة في الأجواء، والسفن الذاهبة في الدأماء [1]، والرياض الخضراء، والغابات الشجراء، والقصور وتماثيلها، والبحيرات وأسماكها، والأنهار وشواطئها، والازهار وتفتحاتها، والغيوث وقطراتها، ودبيب الحب في القلب، والغناء في السمع، والصهباء في الأعضاء، وخلجة الشك، ولمحة الفكر، وبارقة المنى، ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقا عذبا، أو أدبا غضا، أو حبا وفيا، أو مجونا مستظرفا، أو حوارا مستملحا، إلا وجدته، ولا أن أسمع ماتهتف به العاتق في خدرها، وما يحدو به الحادي في أعقاب إبله، وما يتغنى به العاشق، وما يهذي به الشارب،

(١) الدأماء البحر

وما يترنم به الشادى ، وما يساجل به الماتح (٢) إلاّ سمعته ، ولا أن أعلم مايهجس فى نفس المحب إذا اشتمل عليه ليلُه ، والحائر إذا ضل به سبيله ، والثاكل إذا فُجعت بواحدها ، والموتور إذا حيل بينه وبين واتره ، والكريم إذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب فى دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف اذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدَّم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس ، والبائس إذا أعوزه القوت ، واليائس إذا أعوزه الموت ، والعزيز إذا ذل ، والمشرف إذا هوَى ، والشريف إذا عبث بشرفه عابث ، والغيور إذا لمس عرضه لامس ، إلا علمته . ولا أن أعرف خُلُق الدهر فى تنقله بالناس مابين رفع وخفض ، وجِدَة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا أثر يده السوداء فى خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغانى ، وتصويح الرياض ، إلا عرفته ، فكنت أجد فى نفسى من اللذة والغبطة بذلك كله مالا يقوم به عندى كل ماينعَم به الناعمون من رغد فى العيش ورخاء حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد صنع لى فى هذا الأمر وأنه لما علم أنه لم يَكتب لى فى لوح مقاديره ما كُتب للسعداء والمجدودين من عباده من مال أو جاه أعيش

(١) الماتح المستقى على البئر

فى ظله ، وأنعَمُ بثمرته ، زخرف لى هذا الجمال الخيالىّ البرىء من الريبة والاثم وزوّره (١) لى تزويراً بديعاً ووضع لى فيه من الملاذ والمحاسن مالم يضع لغيرى رحمة بى وإرعاءً علىّ أن أهلك أو يهلك لبى بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا أزال محلقاً فى هذا الجو البديع من الخيال أضحك مرة وأكتئب أخرى ، وأتغنى حيناً وأبكى أحياناً ، حتى يرميَنى الباب ببعض الطارقين أو يستعيدَ الىّ نفسى مُستعيد

ولم يكن حولى لذلك العهد ممن يستعين بمثلهم مثلى على الأدب أحد . لانى كنت أعيش فى مفتتح عهدى به ولم أكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة من عمرى بين أشياخ أزهريين من الطراز القديم لا يرون رأيى فيه ، ولا يتعلقون منه بما أتعلق ، فكانوا يرون أن التوفر عليه أو الألمام به عمل من أعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمرى منهم لا يزالون يحولون بينى وبينه كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزغات الصبوة ضناً بى يزعمون أن أنفق ساعة من ساعات دراستى بين لهو الحياة ولعبها ، فكنت لا أستطيع أن ألم بكتابى إلا فى الساعة التى آمن فيها على نفسى أن يُلموا

(١) زوره حسنه وقومه

بأمرى وقليلا ما كنت أجدها ، وكثيرا ما كانوا يهجُمون منى على مالا يحبون ، فاذا عثروا فى حقيبتى أو تحت وسادتى أو بين لفائف ثوبى على ديوان شعر أو كتاب أدب خيل اليهم أنهم قد ظفروا بالدينار فى حقيبة السارق ، أو الزجاجة فى جيب الغلام ، أو العشيق فى خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم ، والغَصص بمكانهم ، مالا يحتمل مثلَه مثلى ، وهم لا يعلمون أحسن الله اليهم أنهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأَدب الذى ينقِمون منه ماينقمون ، ويدٌ من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشرى ، فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الاحكام التى دونوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ، ويعيشون فى ظلها عيش السعداء المترفين ، ولولاه ما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التى يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها ومعانيها فى مجالس علمهم ويُدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً ، كما لا يعلمون أن الأدب هو خير مايستعين به متعلمٌ على علم وأن الذوق الادبى الذى يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذى يزن به مايحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها ، والدليل الذى يتسمته

ويترسم مواقع أقدامه فى فهم أصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع أو واقفاً على منازع المجتهدين ، واللسانُ الذى يستعين به على الافضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكانا من قلبه ليكون إنسانا ناطقاً ، ومعلماً نافعاً ، ولو أن هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه وهم اليوم والحمد لله قليل بل هم فى طريق الفناء والانقراض قد تعلقوا منه بما كان يتعلق به أسلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا به فى دينهم خيراً كثيراً ، ولاستدفعوا به عن أنفسهم فى أمره شراً عظيما ، فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة وما زالت آيات الكتاب ومتون الاحاديث سائغة هنيئة لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الاوهام والظنون حتى جهل علماء الدين الادب ففسدت أذواقهم ، وضلت أفهامهم ، فكثر بينهم التأويل والتخريج ، ووهت تلك العقدة الوثيقة بين الالفاظ والمعانى ، واسترخت عراها من أيديهم فأصبح كل لفظ فى نظرهم محتملا لكل معنًى حتى ما يأبى أحدهما على الآخر شيئاً ، وتَهافتَ ذلك الحاجزُ الحصين الذى كان قائما بين الحقيقة والمجاز ، والحقيقة والخيال ، فبغى بعضُ الكلم على بعض وعاث كل منهما فى تربة صاحبه اقبالا وادبارا ، وجيئةً وذهوبا ، وصعودا ونزولا ، فاستطاع الواغلون فى الدين والناصبون له أن يدخلوا

عليه من الاحاديث المنحولة الغريبة فى أساليبها عن مناهج العرب ومناحيهم مالا يضبطه الحساب كثرة فهلكت الامة بين هذا وذاك هلكا لاتزال تتجرع كأسه المريرة حتى اليوم

فالحمدلله أولا وللأدب ثانياً على نجاتى منهم فيما كانوا يرومون بى، ويحاولون منى، بل أحمد الله اليهم كذلك فقد كُفيت بهم وبسوء رأيهم فى الأدب وتقمتهم عليه شر من يدخل بينى وبين نفسى فى المفاضلة بين شاعر وشاعر، وكاتب وكاتب، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب، وديباجة وأخرى، فلم يكن لى عونٌ على ذلك كله غير شعور نفسى وخفوق قلبى خفقة السرور أو الألم إن مرّ بى ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا مأتاه، فكان شأنى فى ذلك شأن السامع الطروب الذى تطربه نغمة وتزعجه أخرى، فيطير بالاولى فرحا، وبالثانية جزعا، ولقد يكون ضعيف الالمام بضروب الايقاع وقواعد النغم. فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس فاذا هو فى كبد الرميّة ولبها، فان رأيتُ أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة، والأساليب الملتوية، علمت أن القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الافضاء بما فى نفسه

لانه لا يعرف كيف يفضى به، وإما جاهل لم يستوِ له المعنى الذى يريده كل الاستواء، ولم يَدُرْ فى جوانب نفسه حتى يستقر فى قراره منها، فهو يتخيله تخيلا ويجمجمه ويهذى به هذيانا فلا سبيل له إلى الافصاح عنه، وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذى يجول فى نفسه ويشتمل عليه خاطره تافه مرذول وكان لا بد له أن ينفّقه [١] على الناس ويزخرفه لهم ويزوّره [٢] فى أعينهم فهو يكسوه أسلوبا غامضاً ليُكدّهم ويجهدهم فى سبيله حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل اليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب، أو خاطر بديع، ووجدوا فيه عند الوصول اليه من اللذة والمتعة مايجد الظامئ فى ضَحضاح [٣] الماء الكدِر إذا أبعد النُّجعة فى طلبه ووصل اليه بعد الجَهد والإشفاء، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الافهام من الناس وهم سواد الامة ودهماؤها لا يرضوْن عن معنى من المعانى ولا يستسنون [٤] قيمته ولا يقيمون له وزناً إلا إذا جاءهم فى جلدة من الألفاظ المتكرّسة المتقبّضة وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعانى وأغلاها،

---

(١) ينفّقه بالتشديد يجعله نافقاً أى رائجاً

(٢) زور الشىء حسنه وزخرفه

(٣) الضحضاح الماء القليل فى قعر البئر

(٤) استسنى قيمته رآها سنية رفيعة

وأكرمها جوهراً ، وأطيبها عنصراً ، فى ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم إلى أنه ماجاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل ، أو سُوقى مطروق ، فاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته أن لابد له من موافاة رغبتهم ، وبلوغ رضاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمّل لهم باللُّكنة والعِى ، وتملقهم بالغموض والابهام ، وإما أعجمىّ يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات وهو لايعرف منها غيرها فينطق بشىء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الاعجمية ترجمة حرفية ، فان نعيتَ عليه غرابة أسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ماينضحُ به عن نفسه أن المعانى العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الا كسيةَ البدوية ، والاردية العربية ، كانما هو يظن أن المعانى والخواطر خِطط وأقسام ، وبقاع وضياع ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للعرب وهذا للعجم . أما الحقيقة التى لاريب فيها فهى أن الرجل لاينتزع تلك المعانى من قَرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله ، وانما هو مترجم قد عثر بتلك المعانى فى اللغة الاعجمية التى يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية فلما أراد أن يُفْضىَ بها الى العرب وكان غير مضطلع بلغتهم ولا متمكن من أساليبهم عجز عن أن ينزع عنها

أثوابها اللاصقة بها فنقلها اليهم كما هى الا ما كان من تبديل حرف بحرف أو كلمة بأخرى من حيث يظن أنه يهتف بشىء قام فى نفسه أو يفضى بخاطر من خواطر قلبه ، وإما شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته أن يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والممانعة والمحاولة . والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لايجد فيه واجدٌ مصطنعاً ، ولا يظفر منه مُعتصِرٌ ببلة ، فيضن بعلمه ، كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق ، كما يقبض يده عن الانفاق ، ويصرّد [1] عطاءه تصريداً ليستديم به حاجة الناس إليه ، كما يجيع كلبَه ليتْبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، على العجزة والجاهلين ، والمحتالين والكاذبين ، والاشحاء والباخلين

وكان أشعر الشعراء عندى وأكتب الكتاب سواءٌ فى ذلك المتقدم والمتأخر والنابه والخامل أوصفهم لحالات نفسه أو أثر مشاهد الكون فيها وأقدرَهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضاً ، أو يضعه فى أيديهم وضعاً ، فإن ظننتُ أن القائل كاذب فيما يقول ، أو

(١) صرد العطاء أعطاه قليلا قليلا

أنه يرسم صورة غير الصورة التى تتلجلج فى نفسه ، أو أنه لغوى
يفر من ضعف أسلوبه وفساد نظمه إلى أكَمَة من الالفاظ الغريبة
والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، أو ناقلٌ يتخذ الكتابة
حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية أو الوقائع التاريخية حشواً ، أو
مترجمٌ ينقل عن اللغة الأعجمية التى يعرفها آراء علمائها وخيالات
شعرائها وكأنما هو صاحبها ، أو شعَرتُ أنه قد مر بخاطره وهو
ينطق بكلمته أن يكون بليغاً فيها أو مبدعاً ليعجبَ الناسَ
منها ، كان كلُّ حظه منى أن أعرف له قدره فى العلم ، ومنزلته
من الذكاء والفهم ، إن أحسن فيما يقول ، ولكننى لا أعده
كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندى غزل العاشقين ،
وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأشرف المدح مدح الشاكرين ،
وخير العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ،
وأحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين
المشاهدين

ولا أدرى ما الذى كان يعجبنى فى مطالعاتى من شعر الهموم
والأحزان ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص المحزونين
والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبنى كل العجب ويبكينى أحر
البكاء وأشجاه شقاء المهلهل فى الطلب بثأر أخيه ، وشقاء

امرئ القيس فى الطلب بثأر أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس
على زوجها وأخيها ، وبكاء عدى بن زيد على نفسه فى سجن
النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك حتى دمعت عينه
العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم
حكيم زوج عبيد الله بن العباس فى المواقف والمواسم تنشد طفليها
الذبيحين ، وبكاء الشريف على المَناذرة فى خرائب الحيرة ، وبكاء
أبى عبادة على الأكاسرة فى خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على
بنى هاشم ، وبكاء العبلى على بنى أمية ، وبكاء الرقاشى على بنى
برمك ، وذل أبى فراس فى أسره ، والمعتمد بن عباد فى سجنه ،
وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة وعلى ولادة أخرى ،
وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحترى على المتوكل ، وابن
اللبانة على ابن عباد ، والتيمى على يزيد بن مَزْيد ، ومروان بن
حفصة على معن بن زائدة ، وجنونُ المجنون بليلاه وجلوسه فى
جنبات الحى منفرداً عارياً مذهوب اللب مشترَك العقل يهذى
ويخطط فى الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامُه بعد ذلك مع
الوحش فى البرية لا يأكل إلا ما ينبت فيها من بقل ، ولا يشرب
إلا مع الظباء إذا وردت مناهلها ، وراحتُه إلى الطريق يصعد مع
مُصعديه ، وينحدر مع مُنحدريه ، حتى هلك فى أرض مقشعرة

مغبّرة بين الصخور والأحجار ، وشقاء قيس لُبنَى بلُبناه بعد أن طلقها براً بوالده ونزولا على حكمه، وذَهابُ الحب به بعد ذلك كل مذهب، حتى هلك بين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ، وموقفُ جميل بن معمر بين يدى أبيه وهو يعتب عليه أشد العتب وأمرّه فى استهتاره بحب بثَينة ومخاطرتِه بنفسه فى الألمام بحبها فيقول : يا أبت هل رأيت قبلى أحد اقدر أن يدفع عن قلبه هواه أو ملك أن يسلى نفسه أو استطاع أن يدفع ماقُضى به عليه ، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها من عينى لفعلت ولكن لا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحيْن قد أتيح لى وأنا أمتنع من طروق هذا الحى والالمام به ولو مت كمداً وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه ، وبكاء النبى صلى الله عليه وسلم عند ماسمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه أنه كان يئد بناته فى الجاهلية وأن واحدة منهن ولدتها أمها وهو فى سفر فدفعتها إلى أخوالها ضناً بها على الموت واشفاقاً عليها فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولوداً ميتاً ثم مضت على ذلك سنون عدة حتى كبِرت البنت ويفَعت فزارت أمَّها ذات يوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسألها عنها فحدثته حديثَها على وجهه ولم تكتمه شيئاً منه طمعاً فى أن يضمها اليه ويمنحها رحمته وعطفه

فأمسك عنها أياماً ثم تغفَّل أمَّها عنها ذات يوم وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعدَ فاحتفر لها حفرةً وجعلها فيها فجعلت تقول : يا أبت ما تريد أن تصنع بى ؟ وما هذا الذى تفعل ؟ وهو يَهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها وهى تئن وتقول : أتاركى أنت يا أبت وحدى فى هذا المكان ومنصرفٌ عنى ؟ حتى واراها وانقطع أنينها ، وبكاء الأعرابية التى مات منها ولدها فى دار غربة فدفنته ثم وقفت على قبره تودعه وتقول : والله يا بنى لقد غذوتك رضيعاً ، وفقدتك سريعاً ، وكأن لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جُرُزَا ، اللهم إنك قد وهبته لى قرة عين فلم تمتعنى به كثيراً ، بل سلبتنيه وشيكا ، ثم أمرتنى بالصبر ، ووعدتنى عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فارحم اللهم غربته ، وآنس وحشته ، واستر عورته ، يوم تنكشف الهنات والسوآت ، واثكُلَ الوالدات ما أمضَّ حرارةَ قلوبهن ، وأقلقَ مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقلّ أنسهن ، وأشد وحشتهن ، وأبعدَهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان ، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ومناصبةُ الدهر لهما

وانقطاع سبيله بهما حتى أصبحت زوجاً لغيره وأصبح من بعدها
هائماً مختبلاً يرمى بنفسه المرامىَ ويقذف بها فى فِجاج الأرض
ومخارمها حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكّرَ حتى زارها وهو يظن
أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم
أنه يعرف حقيقة أمره وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكّر له عزم
على الانصراف حياءً منه ، وقال لها يا عفراء أنت حظى من الدنيا
وقد ذهبْتِ فذهبَتْ دنياى بذهابك فما قيمة العيش من بعدك ،
وقد أجمل هذا الرجل عشرتى واحتمل لى ما لا يحتمله أحد لأحد
حتى استحييتُ منه ، وإنى راحل من هذا المكان ، وإنى عالم أنى
أرحل إلى منيتى ، وما زال يبكى وتبكى حتى انصرف ، فلما رحل
نكس بعد صلاحه وتماسُكه وأصابه غَشْىٌ وخفقان فكان كلما
أغمى عليه ألقى على وجهه خماراً لعفراء كانت زودته إياه فيفيق
حتى بلغ حيّه ، وأمسك عاماً كاملا لا يسمع منه سامعٌ كلمة ولا
أنّة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً ، فمر به بعض الناس فرآه
ملقى بجانب خبائه فسأله عما به فوضع يده على صدره وقال :

كأن قَطاةً علقت بجناحها   على كبدى من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كان نفسه فيها ، فلما بلغ عفراءَ خبرُه قامت
الى زوجها وقالت له ، قد كان من خبر ابن عمى ما كان وقد مات

فىَّ وبسببى ولا بد أن أندُبه وأقيم مأتماً عليه ، فقال افعلى ، فما
زالت تندبه ثلاثاً حتى ماتت فى اليوم الرابع ، وشقاء سعد الوراق
بحب عيسى النصرانى حينما علم أن أهله قد بنوا له ديراً بنواحى
الرقة ليترهّب فيه ويحتجب عن الناس فضاقت عليه الدنيا بما
رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه ولزم صحراء الدير عله
يجد السبيل الى الوصول اليه ، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذلّ
للرهبان وتخضّع لهم وتأتّى لهم بكل سبيل فلم يُجْدِه ذلك شيئاً ،
فصار الى الجنون وخرّق ثيابه وأصبح عُريان هائماً لا شأن له
إلا أن يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله أن يبلغ
رسائله الى عيسى حتى رآه بعض الناس فى بعض الأيام ميتاً إلى
جانب الدير ، وأمثالُ ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء ،
كأنما كنت أرى أن الدموع مظهر الرحمة فى نفوس الباكين ،
فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ، أو كأنما كنت أرى أن
الحياة موطن البؤس والشقاء ، ومستقر الآلام والاحزان ، وأن
الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها ، وتصويراً لها ، فلما أحببت
الصدق أحببت البكاء لأجله ، أو كأنما كنت أرى أن بين
حياتى وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلا ،
فأنست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم ، وبكاء

الغمائم ، أو كأنما كنت فى حاجة إلى بعض قطرات من الدمع أتفرّج بها مما أنا فيه ، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت فى مدامعهم شفاء نفسى ، وسكون لوعتى ، أو كأنما كنت أرى أن جمال العالم كله فى الشعر وأن الشعر هو ما تفجّر من صدوع الأفئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم

تلك أيامى التى سعدت بها برهة من الدهر ومرّ لى فيها أحسنُ مامر لأحدٍ والتى لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الأعوام الطوال فأكاد أشرق بدمعى لذكراها ثم انثنيت فوجدت يدى صِفراً منها وإذا أنا بين يدىْ هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم فنظرت اليه نظر الغريب الحائر إلى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيَه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة ، والنسمة والهبوة [(١)] ، واتساعَ مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، وسلطانَ القوة على الحق ، وغلبةَ الجهل على العلم ، وإقفارَ القلوب من الرحمة ، وجمودَ العيون عن البكاء ، وعجزَ الفقراء عن فتات موائد الاغنياء ، وتمضغ الاغنياء بلحوم

(١) الهبوة الغبرة

الفقراء ، ورأيت التراثىَ بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه وأنحلَها اياها من لا يتخلق بها طلباً لرضى الناس عنه برضاه عنها ، ورأيت البراءةَ من الفضيلة حتى فرّ بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العارى بسوأته ، والموسوم بخزيته ، ورأيت الرجل والمرأة وقد سرا [(١)] كل منهما ثوبَه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غُلالتها فأصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد ، وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح والتشطر [(٢)] ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التى يستظل بها الضاحون [(٣)] من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال فى أيدى الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم أن يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها ، ورأيت ضلال الاسماء عن مسمياتها وحيرةَ مسمياتها بينها واضطرابَ الحدود والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها مالم يكن داخلا ، وخرج منها مالم يكن خارجاً ، فسمى الشح اقتصاداً والكرم اسرافاً والحلم جبناً والسماجة جرأة والسفاهة براعة والفجور فتوة والتبذل حرية، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها

(١) سرا الثوب عن جسمه ألقاه عنه
(٢) تشطر صار شاطراً والشاطر هو من أعيا أهله خبثا
(٣) الضاحى المنكشف للشمس

لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيما من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها ، وكنت أرى أن الأدب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عوناً لفاعليه عليه ، فان ساقته اليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد فى نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهده وألمه ، فاذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له فى جوهر النفس ، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فأكثر الناس عند الناس أدبا ، وأقومهم خلقاً ، وأطهرهم نفساً ، من لا يفى على شرط أن يعد ، ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يملأ صدره موْجدة وحقداً على أن يكون بساماً ضحوك السن ، ومن يسرق على أن يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه ، على أن يحبهم جميعاً بلسانه . ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية التى تَواضعَ عليها المتكلفون فى الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء ، والمؤاكلة والمنادمة وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر النفس وإسفافها ، أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها ،

فداخلنى من ذلك هم عظيم لم أستطع أن أملك نفسى معه كأنما خيل إلىّ لقرب عهدى بما أرى أننى أرى شيئاً عجيباً ، أو منظراً غريباً ، أو كأنما كنت أحسب أن عالم الخيال الذى كنت فيه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذى أنتقل اليه ، فأزعجنى ما رأيت من هذا الاختلاف العظيم بينهما فأرسلت الكلمة إثر الكلمة كما يتنفس المتنفس أو يئن الحزين ، فرأى ذلك بعض الناس فسموا ما رأوه كلاماً ، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغروننى بأمثاله وما زلت أطمع فيهم وأرجو أن أصيب ما فى نفوسهم حتى رأيتُنى كاتباً

ولقد كان لهذا الأدب الذى توليت نفسى به أثرٌ باق عندى إلى هذه الساعة التى أكتب فيها رسالتى هذه فانى لا أحسن حتى اليوم أن أكتب كلمة يفضى بها إلىّ غيرى ، أو أعبر عن معنى لا يقوم بنفسى ، أو أبكى على من لا يحزننى فراقه ، أو أندب من لا يفجعنى موته ، أو أستنكر ما أستحسن ، أو أستحسن ما أستنكر ، كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التى تهيج فى نفسى حزناً شديداً ، أو طرباً كثيراً ، فأملك نفسى عن محاولة الافضاء بما تركه عندى من خير أو شر ، وما أعلم أنى كتبت كلمة فى شأن من الشؤون إلا وكان

بعض تلك المشاهد منشأها فى قلبى ، فقد كنت رجلا لا أحب
الكذب ولا أحتمل نفسى عليه ما وجدت منه بداً ، فأبغضت
الكاذبين بغض الأرض للدم ، فكان من همى أن أقاتلهم على
الصدق قتالا مستحرًا حتى أصل بهم إلى إحدى الحسنيين ،
إما أن يكونوا صادقين ، وإما أن يَعلم الناسُ أنهم كاذبون ،
وكنت إنسانًا بائسًا لم يترك الدهر سهمًا من سهامه النافذة لم
يرمنى به ، ولا جرعة من كؤوس مصائبه ورزاياه لم يجرعنى
إياها ، فقد ذقت الذل أحيانًا ، والجوع أيامًا ، والفقر أعوامًا ،
ولقيت من بأساء الحياة وضرائها مالم يَلق بشر ، فشعرت بمرارة
الحياة فى أفواه المساكين ، ورأيت مواقع سهام الدهر فى أكباد
البائسين والمنكوبين ، فكان من همى أن أبكى كل بائس ، وأندب
كل منكوب ، وأطلب رحمة القوى للضعيف ، والغنى للفقير ،
والعزيز للذليل ، وقُدّر لى فيما مر بى من أيام حياتى أن رأيت
بعينى من وقفتْ بين يديه امرأة ذليلة تبكى وتضرع اليه أن
يرضخ لها بقليل من المال لتستعين به على ستر ما كشف ابنُه من
سوأة ابنتها فأبى ذلك عليها وقال لها وهو يحسَب أنه يعلم مايقول :
أيتها المرأة لا حق لابنتك عندى ولا عند ولدى فلم يكن حظه
منها فيما كان من أمرها بأكبر من حظها منه : ورأيت من تزوج

فتاة كان يمسك فى نفسه لأهلها حقداً قديمًا فما دنا منها ليلة البناء
بها حتى صَدَف عنها صارخًا : أيها الناس إن الفتاة مريبة : وكان
كاذبًا فيما يقول ، ولكن صدّقه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شر
انتقام وأقذعه ، ورأيت من دخلت اليه امرأةٌ من أولئك
النساء المُريبات تسأله بعض المعونة على أمرها فامر بطردها
ذَهابًا بنفسه أن تسوء سمعته بمكانها وكان هو الذى أَفسدها على
نفسها فنزل بها فسادُها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ،
فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوّقها فى بيته ، ولم يحاسب نفسه
على عرض كان يأكله فى بيتها أكلا ، فكان بى منذ ذلك العهد
أن أنظر الى المرأة بعين غير التى ينظر بها الناس اليها ، وأَن
ألتمس لها من العذر وإن زلت بها قدم مالا يلتمسه لها أحد ،
وأَن أنتصف لها من الرجل كلما وجدت السبيل إلى ذلك حتى
يُديلَ لها الله منه ، وكنت من شؤون عيشى فى حالة لا أستطيع
معها أن أَعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا أن أَختار لعشرتى من
أَشاء من خيارهم وذوى المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما
حفظ لى صديق عهداً ، ولا صان لى صاحب سراً ، ولا استدنتُ
مرة فنفّس عنى دائن ، ولا دِنتُ فوفى لى مَدين ، ولا رد لى
مستعير عارية ، ولا شكر لى شاكر صنيعة ، ولا فرج لى كربتى

مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهي الى القطرة الأخيرة منه ،
ليأخذ أكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدتُ فى
طريق حياتى من خالطنى مخالطة الزائر المزور حتى أمكنته
الفرصة فسرق مالى بعد ما تحرّم بطعامى وشرابى ، ومن كان
يتردد وجهه فى وجهي فأكره أن أرده بالأمل الخائب فلما
عجزتُ عن ذلك مرة أضمر لى فى قلبه من الشر ما لا يضمر مثلَه
الرجلُ الا لمن يغلبه على تُراث أبيه وأمه ، أو يُخضّب لحيتَه من
دم مفرقَه ، ومن نَصَبَ (١) لى وغَرِىَ بمحادّتى ومماظّتى (٢) لأنه
كان يحمل فى رأسه فتكةً لم يجد فى طريقه من يحملها عنه
ويَستخذى له فيها سواى . ومن أَخذ نفسه بالنيل منى والغض من
شأنى لانه كان يشكو الخمول والضعة وكان لا بد له من أن يكون
نابهاً مذكوراً فاتفق له أن رأى عاتقى بين يديه فظن أنه أعلى
العواتق وأبعدها مذهباً فى جو السماء فعلاه ليشرف منه على الناس
فيعرفوا مكانه . فوالله ما تحلحلتُ ولا نبوتُ به بُقياً عليه وضناً به
أن يسقط سقطة لا يقل منها ، ومن كان لا يكبر شأنى إلا إذا
اتقانى فاذا أضاء ما بينى وبينه كنت فى عينه أصغر منه

(١) نصب فلان لفلان عاداه
(٢) المماظة المخاصمة والمشارة

فى عين نفسه . ومن كان يقبل ويدبر باقبال الدهر على وإدباره
عنى ثم لا يستحيى أن يستكثر من ذلك حتى أستحيى له منه ،
فعركتُ بجنبى (١) أكثر ما كرهت من ذلك ولكننى لم أرضَ
لنفسى أن أنزل فى الغَرارة والغفلة دون المنزلة التى ينخدع فيها
الغر الكريم فأصبح رأيى فى الناس غير رأيهم فى أنفسهم ورأىِ
بعضِهم فى بعض وخفتُ أن يصيب كثيراً من الضعفاء
والمحدودين (٢) أمثالى مثلُ ما أصابنى فكان من همى أن أنبش
دفائنهم خيراً كانت أو شراً ، وأن أكشف أثوابهم عن أجسامهم ،
وأجسامَهم عن نفوسهم ، حتى يتراءوْا ويتكاشفوا فيتواقَوْا
ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكى مخدوع على نكبته ،
ولا يتخذ بعضهم بعضاً حُمُراً يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم ،
وكان مَنشئى فى قومٍ بُداة سذّج لا يبتغون بدينهم ديناً ، ولا
بوطنهم وطناً ، ثم ترامى بى الأمر بعد ذلك وتصرفتْ بى فى
العيش شؤونٌ جمة فخضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته
الا أن أكون ملحداً فى دينى ، أو زارياً على وطنى ، فاستطعت
وقد غمر الناسَ ما غمرهم من هذه المدنية الغربية أن أجلس ناحية

(١) عرك بجنبه ذنب صاحبه احتمله
(٢) المحدود المحروم ويراد به سيء الحظ

منها وأن أنظر اليها من مَرقب عال وكنت أعـلمُ أنّ مِن أَعجزِ العجزِ أن ينظر الرجلُ الى الامر نظرة طائرةً حمقاء فإما أَخَذَه كلّه وإما تَركه كلّه ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلها ، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همى أن أحمل الناسَ من أمرها على ما أحملُ عليه نفسى وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكَهم لها ، واستهتارَهم بها ، وسقوطَ نفوسهم أمام رذائلها ومخازيهـا ، وإلحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرها وحرصها ، وتبذلهـا وتهتكها ، حتى أصبح الرجل الذى لا بأس بعلمه وفهمه إذا حَزَبه (١) الأمر فى مناظرة بينه وبين من يأخذه برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضحُ به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها فى الاحتجاج على فعل ما فعل ، أو ترك ما ترك ، كأنما هى القانون الالهى الذى تثوب اليه العقول عند اختلاف الأنظار ، واضطراب الأفهام ، أو القانون المنطق الذى توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها ، وحتى أصبح السيد فى منزله يستحيى من خادمة مطبخه الأوروبيـة أن تَطّلع منه على جهلٍ ببعض عاداتها وعادات قومها حتى فى لُبس الرداء ، وخلع الحذاء ،

(١) حزبه الامر اشتد عليه

أكثر مما يستحيى من الله ومن الناس أن يَهجُموا منه على أرذل الرذائل ، وأكبر الكبائر . وحتى أصبح تاريخ المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقبح الصور وأسمجها فى نظر كثير من الشرقيين الذين أصبحوا يفخرون بجهل تاريخهم إن جهلوه ، ويراؤون بجهله إن علموه . وحتى قدر ذلك الغلام الرومى خادم الحان أو القهوة منفرداً على مالم تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته ، قبل أن تحمله على الصعود اليها ليحدثها بلغتها ، وهو إلى أن يترضاها ويستدنيَها أحوجُ منها إلى أن تزدلف اليه وتنزل على حكمه

فذلك ما تراه فى رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا قد شعر به قلبي ففاض به قلمى من حيث لا أكذِب الناس عن نفسى ولا أكذِب نفسى عنها . ولو كان بى أن أكْذِبهم لـكَذَبْتُهم فيما يرضيهم وما أعلم أنى أتحظّاهم به وأنال به الأثرة الخالدة فى نفوسهم ، ولو أردت ذلك منهم لما كان بينى وبين خاصتهم إن أردتُ الخاصةَ إلا ثلاث كلمات ، السخرية بالاديان ، واحتقار تاريخ المشرق ، والقول بتبرج المرأة وسفورها ، ولا كان بينى وبين عامتهم إن أردتُ العامةَ إلا ثلاثاً أخرى ، سب الكفار ، وعبادة الأضرحة ، والجمود على كل قديم

وعندى أن الكاتب المسخَّر الذى لا شأن له إلا أن يكتب
ما يُقضى به الناس اليه صانعٌ غير كاتب ، ومترجم غير قائل ،
لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ ، كلاهما ينظم
مالا يملك ، ويتصرف فيما لا شأن له فيه . على أن خير ما ينتفع
به الأديب من أدبه أن يترك يوم وداعه لهذه الدنيا صفحة يقرأ
فيها الناظرون فى تاريخه من بعده من أبنائه وشيعته وذوى رَحِمه
صورة نفسه ، ومضطرَب آماله ، ومسرح أحلامه ، فاذا كان كل
شأنه فى حياته أن يكون مِرآة تتقلب فيها مختلفات الصور أو
وفيعة (١) تمسح بها أعواد الاقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به
كل ما يربح الرابحون من مال أو يؤثلون من جاه ، والتاريخ أضنُّ
من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأدباء إلا مجد أولئك الذين
يُودعون نفوسَهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية
بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بحياة كتابته فى نفوس قرائها
ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل أنه
يَكذِبُهم عن نفسه وعن أنفسهم وأنه روّاغ متخلّج (٢) يأمرهم
اليوم بما ينهاهم عنه غداً ، ويَرى فى ساعة مالا يرى فى أخرى ،

(١) الوفيعة خرقة يمسح بها القلم
(٢) المتخلج المضطرب في مشيته

وأنه يستبكى ولا يبكى ، ويسترحم ولا يرحم ، ويحرك النفوس
وهو ساكن ، ويثير الثائرة وهو سالم ، فيستريبون به ، ويحارون
فى مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره على شرّ حاليه ، ثم ينقطع
ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سِلعة من السلع التى يتنقل بها
تِجارها من سوق إلى سوق ، ومن حانوت الى آخر ، ولكنه
حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها عفواً بلا تكلف ولا
تعمل صدورَ النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ،
والأريج عن الزهر ، وشعاعٌ لامع يشرق في نفس الأديب
إشراق المصباح فى زجاجته ، ويَنبوع ثرّارٌ يتفجر فى صدره ثم
يفيض على أسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات
والمقروءات والقواعد والحدود . ولو أن أمراً من ذلك كان
لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة فى العلم أو
أعلمهم بقواعد اللغة أو أجمعهم لمتونها أو أحفظهم لفصيح القول
ورائعه ، أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه
الاسفار التى نقرأها فى الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا
علماء ما يتدافع فى ذلك اثنان ، وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه
بين أيدينا القرون والحِقب وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر
ما كانوا يكتبون ، وأما المحفوظات فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب

الله من جماعة القراء، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء، ولا أقل
منهم إلماماً بالأدب ولا أبعد منهم عنه مكاناً، وأما اللغة فما عرفنا
بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على
تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عُرفت
له البراعة والتفوق فى تحبير الرسائل أو قرض الشعر أو القوة
القلمية فى التصنيف فى غير ما أخذوا أنفسهم به، وكان الخليل
ابن أحمد اذا سئل عن نظم الشعر قال يأباني جيده وآبى رديئه،
وكان الاصمعى يحفظ ثلث اللغة وأبو زيد الأنصارى يحفظ نصفها
وأبو مالك الاعرابى يحفظها كلها، وكذلك كان شأن النضر بن
شميل وأبى عبيدة وابن دريد والازهرى والصاغانى وابن فارس
وابن الاثير صاحب النهاية والجوهرى والفيروزبادى وأمثالهم من
علماء اللغة والنحو، وما سمعنا لواحد منهم فى إحدى الصناعتين
شيئاً مذكوراً. وقال أبو العباس المبرد فى بعض أحاديثه:
لا أحتاج الى وصف نفسى لعلم الناس بى أنه ليس أحد من
الخافقين تختلج فى نفسه مشكلة إلا لقينى بها وأعدنى لها فأنا
عالم ومتعلم وحافظ ودارس لا يخفى علىّ مشتبه من الشعر والنحو
والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجتُ الى اعتذار من
فلتة أو التماس حاجة فاجعل المعنى الذى أقصده نُصب عينى ثم

لا أجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان، ولقد بلغنى أن
عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولت أن أكتب اليه رقعة
أشكره فيها وأعرض ببعض أمورى فأتعبت نفسى يوماً فى ذلك
فلم أقدر على ما أرتضيه منها وكنت أحاول الافصاح عما فى نفسى
فينصرف لسانى إلى غيره: اه بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد
على المتنبي وأبى تمام كثيراً من شعرهما ولا على المعرى كثيراً من
منظومه ومنثوره ولا على الحريرى مقاماته ولا على ابن دريد
مقصورته الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها فى
كل ما يكتبون، فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وأنضائها
فى كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون، من حيث يظنون أنهم
ينظمون أو يكتبون، ولا تزال نفسى تشتمل على لوعة من
الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت ان الادب العربى كان
يستطيع أن يكون خيراً مما كان لو أن الله كتب للزوميات
المعرى النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام، وإنك لا تكاد ترى
اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه الذين يأخذون بزمام هذا
المجتمع العربى ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية فى شؤونه
السياسية والاجتماعية والادبية كافة من يعد من حفاظ اللغة
العربية وثقاتها أو من يَسلم له مَقالٌ من مأخذٍ لنحوى أو مغمزٍ

للغوى ، وهم على ذلك عندى أدخل فى باب البيان وألصق به
وأمسّ به رحماً من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون
دقائقها ويحيطون بترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها
وغريبها ويحملون فى صدورهم ما دقّ وجلّ من مسائل نحوها
وتصريفها ، فاذا عَرَضَ لهم غرض من الاغراض فى أى شأن من
شؤون حياتهم وأرادوا أنفسهم على الافضاء به أُرتِجَ عليهم
فأغلقوا ، أو تقعروا وتشدقوا ، فكأنهم لم ينطقوا ، والفرق بين
الادباء واللغويين أن الاولين كاتبون ، والآخرين مصححون ،
فمثلهما كمثل النساج وعامله، هذا ينسج الثوب وهذا يلتقط زوائده
ويمسح عنه زِئبره [1] أو كمثل الشاعر والعروضى ، هذا ينظم
الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذهابَ
كلمة ومجىء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وانما
هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والماء والرونق واستقامة
الغرض وتطبيق المفصل والاخذ بالنفوس وامتلاك أزمّة الهواء ،
فان صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير ، أو الشاعر الجليل ، فان
زلت به قدم فى وضع حرف مكان حرف ، أو غلبه على لسانه دخيل ،
أو خرج من يده أصيل ، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد

(١) الزئبر ما يظهر من درز الثوب

اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه
أو بحافظته ، لا ببيانه وفصاحته ، ومتى صَدَرَ القائلُ فى قوله عن
سجية وطبع أصبح شأنه شبيهاً بشأن العرب الأولين ، وكان من
شأنهم أن يسبقهم الى كلامهم الخطأُ اللفظى فى بعض الاحيان ،
وكان السبب فى ذلك كما يقول أبو على الفارسى أنهم كانت تهجُم
بهم طباعهم على ماينطقون به فربما استهواهم الشىءُ فزاغوا به عن
القصد من حيث لايشعرون ، وكما أن الجسم لايغير صورتَهُ ولا
يَقلب سحنَتَهُ أن تطير منه ذرةٌ وتحل أخرى محلها لتُمثّلها كذلك
لا يغير صورةَ الكلام ولا يذهب بنسقه خروجُ أصيل ، أو
دخول دخيل ، ولقد قيل لأحد الكتاب الانكليز نراك كثير
الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل لحّانة لا يحفِل بقواعد
اللغة ، فأجاب أن سطراً واحداً مما يكتبه « كبلنغ » أثمن عندى
من قوانين اللغة جميعها ، وليس من الرأى أن أحرم نفسى التمتعَ
بأدبه إكراماً لسواد عيون الغراماطيق [1] الانكليزى ، وفضل
الادباء على اللغة فى سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أكبر
من فضل اللغويين عليها فى ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ،
ويعبّدون [2] طرقها ، ويستدنون نافرها ، ويجمعون شاردها ،

(١) الغراماطيق النحو (٢) يعبدون يذللون ويمهدون

وينظمون لآلئها ، نظم الثاقب لآلئه في السلك ، فيأخذها الناس
عنهم من أخصر الطرق وأقربها ، وأشهاها الى النفس ، وأعلقها
بالقلب ، وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة
أو يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ، وما
كانت اللغة عدوة للأدب ، ولا كان الأدب عدواً لها ، بل هي
أساسه وقوامه الذي يقوم به ، ولكنّ المشتغلين بها ، والمتوفرين
على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ،
والتعمق في أطوائها ، لا يزال يغلب عليهم الولع بها ، والفناء فيها ،
حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ،
وللبيان وسائلُ كثيرة غير وسيلة اللغة ، فمن لا يأخذ نفسَه بجميع
وسائله لا يصل اليه ، والتربية العامية كالتربية الجسمية ، فكما أن
الطفل لا ينمو جسمه ، ولا ينشط ولا تتبسط أعضاؤه ، ولا
تنتشر القوة في أعصابه ، إلا إذا نشأ في لهوه ولعبه ، وقفزه
ووثبه ، كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا
تأخذ مكانها من نفسه ، إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتنان
والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء ، وحيث يشاء ، دون
أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته ، واللغوى
لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف ، والوساوس والبلابل ،

فان مشى خيل إليه أنه يمشي على رملة ميثاء ، وإن تحرك خيل إليه
أن تحت قدميه حفرة جوفاء ، حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن
الغاية التي يريد الوصول إليها ، على أن الكاتب لا يبلغ مرتبةَ
الكتابة إلا إذا نظر إلى الالفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها
إليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي أن
تكون خدَماً لها وخولا ، وأثواباً وظروفاً ، فاذا كتب تركها
وشأنَها وأغفل أمرَها حتى تأتيَ بها المعاني وتقتادَها طائعة مرغمة ،
والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل
الكاتبُ من همته بغيرها أزرى بها حتى تُفلت من يده فيَفلتَ
من يده كل شيء ،

وبعد فالعلم والمحفوظات والمقروآت والمادة اللغوية ،
والقواعد النحوية ، إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله
اليها ، فالجاهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً ، ومن
لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرَت
العجمة إلى لسانه ، أو غلبته العامية على أمره ، ومن قلّ محفوظه
من المادة اللغوية قصرت يده عن تناول جميع ما يريد تناوله من
المعاني ، ومن جهل قانون اللغة أغمَضَ الاغراضَ وأبهمها ، أو شوه
جمال الالفاظ وهجّنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ، ولا

حقيقة البيان ، فأكثر القائمين عليها ، والمضطلعين بها ، لا يكتبون
ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون
كصانع التماثيل الذى يصب فى قالبه تمثالا سويًا متناسب الاعضاء ،
مستوى الخلق ، الا أنه لا روح فيه ولا جمال له لانه ينقصهم بعد
ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسى والفطرة
السليمة ، وأنّى لهم ذلك وما دخلت الفلسفة أيًا كان نوعها على
عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته ، وما خالط التكلف عملا من
أعمال الذوق إلا شوه وجهه ، وذهب بحسنه وروائه

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها ، فى
حاضرها وماضيها ، قراءة المتثبت المستبصر ، فرأيت أن الاحاديث
ثلاثة ، حديث اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب

فأما حديث اللسان فهو تلك العبارات المنمقة ، والجمل
المزخرفة ، أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التى لا يَعنى صاحبَها
منها سوى صورتها اللفظية ، فإن كان لغويًا تقعر وتشدق ،
وتكلف وأغرب ، حتى يأتيك بشىء خير ما يصفه به الواصف
أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ، وإن كان
بديعيًا جنس ورصع وقابل ووشّع وزاوج وافتنّ فى الاتيان
بالكلمة مهملة كلها أو معجمة كلها أو راوح بين الاهمال والاعجام

فيخيل اليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه
بيديه صنعاً ، أو يصففه تصفيفاً ، ثم لا يبالى بعد ذلك باستقامة
المعنى فى ذاته ولا بمقدار ماله من الأثر فى نفس السامع ، وهذا
الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها وأجدرها أن
ينظمه الناظم فى سلك الصناعات اليدوية التى لا دخل للعقل ولا
للفهم فى شىء منها ، وأن ينظم صاحبَها فى سلك جماعة الصيادلة
الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها ، وجمعها وتفريقها ،
والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين أثقالها ، من حيث لا يكون
لقوة التصور ، ولا لذكاء القلب ، دخل فى هذا أو ذاك

وأما حديث العقل فهو تلك المعانى التى ينحتها الناحتون
من أذهانهم نحتاً ، ويقتطعونها منها اقتطاعاً ، ويذهبون فيها
مذهب المعاياة والتحدى والتعمق والاغراب ، ويسمونها تارة
تخييلا ، وأخرى غلوا ، وأخرى حسن تعليل ، إلى كثير من أمثال
هذه الاسماء والالقاب التى تتفرق ما تتفرق ثم يجمعها شىء واحد
هو الكذب والإحالة ، وآية ما بينك وبينها أنك اذا رأيتها
شعرت بأنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك وعن نفس
صاحبه وعن نفوس الناس جميعاً ، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن

يُطرفك أو يُضحكك أو يُدهشك أو يُعجِّبك من ذكائه وفطنته ، واقتداره على تصوير ما لا يتصور ، وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرَّك وأكدَّك ، وملأ قلبك غيظاً وقيحاً كأن يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته   لما رأيت عليها عقد منتطق

فان الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذى نراه يستدير بها نطاقاً فهو شىء متصل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون والآخرون إلى آدم وحواء ، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولاً لأنفسهم ، ولو كانت كذلك لاستحال عليها وهى من سكان السماء أن تهبط إلى الارض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات فى بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك فى نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شأنه ، فهو فى الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يمتدح نفسه بالابداع وقوة التخيل ، لا أن يمتدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام

أو يقول : —

ما به قتل أعاديه ولكن   يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فان الذى يحمل فى صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع مستعظماً أن يخلفها ما عوَّدها إياه من طعام وشراب لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم ، ويقطع أوصالهم ، ليملأ بها بطون الوحش ، ولا يوجد بين الاسباب التى تحمل الناس على القتال سبب يشبه هذا السبب الذى ذكره ، على أن المحسن لا يكون محسناً إلا اذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيته ، فأما أن يقتّل الناس تقتيلاً ويمثل بهم ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها فذلك شىء هو بالجنون أشبه منه بالاحسان

أو يقول : —

لا يذوق الاغفاء إلا رجاء   أن يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الانسان وعماد حياته ، ولازم من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ، فان كان لا بد من دخوله فى باب الاختيار فان من أبعد الاشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل الانسان على طلب النوم رجاؤه أن يرى فيه الأحلام والرؤى ، فان فعل فلا يدخل فى باب أغراضه وأمانيه أن ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتأكلين وهم ملء الارض وهباء الجو ، وأرصاد الاعتاب ، وأعقاب الابواب ، لا تنفتح الأعين

إلا عليهم ، ولا تمتلئ الانظار إلا بهم ، فهم لم يبلغوا فى الضن بأنفسهم والعزْف بها مبلغ من لا يراه الرائى ولا يعثر به إلا اذا ألقى فى طريقه حبائل الاحلام ليصطاده بها

أو يقول : —

لم يتخذ ولداً إلا مبالغة ··· فى صدق توحيد من لم يتخذ ولدا

فان الاولاد لا يُتخذون اتخاذاً وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاما ، وأكثر ما تقذفُ به الارحام من النسمات إنما هو ثمرة من ثمرات الحب يأتى بها عفواً ، لا نبتةٌ من نبات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غنى بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها فى بعض الأرحام ، فان كان لا بد فى اثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث فى الصفات والافعال فالادلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة ، وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ ولداً وأنهم يتخذون ، على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها ، فالمسألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده فلا فضل له فى الإتيان بشىء جديد

أو يقول : —

وما ريح الرياض لها ولكن ··· كساها دفنهم فى الترب طيبا

فان الأزهار التى تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح ، على أن الازهار مُريحة قبل أن يُدفن هؤلاء الموتى فى قبورهم ، فلم يزد فى كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل هو أشبه الاشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الازهار ما خلق إلا إكراماً لبعض النبيين

أو يقول : —

تتلف فى اليوم بالهبات وفى السا ··· عة ما تجتنيه فى سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفا فوق ما يصف الناس ويأتى فى ذلك بما لم يأت به غيره فانزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين أرزاقهم ونفقاتهم ، ولو تقدمتْ هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاةُ يرضون فى مثل هذه الاحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها فى ساعة واحدة أو يوم واحد

أو يقول : —

ولما ضاق بطن الارض عن أن ··· يضم علاك من بعد الممات

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ··· عن الاكفان ثوب السافيات

فان شيئاً من ذلك لم يكن ، فالقبر لا يضيق بأحد ، والجو

لا يكون قبراً ، والريح ليست كفناً ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور ، ولا يزال عارياً غير مدرج فى كفن

وأما حديث القلب فهو ذلك المنثور أو المنظوم الذى تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس بجانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه ، أو ليصور لك مالا تعرف من مشاهد الكون ، أو سرائر القلوب ، أو ليفضى اليك بغرض من أغراض نفسه ، أو لينفّس عنك كربة من كرب نفسك ، أو ليوافى رغبتك فى الافصاح عن معنى من المعانى الدقيقة التى تعتلج فى صدرك ثم يتكاءدك الافصاحُ عنها ، من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا الفلسفة الذهنية ، دخل فى هذا أو ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يخفى كما تخفى الكاس الصافية دون ماتشتمل عليه من الخمر ، فاذا الخمر قائمة بغير اناء ، أو كما تخفى صفحة المرآة الصقيلة بين يدى الناظر فيها ، فلا يرى إلا صورته ماثلة بين يديه . ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو أرق الاحاديث الثلاثة وأشرفها ، وهو الذى يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت أساليبهم ، من تعريف كلمة البيان

ولقد كان من أكبر ما أعاننى على أمرى فى كتابة رسائل

النظرات أشياء أربعة أنا ذاكرها لعل المتأدب يجد فى شئ منها ما ينتفع به فى أدبه

« أولها » أنى ما كنت أحتفل من بين تلك الاحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، أى أننى ما كنت أتكلف لفظاً غير اللفظ الذى يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا أفتش عن معنى غير المعنى الطبيعى القائم فى نفسى ، بل كنت أحدث الناس بقلمى كما أحدثهم بلسانى ، فاذا جلست الى مكتبتى خيل الىّ أن بين يدى رجلا من عامة الناس مقبلا علىّ بوجهه ، وأن من أشهى الاشياء وآثرها فى نفسى أن لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطرى حتى أفضى به إليه ، فلا أزال أتلمّس الحيلة الى ذلك ولا أزال أتأتّى اليه بجميع الوسائل وألح فى ذلك إلحاح المشفق المجد حتى أظن أنى قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيد نفسى بوضع مقدمة الموضوع فى أوله ، ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزاماً مطرداً إبقاء على نشاطه واجمامه واشفاقاً عليه أن يمل ويسأم فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به

« وثانيها » أنى ما كنت أحمل نفسى على الكتابة حملا ، ولا أجلس الى مكتبتى مطرقاً مفكراً : ماذا أكتب اليوم ،

وأى الموضوعات أعجب وأغرب ، وألذ وأشوق ، وأيها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ، بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضى الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أتعمد سخطهم ، ولا أتطلب رضاهم

« وثالثها » أنى ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيالا غير مرتكز على حقيقة ، لأنى كنت أعلم أن الحقيقة المجردة من الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً ، وأحسب أن السبب فى ذلك أن أكثر ماتشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب ، والآراء والأخلاق ، والخواطر والتصورات ، انما هو أثر من آثار الخيالات الذهنية التى تتراءى فى سماء الفكر ، ثم لا تزال بها الأيام تكسوها طبقة بعد طبقة من غُبار القِدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة فى الأذهان ، وكما أن الحديد لا يفل الا الحديد ، واللون لا يذهب به الا لونٌ غيره ، كذلك الخيال لا يذهب به ولا يزعجه من مكانه الا الخيال ، وللخيال الأثر الأعظم في تكوين هذا المجتمع الانسانى وتكييفه بالصورة التى يريدها ، فلولا خيال الشعر ماهاج الوجد فى قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ماهلك الجندى فى ساحة الحرب ، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت

المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة ماعطف غنى على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة انما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ، ولا تصعد الى سماء

« ورابعها » أنى كنت أكتب للناس لا لأعجبهم ، بل لأنفعهم ، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت ، بل لأجد فى نفوسهم أثراً مما كتبت ، والناس كما قلت فى بعض رسائلى خاصة وعامة : أما خاصتهم فلا شأن لى معهم ، ولا علاقة لى بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتى فى شأن من شؤونهم ، فلا أفرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ، لانى لم أكتب لهم ، ولم أتحدث معهم ، ولم أُشهدهم أمرى ، ولم أُحضرهم عملى ، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أستمع منهم شيئاً مما يتعلق بى من خير أو شر ، لانى راض عن فطرتى وسجيتى فى اللغة التى أكتب بها فلا أحب أن يكدرها علىّ مكدر ، وعن آرائى ومذاهبى التى أودعها رسائلى فلا أحب أن يشككنى فيها مشكك ، ولم يهبنى الله من قوة الفراسة ماأستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومَشوبهم ، فأُصغىَ الى الاول لاستفيد علمه ، وأُعرضَ عن الثانى لأتقىَ غشه ، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها فى

ساعة معينة ، ثم علم أن على يمين الطريق التي يسلكها روضةً تعتنق أغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً تزأر أسوده ، وتعوى ذئابه ، وتفحّ أفاعيه وصلاله ، فمضى قُدُماً لا يلتفت يَمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يَسرة مخافة أن يهيج بنظراته فضولَ تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض دون طريقه : وأما عامتهم فهم بين ذكى قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب ، ولين الوجدان ، ما يُعده لاستماع القول واتباع أحسنه ، فأنا أحمد الله فى أمره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى الا عما يعجبه ، ولا يسمع إلا ما يطربه ، فأكل أمره الى الله ، وأستلهمه صواب الرأى فيه ، حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً ؟

مصطفى لطفى
المنفلوطى

الغـد

عرفتُ أنى فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم وعرفت أنى آخذٌ الساعة بقلمى بين أناملى وأن بين يدىّ صحيفة بيضاء تسود قليلا قليلا كلما أجريت القلم فيها ولكنى لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبُو (١) دون غايته ، وهل أستطيع أن أتمم رسالتى هذه أو يعترضُ عارض من عوارض الدهر فى سبيلها ، لأنى لا أعرف من شؤون الغد شيأ ولأن المستقبل بيد الله

عرفتُ أنى لبست أثوابى فى الصباح وأنها لا تزال فوق جسمى حتى الآن ولكنى لا أعلم هل أخلعها بيدى أو تخلعها يدُ الغاسل

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد فربما كان ملكا رحيما ، وربما كان شيطاناً رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها وفرقت ذراتها فأصبحت كأنما هى عدم من الاعدام التى لم يسبقها وجود

(١) كبا سقط على وجهه

الغد بحر خضم زاخر يَعُبُّ عبابه [١] ، وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل فى جوفه الدر والجوهر ، أو الموت الاحمر

لقد غمَض الغد عن العقول ودق شخصه عن الانظار حتى لو أن انسانا رفع قدمه ليضعها فى خروجه من باب قصره لا يدرى أيضعها على عتبة القصر ، أم على حافة القبر

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار تحوم حوله البصائر وتَسقَّطه [٢] العقول وتستدرجه الأنظار فلا يبوح بسر من أسراره الا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال

كأنى بالغد وهو كامن فى مَكمنه رابض فى مَجثِمه [٣] متلفع بفضل إزاره ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول فى نفسه لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث وهذا البانى أنه يبنى للخراب وهذا الوالد أنه يلد للموت ما جَمع الجامع ولا بنى البانى ولا ولد الوالد

ذلل الانسان كل عقبة فى هذا العالم فاتخذ نفقا فى الأرض وصعد بسُلّم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب [٤] من حديد وخيوط من نُحاس ، وانتقل بعقله الى العالم العلوى

(١) يعب عبابه يرتفع موجه (٢) تسقط الخبر أخذه شيئاً فشيئاً (٣) مجثم الطائر موضع جثومه أى تلبده بالارض (٤) الاسباب الحبال وكل ما يوصل بين الشيئين

فعاش فى كواكبه وعرف أغوارها وأنجادها ، وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرها ، ورطبها ويابسها ، ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الأشعة والموازينَ لوزن كرة الأرض اجمالا وتفصيلا ، وغاص فى البحار فعرف أعماقها وفحص تربتها وأزعج سكانها ونبش دفائنها وسلبها كنوزَها وغلبها على لآلئها وجواهرها ، ونفذ من بين الاحجار والآكام الى القرون الخالية فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون ، وأين يسكنون ، وماذا يأكلون ويشربون ، وتسرّب من منافذ الحواس الظاهرة الى الحواس الباطنة فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها ، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى ، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرُؤ على فتحه ، بل لا يجسُر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحدا

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلا لنرى صفحة [١] واحدة من صفحات وجهك المقنع أوْ لا فاقتربْ منا قليلا علنا نستطيع أن نستشف صورتك

(١) صفحة الشىء جانبه

من وراء هذا اللثام المسبَل دوننا فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك

أيها الغد ، إن لنا آمالا كباراً وصغاراً ، وأمانيّ حساناً وغير حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ، أأذلتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين

لا لا . صن سرك فى صدرك وأبق لثامك على وجهك ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا حتى لا تفجعنا فيها فتفجعَنا فى أرواحنا ونفوسنا فانما نحن أحياء بالآمال وان كانت باطلة ، وسعداء بالامانى وان كانت كاذبة :

وليست حياة المرء الا أمانيا اذا هى ضاعت فالحياة على الأثر

الكاس الاولى

كان لى صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه فى حالىْ بعده وقربه . وغضبه وحلمه . وسخطه ورضاه . ففرق الدهر بينى وبينه فراق حياة لا فراق ممات . فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتاً . بل أنا لا أبكى الا حياته . ولا أتمنى الا مماته . فهل سمعت بأعجب من هذه الخلَّة الغريبة فى طبائع النفوس

علقتْ حبالى بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفنى ثم سلك سبيلا غير سبيله فأنكرته وأنكرنى حتى ما أمر بباله لان الكأس التى عَلِق بها لم تدع فى قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها . وربما كان يدفعنى عن مخيلته دفعاً اذا تراءيتُ فيها لانه اذا ذكرنى ذكر معى تلك الكلمات المرة التى كنت ألقاه بها فى فاتحة حياته الجديدة . وما كان له وهو يهيم فى فضاء سعادته التى يتخيلها أن يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيأ جديداً ، لان حياة

المدمنين حياة متشابهة متماثلة لا فرق بين صبحها ومسائها ، وأمسها وغدها ، ذَهاب الى الحانات فشراب ، فخُمار (١) فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ، والمنظر المتكرر لا يَلفت النظر ولا يَشغَل الذهن حتى أن بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها وكان أحرى أن يوقظه دورانها

لذلك لم يَشغَل هذا المسكين محلا من قلبي الا بعد أن سكنت دورته ، وهدأت حركته .فلم أعد أراه معربداً فى الحانات ولا مطرَحاً فى مدارج الطرق ولا معتقَلا فى أيدى الشُرَط (٢) هنالك سألت عنه فقيل لى انه مريض فلم أعجب من شئ كنت أعُدله الايام والاعوام كما يَعد الفلكى الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب

دخلت عليه أعوده فلم أجد عنده طبيباً ولا عائداً لانه فقير والاطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء ، والاصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر ، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير

(١) الخمار صداع الشراب (٢) الشرط أعوان الامير ومفرده شرطى بضم الشين وسكون الراء

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه ، لانى لم أجد فيه ذلك الروح العالى الذى كان يرفرف بأجنحته فى غرفه وقاعاته ، ولم أر دُخان المطبخ ولم أسمع ضوضاء الخدم ولا بكاء الاطفال ولا رنين الاجراس ، فكأننى دخلت القبر أزور الميت لا المنزلَ أعود الحىّ

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كِلّته البالية عن خيال لم يبق منه الا إهاب (١) لاصق بعظم ناحل ، فقلت أيها الخيال الشاخص ببصره الى السماء قد كان لى فى إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلنى عليه . فبعدَ لأىٍ مّا (٢) حرك شفتيه وقال ، هل أسمع صوت فلان ، قلت نعم مم تشكو ، فزفَر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب ، أشكو الكاس الاولى ، قلت أى كاس تريد ، قال أريد الكاس التى أودعتها مالى وعقلى وصحتى وشرفى وها أنا ذا اليوم اُودعها حياتى ، قلت قد كنت نصحتك ووعظتك وأنذرتك بهذا المصير الذى صرتَ اليه اليوم فما أجديت عليك شيأ ، قال ما كنت تعلم حين نصحتنى من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما كنت أعلم ولكننى كنت

(١) الاهاب الجلد (٢) يقال فعله بعد لاى أى بعد ابطاء وما زائدة

شربت الكأس الاولى فخرج الأمر من يدى . كل كأس شربتها
جنتها علىّ الكأس الاولى . أما هى فلم يجنها علىّ غير ضعف
وقصور عقلى عن ادراك خداع الاصدقاء والخلطاء

لم تكن شهوة الشراب مركبة فى الانسان كبقية الشهوات
فيُعذَر فى الانقياد اليها كما يعذر فى الانقياد الى غيرها من
الشهوات الغريزية، فلا سلطان لها عليه الا بعد أن يتناول الكأس
الأولى، فلم يتناولها؟ يتناولها لان الخونة الكاذبين من خُلانه
وعشرائه خدعوه عن نفسه فى أمرها ليستكملوا بانضمامه اليهم
لذتهم التى لا تتم الا بفراغ الكؤوس وضوضاء الاجتماع ، ولو
علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه ، وأى
ذريعة تذرّعوا بها الى ذلك لتحققت انه أبله الى النهاية من البلاهة ،
وضعيف الى الغاية التى ليس وراءها غاية

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف فاسمع كيف خدعنى الاصدقاء
وزينوا الى ما يزينه الشيطان للانسان

قالوا إن حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه
الادواء الا الشراب ، وقالوا إن الشراب يزيد رونق الجسم
ويبعث نشاطه ،وأنه يفتق اللسان، ويعلم الانسان البيان ، وانه
يشجع الجبان ويبعث فى القلب الجرأة والاقدام . هذا ما سمعته

فصدقته وخدعت به . صدقت أن فى الشراب أربع مزايا .
السعادة والصحة والفصاحة والاقدام . فوجدت فيه أربع رزايا .
الفقر والمرض والسقوط والجنون

غرّهم من الصحة ذلك اللون الاحمر الذى يتركه الشراب
وراءه فى الاعضاء ، وهو يتغلغل فى الاحشاء ، ومن الفصاحة
الهذَرُ والهذيان ، وهُجر [1] القول وبذاءة اللسان ، ومن
الاقدام العربدةُ التى لا تسكن الا فى غرفة السجن ، ومن
السعادة اللحظاتُ القليلة التى يغشّى فيها على عقل الشارب فيعمى
عن رؤية ما يحيط به من الاشياء كما هى فتنعكس فى نظره الحقائق
حتى يتخيل الشتم طُرفة [2] والصفع تحية فيضحكه من ذلك
ما يضحك الاطفال والممرورين [3]

أى سرور لمن يعيش فى منزل لا يزور الابتسام ثغراً من
ثغور ساكنيه ، أى سرور لمن يودعه أهله كل يوم فى صباحه
بالحسرات ، ويستقبلونه فى مسائه بالزفرات ، أى سعادة لمن
يمشى دائماً فى طريقه متلوياً متمعّجاً [4] يتسرب فى المنعطفات
والازقة ويعوذ بألواذ [5] الجدُر والاسوار فراراً من نظرات

---

(١) الهجر الفحش (٢) الطرفة الملحة المستحسنة (٣) الممرور الذى هاجت
مرته ويطلق على المجنون (٤) متثنيا (٥) لوذ الجبل جانبه والجمع ألواذ

الجزار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء فى فاتحة حياتى التعسة فكان يمر بخاطرى مايمر بخاطر أمثالى أنهم قتلى الادمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدر لنفسى القصد فيه إن قدّر لى فى أمره شئ حتى لا أبلغ مبلغهم ولا أنزل منزلتهم، فلما شربت أخطأ العدّ وضاع الحساب ، وفسد التدبير ، واختلف التقدير ، وغُلبت على أمرى كما يُغلب على أمره كل مخدوع بمثل ماخدعت به ، ولولا الكاس الاولى ماهلكت ، ولا شكوت الذى شكوت ، ولولاها ماعافنى الأصدقاء ، ولا زهد فىّ الأقرباء ، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء

فعاهدته على ذلك ثم تركته فى حالة

تُصمّ السميع وتعمى البصير   ويُسأل من مثلها العافيه

الدفين الصغير

الآن نفضت يدى من تراب قبرك يا بُنى وعدت الى منزلى كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب لا أملك الا دمعة لا أستطيع ارسالها ، وزفرة لا أستطيع تصعيدها

ذلك لأن الله الذى كتب لى فى لوح مقاديره هذا الشقاء فى أمرك فرزقنى بك قبل أن أسأله اياك ، ثم استلبك منى قبل أن أستعفيه منك ، قد أراد أن يتم قضاءه فىّ وأن يجرعنى الكأس حتى ثمالتها فحرمنى حتى دمعةً أرسلها ، أو زفرة أصعّدها ، حتى لا أجد فى هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه ، فلله الحمد راضياً وغاضباً ، وله الثناء منعماً وسالباً ، وله منى ما يشاء من الرضى بقضائه ، والصبر على بلائه

رأيتك يا بُنى فى فراشك عليلا فجزعت ، ثم خفت عليك الموت ففزعت ، وكأنما كان يخيّل الىّ أن الموت والحياة شأن من شؤون الناس وعمل من الأعمال التى تملكها أيديهم فاستشرت الطبيب فى أمرك فكتب لى الدواء ، ووعدنى بالشفاء ، فجلست

بجانبك أصبّ فى فمك ذلك السائل الاصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من بين جنبيك الحياةَ قطعة قطعة ، حتى نظرتُ فاذا أنت بين يدىّ جثة باردة لا حراك بها ، واذا قارورةُ الدواء لا تزال فى يدى ، فعلمت أنى قد ثكلتك وأن الأمر أمر القضاء ، لا أمر الدواء

سأنام يا بُنى بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج منى المقدار ما عالج منك ، وأحسبُ أن آخر ما سيبقى فى ذاكرتى فى تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها ، وخطوبها وأحداثها ، هو الندم العظيم الذى لا أزال أكابد ألمه على تلك الجُرَع المريرة التى كنت أجرّعك اياها بيدى وأنت تجود بنفسك فيربدّ وجهك ، وتختلج أعضاؤك ، وتدمع عيناك ، وما لك يد فتستطيع أن تمدها الىّ لتدفعنى عنك ، ولا لسان فتستطيع أن تشكوَ الىّ مرارةَ ما تذوق

لقد كان خيراً لى ولك يا بنى أن أكل الى الله أمرك فى شفائك ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكون آخر عهدك بى يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التى كنت أجشّمك اياها ، فلقد أصبحتُ أعتقد أنى كنت عوناً للقضاء عليك ، وأن كأس المنية التى كان يحملها لك القدر فى يده لم تكن أمرّ مذاقاً فى فمك من قارورة الدواء التى كنت أحملها لك فى يدى

ما أسمج وجه الحياة من بعدك يا بُنى ، وما أقبح صورة هذه الكائنات فى نظرى ، وما أشد ظلمة البيت الذى أسكنه بعد فراقك اياه ، فلقد كنتَ تَطلُع فى أرجائه شمساً مشرقة تضىء لى كل شىء فيه ، أما اليوم فلا ترى عينى مما حولى أكثر مما ترى عينك الآن فى ظلمات قبرك

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا ، وتفجّعوا ما تفجّعوا ، حتى اذا استنفدوا ماء شؤونهم ، وضعفت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا ، لجأوا الى مضاجعهم فسكنوا اليها ، ولم يبق ساهراً فى ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين ، عين أبيك الثاكل المسكين ، وعين أخرى أنت تعلمها

لقد طال علىّ الليل حتى مللته ، ولكننى لا أسأل الله أن ينفرج لى سوادُه عن بياض النهار ، لأن الفجيعة التى فُجعْتُها بك يا بُنى لم تُبق بين جنبى بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باقٍ حتى لا أرى وجه النهار ، بل ليت النهار يضىء فقد ملات هذا الظلام

دفنتك اليوم يا بُنى ودفنتُ أخاك من قبلك ، ودفنتُ من قبلكما أخويكما ، فأنا فى كل يوم أستقبل زائراً جديداً ، وأودع ضيفاً راحلا ، فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقى القلوب ، واحتمل

فوق ما نحتمل من فوادح الخطوب

لقد افتلذ كل منكم يا بَنِيَّ من كبدى فلذة فأصبحتْ هـذه الكبد الخرقاء مِزَقًا مبعثرة فى زوايا القبور ، ولم يَبق لى منها الا ذِماء قليـل لا أحسبه باقياً على الدهر ، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهبَ به كما ذهب باخواته من قبل

لماذا ذهبتم يا بَنِيَّ بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم ان كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون

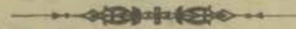
لولا مجيئكم ما أسفت على خلوّ يدى منكم ، لانى ما تعودت أن تمتد عينى الى ما ليس فى يدى ، ولو أنكم بقيتم بعد ما جئتم ما تجرعتُ هذه الكأس المريرة فى سبيلكم

لقد كنت أرضى من الدهر فى أمركم أن يتزحزح لى عن طريقى التى أسير فيها ، وأن يزوىَ وجهَه عنى فلا أراه ولا يرانى ، ولا يحسن الىّ ولا يسىء ، ولا يتقدم الى بخير ولا شر ، ولا يتراءى لى مبتسما ولا مقطباً ، ولا ضاحكا ولا باكياً ، لو أنه رضى منى بذلك ، ولكنه كان أذكى قلباً ، وأنفذ بصراً ، من أن يفوته العلم بأنى ما كنت أبكى على النعمة لو لم تكن فى يدى ، وما كنت أجد مرارة فقدانها ، لو لم أذق حلاوة وِجْدانها ، وكان لا بد له أن يُجرَى فىَّ سنة الشقاء الذى أخذ على نفسه أمام الله

أن يُجريَها بين عباده ، فلما عجز عن أن يدخل الىّ من باب الطمع ، دخل الى من باب الامل ، فهو يمنحنى المنحة فأغتبط بها حقبة من الدهر حتى اذا علم أن بذرة الامل التى غرسها فى نفسى قد نمت وأزهرت وأننى قد استعذبت طعم النعمة التى آتانى كرّ علىّ فانتزعها من يدى أنعمَ ما أكون بها كما تُنتزع الكأس الباردة من يد الظامئ الهيمان ، ليعظم وقع السهم فى كبدى ، ويَفدحَ سلبُ النعمة من يدى ، ولولا ذلك ما نال منى منالا ، ولا وجد الى سبيلا

يا بَنِيَّ إن قدر الله لكم أن تتلاقوا فى روضة من رياض الجنة ، أو على شاطئ غدير من غدرانها ، أو تحت ظلال قصر من قصورها ، فاذكرونى مثل ما أذكركم ، وقفوا بين يدى ربكم صفاً واحداً كما يقف بين يديه المصلون ، ومدوا اليه أكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون ، وقولوا له : اللهم انك تعلم أن هـذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه وقد فرقت الأيام بيننا وبينه فهو لا يزال يلاقى من بعدنا من شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله ، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجـد به ، والحنين اليه ، ما ينغص علينا هناء هـذه النعمة التى ننعم بها فى جوارك

بين سمعك وبصرك ، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذاباً
كثيرا ، فإما أن تأخذنا اليه أو تأتىَ به الينا : لا بل
لا تطلبوا منه الا أن يأتى بى اليكم ، فان الحياة التى كرهتها
لنفسى لا أرضاها لكم ، فعسى أن يستجيب الله من دعائكم
مالم يستجب من دعائى ، فيَرفع هذا الستار المسبَل بينى وبينكم ،
فنلتقى كما كنا



مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من علياء سمائه ، أأنتَ عروس حسناء
تَشرف من نافذة قصرها ، وهذه النجوم المبعثرة حواليك
قلائدُ من جمان ، أم ملك عظيم جالس فوق عرشه ، وهذه
النيرات حور وولدان ، أم فص من ماس يتلألأ ، وهذا الافق
المحيط بك خاتم صيغ من الانوار ، أم مرآة صافية ، وهذه
الهالة الدائرة بك إطار ، أم عين ثرّة من الماء ، وهذه الاشعة
جداول تتدفق ، أو تنور مسجور ، وهذه الكواكب شرر يتألق

أيها القمر المنير :

انك أنرت الارض وهادها ونجادها ، وسهلها ووعرها ،
وعامرها وغامرها ، فهل لك أن تشرق فى نفسى فتنير ظلمتها ،
وتبددَ ما أظلها من سحب الهموم والاحزان

أيها القمر المنير :

ان بينى وبينك شبهاً واتصالا ، أنت وحيد فى سمائك ، وأنا
وحيد فى أرضى ، كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً ،

لا يلوى على أحد ، ولا يلوى عليه أحد ، وكلانا يبرز لصاحبه فى ظلمة الليل فيسايره ويناجيه . يرانى الرائى فيحسبنى سعيداً لأنه يغتر بابتسامة فى ثغرى ، وطلاقة فى وجهى ، ولو كُشف له عن نفسى ورأى ما تنطوى عليه من الهموم والاحزان ، لبكى لى بكاء الحزين إثر الحزين ، ويراك الرائى فيحسبك مغتبطاً مسروراً ، لانه يغتر بجمال وجهك ، ولمعان جبينك ، وصفاء أديمك ، ولو كُشف له عن عالمك لرآه عالماً خراباً ، وكوناً يباباً ، لا تهب فيه ريح ، ولا يتحرك شجر ، ولا ينطق انسان ، ولا يبغم حيوان

أيها القمر المنير :

كان لى حبيب يملأ نفسى نورا ، وقلبى لذة وسرورا ، وطالما كنت أناجيه ويناجينى بين سمعك وبصرك ، وقد فرق الدهر بينى وبينه ، فهل لك أن تحدثنى عنه وتكشف لى عن مكان وجوده ، فربما كان ينظر اليك نظرى ، ويناجيك مناجاتى ، ويرجوك رجائى ، وهائنذا كأنى أرى صورته فى مرآتك ، وكأنى أراه يبكى من أجلى كما أبكى من أجله ، فأزداد شوقاً اليه ، وحزناً عليه

أيها القمر المنير :

مالى أراك تنحدر قليلا قليلا الى الغروب كأنك تريد أن

تفارقنى ، ومالى أرى نورك الساطع قد أخذ فى الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هذا السيف المسلول الذى يلمع من جانب الافق على رأسك

قف قليلا لا تغب عنى ، لا تفارقنى ، لا تتركنى وحيداً ، فانى لا أعرف غيرك ، ولا آنس بمخلوق سواك

آه لقد طلع الفجر ففارقنى مؤنسى ، وارتحل عنى صديقى ، فتى تنقضى وحشة النهار ، ويقبل الىّ أُنس الظلام



أين الفضيلة

قرأت فى بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة فى حياته وانما تخيل فى ذهنه صورة ألّفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها فى صور البشر ، فلما استقرت فى مخيلته تجسمت فى عينيه فرآها فأحبها حباً مَلَك عليه قلبَه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب ، فأنشأ يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها أعواماً طوالا حتى وجدها

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنى أنا ذلك الفتى بعينه لا فرق بينى وبينه الا أنه يسمى ضالته الفتاةَ وأسميها الفضيلة وأنه فتش عنها فوجدها وفتشتُ عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت اليها سبيلا

فتشت عن الفضيلة فى حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً فى أثواب بائع ، وجدته يبيعنى بدينارين ما ثمنه دينار واحد فعلمت أنه سارق للدينار الثانى ، ولو وُكل الىّ أمر القضاء ما هان علىّ أن أعاقب لصوص الدراهم وأُغفل لصوص الدنانير

ما دام كل منهما يسلبنى مالى ويتغفّلنى عنه

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ولكن أنكر عليه أن يتناول منه أكثر من الجزاء الذى يستحقه على جَهد نفسه فى جلب السلعة وبذلِ راحته فى صونها وإحرازها ، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المال وحرامه أن الاول بدلُ الجد والعمل ، والثانىَ بَدلُ الغش والكذب

فتشت عن الفضيلة فى مجالس القضاء فرأيت أن أعدل القضاة من يَحرص الحرصَ كله على أن لا يهفوَ فى تطبيق القانون الذى بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسى الذى يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه . أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة الحقوق على أهلها وانزال العقوبات منازلها من الذنوب فهى عنده ذيول وأذناب لا يأبَه [1] لها ولا يحتفل بشأنها الا اذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون فى طريق واحد مصادفة واتفاقاً ، فاذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير ما يعلم ودان البرىء وبرأ الجانى ، فاذا عتَب عليه فى ذلك عاتب كانت معذرته اليه حكمَ القانون عليه ، كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون

(١) أبه للشئ تفطن له واحتفل به

وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه ،

فتشت عن الفضيلة فى قصور الاغنياء فرأيت الغنى إما شحيحاً أو متلافاً ، أما الاول فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضى الله عنها وسمع فى جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد أصبعيه الى أذنيه ثقة منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة ولا تمر بين طياته نسمات الاحسان ، وأما الثانى فماله بين ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء ، فعلى يد أى رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الاغنياء

فتشت عنها فى مجالس السياسة فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفة معناها الكذب ، ورأيت أن الملك فى كرسى مملكته ، كالحُوذىّ فى كرسىّ عربته ، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض « تعريفته » ، وذاك ينقض معاهدته ، ورأيت أن أعدى عدوّ للانسان الانسان ، وأن كل أمة قد أعدت فى مخازنها ومستودعاتها وفى بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله أن تُعده لاخيها من عُدد الموت وأفانين العذاب ، حتى إذا وقع بينهما الخلف على حد من الحدود أو لقب من الالقاب لبس الانسان فروة السبُع واتخذ له من تلك العُدد الوحشية أظفاراً كأظفاره وأنياباً كأنيابه فشحَذ

الاولى وكشّر عن الاخرى ثم هجم على ولد أبيه وأمه هجمة لا يعود منها الا به أو بنفسه التى جنبيه ، وإنك لو سألت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شأنكما وعلام تقتتلان وما هذه المَوْجدة التى تحملانها بين جنبيكما ومتى ابتدأت الخصومة بينكما وعهدى بكما أنكما ما تعارفتما الا فى الساعة التى اقتتلتما فيها لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما وأنهما ما خرجا من ديارهما الا ليضعا درّة فى تاج الملك أو « نيشاناً » على صدر القائد

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتجران بالعقول فى أسواق الجهل ورأيت كلا منهما قد ثغَر له فى كل رأس من رؤوس البشر ثَغرة ينحدر منها الى العقول فيفسدها والقلوب فيقتلها ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها والخزائن فيسلبها ، هذا باسم السياسة وذاك باسم الدين

فتشت عنها فى كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثَر بها فليت شعرى هل أجدها فى الحانات والمواخير أو فى مغارات اللصوص أو بين جدران السجون

سيقول كثير من الناس قد غلا الكاتب فى حكمه وجاوز الحد فى تقديره فالفضيلة لا تزال تجد فى صدور كثير من الناس صدراً رحباً ، وموردا عذباً ، وإنى قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم:

إنى لا أنكر وجود الفضيلة ولكنى أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عينى سحابة سوداء أظلم لها بصرى حتى ما أجد فى صفحة السماء نجماً لامعاً، ولا كوكباً طالعاً

كل الناس يدعى الفضيلة وينتحلها وكلهم يلبس لباسها ويرتدى رداءها ويعدّ لها عدّتها من منظر يستهوى الاذكياء والاغبياء ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً، فمن لى بالوصول اليها فى هذا الظلام الحالك والليل الأليل

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها فسعادتى فيها أن أعثر فى طريقى فى يوم من أيام حياتى بصديق يصدُقنى الود وأصدُقه فيقنعه منى ودى وإخلاصى دون أن يتجاوز ذلك الى ماوراءه من مآرب وأغراض وأن يكون شريف النفس فلا يطمع فى غير مطمع شريفَ القلب فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً ولا يحدث نفسه فى خلوته بغير ما يحدث به الناس فى محضره شريفَ اللسان فلا يكذب ولا ينمّ ولا يُلم بعرض ولا ينطق بهجر [1] شريفَ الحب فلا يحب غير الفضيلة ولا يبغض غير الرذيلة

هذه هى السعادة التى أتمناها ولكنى لا أراها

(١) الهجر الفحش

إنى لأرى الرياض الغنّاء تهفو أشجارها، وترنّ أطيارها، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الأفاعي الرقطاء، فى الرمال البيضاء، وأرى أنامل النسائم تعبثُ بمنثورات الاوراق، عبثَ الهوى بألباب العشاق، وأسمع ما بين صفير البلابل، وخرير الجداول، نغمات شجية تبلغ من نفس الانسان، ما لا تبلغ أوتار العيدان، فلا يسرنى منها منظرٌ ولا يطربنى مسمع، لأنى لا أرى بين هذه المشاهد التى أراها ضالتى التى أنشُدها

لقد سمُج وجه الرذيلة فى عينى وثقل حديثها فى مسمعى حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرها، وسرورها وحزنها

ولولا بُنيّات صغار يفقِدن بفقدى طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق الى ذلك العالم الصامت فأجد من الانس به والسكون اليه ما وجده الذى يقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت انسان فكدت أطير

الغنى والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً فرثيت لحاله وسألته ما باله فشكا إلىّ الجوع ففثأته [1] عنه ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لى من أرباب الثراء والنعمة فأدهشنى أنى رأيته واضعاً يده على بطنه وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير فسألته عما به فشكا إلى البِطنة فقلت يا للعجب : لو أعطى الغنى الفقيرَ ما فضَل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سُقماً ولا ألماً ، لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوْعته . ويطفئ غُلته ، ولكنه كان محباً لنفسه مغالياً بها فضم الى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبِطنة حتى لا يَهنِئَ للظالم ظلمه ، ولا يطيب له عيشه ، وهكذا يصدق المثل القائل : بطنة الغنى انتقامٌ لجوع الفقير :

ما ضنت السماء بمائها ، ولا شحّت الارض بنباتها ، ولكن

(١) يقال فثأت فلاناً عن فلان اذا سكنت غيظه عليه

حسد القوىُّ الضعيفَ عليهما فزواهما [2] عنه واحتجنهما [3] دونه فأصبح فقيراً معدِماً . شاكياً متظلماً . غرماؤه المياسيرُ الاغنياء ، لا الأرض والسماء ،

ليتنى أملك ذلك العقل التى يملكه هؤلاء الناس فأستطيع أن أتصوَّر كما يتصوَّرون حجةَ الأقوياء فى أنهم أحق باحراز المال وأولى بامتلاكه من الضعفاء ، إن كانت القوةُ حجتَهم عليهم فلمَ لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم ، وما الحياة فى نظر الحىّ بأثمن قيمة من اللقمة فى يد الجائع ، وان كانت حجتُهم أنهم ورثوا ذلك المال من آبائهم قلنا لهم إن كانت الأبوَّة علة الميراث فلمَ ورثتم آباءكم فى أموالهم ولم ترثوهم فى مظالمهم ، فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء ، وكان حقاً عليهم أن يردوا اليهم ما اغتصبوا منهم ، فان كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم فى رد المال الى أربابه ، لا فى الاستمرار على اغتصابه

ما أظلم الأقوياء من بنى الانسان وما أقسى قلوبهم ، ينام أحدهم ملءْ جفنيه على فراشه الوثير ولا يُقلقه فى مضجعه أنه

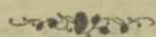
(٢) زوى عنه حقه منعه إياه (٣) احتجن الشئ إذا جذبه بالمحجن إلى نفسه والمحجن الصولجان والمراد أنه استأثر به

يسمع أنين جاره وهو يرتعد بردا ، ويجلس أمام مائدة حافلة
بصنوف الطعام قديده وشوائه حلوه ومُرّه ولا ينغّص عليه
شهوته عِلمُه أن بين أقربائه وذوى رحمه من تثب أحشاؤه شوقاً
الى فُتات تلك المائدة ويسيل لُعابه تلهفاً على فضلاتها ، بل إن
بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه فيظل يسرُد
على مسمع الفقير أحاديث نعمته وربما استعان به على عدّ ما تشتمل
عليه خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من
الفراش والرياش ليكسر قلبه وينغّص عليه عيشه ويبغّض اليه حياته ،
وكأنه فى كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته يقول له : أنا سعيد
لأنى غنىّ وأنت شقىّ لأنك فقير :

أحسَبُ لولا أن الاقوياء فى حاجة الى الضعفاء يستخدمونهم
فى مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم ويسخرونهم
فى مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، ولولا أنهم يؤثرون الابقاء
عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين
أيديهم لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولحرموهم الحياةَ كما
حرموهم لذةَ العيش فيها

لا أستطيع أن أتصور أن الانسان انسان حتى أراه محسناً،
لأنى لا أعتمد فصلا صحيحاً بين الانسان والحيوان الا الاحسان،

وإنى أرى الناس ثلاثة ، رجلٌ يحسن الى غيره ليتخذ إحسانَه اليه
سبيلا الى الاحسان الى نفسه ، وهو المستبد الجبار الذى لا يفهم
من الاحسان الا أنه يستعبد الانسان ، ورجل يحسن الى نفسه
ولا يحسن الى غيره ، وهو الشره المتكالب الذى لو علم أن الدم
السائل يستحيل الى ذهب جامد لذَبح فى سبيله الناس جميعاً ،
ورجل لا يحسن الى نفسه ولا الى غيره ، وهو البخيل الاحمق
الذى يجيع بطنه ليُشبع صُندوقه ، أما الرابع الذى يحسن الى غيره
ويحسن الى نفسه، فلا أعلم له مكاناً ولا أجد اليه سبيلا ، وأحسَبُ
أنه هو ذلك الذى كان يفتش عنه الفيلسوف اليونانى ديوجين
الكلبى حينما سئل ما يصنع بمصباحه وكان يدور به فى بياض النهار
فقال : أُفتش عن انسان :



مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنى أمشى فى برية جرداء قفر قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعدَ الامواج المتوثبة فى القاموس [1] المحيط. وكانت الشمس قد طفَلت [2] للاياب فلم أر فى بطحائها ظلا غير ظلى المستطيل الذى رسمته يد الشمس فأخطأت فى تصويره كأنما حسبتنى آدم أبا البشر [3] فأوسعتنى طولا، ورسمتنى ميلا

أنشأت أمشى لا أعرف لى مذهباً ولا مضطرَباً، وأنَّى يكون ذلك فى صحراء قد تشابهت مسالكها وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها، حتى انحدرت الشمس الى مستقرها، وطار طائر الليل من مكمنه، وما نشر الظلام أجنحته السوداء فى الافق حتى وجدتُنى أحير من دمعة وجد فى مقلة عاشق، يدفعها الحب ويمنعها الحياء، لا أعلم هل أنا سرٌّ كامن فى باطن الظلماء،

(١) القاموس وسط البحر ومعظمه (٢) طفلت الشمس احمرت للغروب
(٣) ربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهنى على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الشياطين)

أو حوتٌ مضطرب فى أعماق الماء، وأحياناً كان يخيل الىَّ أنى فى مَنجم من مناجم الفحم فأمد يدى أتلمَّس جدرانه مخافة أن أصطدم بواحد منها، ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام بدأ ينفض صبغته وأن ذراته تتطاير ههنا وههنا فاذا أنا بين يدى جبل عال كأنما هو جدار قائم يُمسك السماء أن تقع على الارض، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الاحمر، ومن شعاعها الرداء الاصفر.

ولا تسل هنالك عما ألمَّ بقلبى من الهم وعقلى من الخبال حينما رأيت أن صعود السماء أقرب الى الامل من صعود هذا الجبل، وحرت بين الإقدام والإحجام، فلم أرَ بُداً من الاستسلام، لمقدور الحِمام، ثم رميت بطرفى فرأيت بين الصخور المبعثرة فى سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبى العلاء

ضِجعة الموت رقدة يستريح الـ ... جسم فيها والعيش مثل السهاد

وما هى الا غمضة الطرف حتى شعَرت بأنها تحرك قليلا قليلا ثم نهضتْ ثم طارتْ فكدت أحسب انه الموت قد نزل وأنها الروح تصعد الى الملأ الأعلى لولا أن فتحت عينى فرأيت ما كنت

أحسبه صخرة طائراً أشبه شيء بالنسر فى خلقه والقبة فى ضخامتها
واستدارتها ، وما زال ذاهباً بى فى أفق السماء ثم رنّق لحظة فى
الهواء ثم هبط الى قمة الجبل فأسرعت بالانحدار عنه وهنالك
أحسست بسلسبيل بارد من الامل يتسرب الى قلبى فينقع غلته ،
ويطفئ لوعته ، لانى رأيت السفح الثانى من الجانب الآخر
ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ، ورأيت
المنازل والقصور كأنها العصافير السوداء ، أو الحمائم البيضاء ،
وكأن ما ألم بنفسى من السرور أنسانى ما ألم بجسمى من النصب
فانحدرت اليها فما بلغتها حتى رأيتنى فى مزرعة فى وسطها بنية قد
وقف على بابها شيخ هو أشبه الاشياء بما يتخيله فريق الخياليين
من علماء الفلك فى صور سكان المريخ فذعر منى كما يذعر الانسان ،
لرؤية الجان ، وما كان الذى قام فى نفسه منى بأكثر مما قام فى
نفسى منه لولا أنى ألفت الغرائب ، وعجمت عود العجائب ،
فتقدمت اليه وكأنما ألهمت لغته الغريبة فحييته بها فحيانى وهو
يقول : ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه
المدينة ، أو أن فى العالم انساناً غير هذا الانسان ، فما زلت أحدثه
وأستدنيه حتى أنس بى ودعانى الى منزله وخلطنى بنفسه وأهله

وقدم لى طعاماً شهياً ومهّد لى مرقداً وثيراً (١) وكان الليل قد أقبل
للمرة الثانية من هجرتى هذه فنمت نوماً هادئاً مطمئناً لا تروعنى
فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الاسرة
الطاهرة الكريمة تصلى الى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين
وتدعو وهى مصطفة صفاً واحداً أن ييسر الله لها عسرها ،
ويسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره ، فأخذ
من نفسى منظرها هذا مأخذاً غريباً فلم أر بداً من الانتظام فى
صفها ، والدعاء بدعائها ، والبكاء لبكائها ، وعجبت أن يكون
مثل هذا الايمان الخالص راسخاً فى نفوس أهل هذه المدينة ولم
يرسل اليها رسول ولم ينزل عليها كتاب ، فلما فرغنا من الصلاة
التفت إلىّ صاحب البيت فقلت له أراكم تتعبدون فمن تعبدون ،
وتصلون فمن الذى تدعون ، قال نعبد الله خالق هذه الكائنات
ومدبرها ، قلت هل رأيتموه حتى عرفتموه ، قال نعم رأيناه فى
آثاره ومصنوعاته ، ورأيناه فى السماء والماء ، والفلك الدائر ،
والنجم السائر ، وفى أجنّة الحيوان ، وبذور النبات ، ورأيناه فى
أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك ، قلت ولِمَ تعبدونه ، قال

(١) الوثير الوطىء

شكراً له على نعمة الخلق والرزق ، وإن أحدنا ليعنيه أن يشكر
لصاحبه نعمتَه اذا أحسن اليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة فأحرِ به
أن يشكر مانح المانحين ، والمحسن الى المحسنين ، فقلت فى نفسى
لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين الذين يعبدون الله مخلصين
له الدين لا يرجون ثواباً ، ولا يخافون عقاباً ، ثم سألته أين تذهبون
بعد الموت ، قال الى النعيم المقيم ، أو العذاب الاليم ، قلت لعلك
تريد الجنة والنار ، قال لا أفهم ما تقول وإنما أعلم أن الإله
الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيراً على إحسانه كما يأبى
عدله أن يسوى بين المحسن والمسيء ، قلت متى يكون المحسن
محسناً والمسيء مسيئاً ، قال الاحسان عمل الخير والاساءة
عمل الشر ، لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالاضرار
بأخيه أو من يقصر فى دفع الأذى عنه ، فقلت فى نفسى ليت
الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم فى الحيض والاستحاضة والمذْى
والودْى [1] والحدث الأكبر والحدث الاصغر وليت الكلاميين
الذين يسهرون الليالى ويقرّحون المآقي فى عينية الصفات
وغيريتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم والدور والتسلسل
وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله فى مشيئته ويجاذبوه

(1) المذي والودي نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب

قدرته ويغالبوه على أمره ونهيه ويزاحموه فى لوحه وقلمه يعرفون
من سر الدين وحكمته والغرض الذى قام له ما يعرف هؤلاء
البله الاغرار الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ولا يميزون بين
الدين والتين

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يُزيرني
المدينة فانحدر بى اليها فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها
متفرقة غير متلاصقة وقد أحاط بكل منزل منها حديقة زاهرة
ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم مجدين فى شؤونهم صغاراً
وكباراً ، رجالا ونساء ، ما فيهم فقير يتسول ، ولا متبطّل
يتثاءب ويتململ . وأغرب ما استهوى نظرى أنى لم أر فى تلك
المدينة ذلك التفاوت الذى أعرفه فى مدائننا بين الناس فى منازلهم
ومراكبهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزيائهم كأن جميع سكانها سواء
فى حالة المعيشة ودرجة الثروة فسألت الشيخ ألا يوجد فيكم غنى
وفقير وسيد ومسود ، قال لا ياسيدى ، حسبُ الرجل منا بيت
يأوى اليه ومزرعة يستغلها ودابة تحمل أثقاله ثم لا شأن له بعد
هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لانه
لا يوجد فينا غنى وفقير ، قلت لا بد أن يوجد بينكم العاجز عن
العمل والكسول المتبطل ، قال أما الكسول فلا وجود له بيننا

لانه يعلم أنا لا نرحمه ولا نغفر له زلّته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل ، وأما العاجز فنحدَب عليه ونحسن اليه ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلا لأننا إنما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين ، ورحمة اليائسين

وإنه ليحدثني بهذا الحديث إذ لاحت لنا بُنية فخمة ضخمة تمتاز عن غيرها من البُنَى بحسن نظامها ، وجمال هندامها ، فقلت للشيخ هل أرى قصر الملك ؟ قال لا ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمته فاحتجن [1] دون عباده أرضهم ومالهم ليعلوَ عليهم ويستأثر بالنعمة من دونهم فغضب الله عليه ، وقلب نعمته نقمة ، ورخاءه شدة ، فانه ما أراح [2] رائحةَ العيش الرغَد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها وحملها فوق ما تحمل طبيعتها ، فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الامراض وأنواع الاسقام ما بغض اليه العيش ، وحبب اليه الموت ، لم يحمه قصره ، ولم يغن عنه ماله ، فهو عبرة المعتبرين ، وموعظة السابلين [3] فكبُر الرجل في ذَرعي [4] وعظمَ في عيني وأكبرتُ فيه وفي أمته هذه الخلالَ

(١) احتجن المال ضمه واحتواه (٢) أراح فلان الشيء وجد ريحه (٣) السابلة المختلفون على الطرقات في حوائجهم (٤) كبر ذرعي عظم وقعه عندي

الشريفة والاخلاق العالية وقلت في نفسي إن مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون الآداب لتعجز عن أن تخرج للناس رجالا يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في أخلاقهم وفضائلهم ، وأردت على ذكر المدارس أن أعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ هل لك أن تُريني مدرسة من مدارسكم ، فعجب لسؤالي وقال ما المدرسة ، فكان عجبي لجوابه أكثر من عجبه لسؤالي وقلت المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون ، وكبار يعلمون ، قال ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار ، قلت ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم ومعادهم ، قال وأي حاجة بنا إلى مثل هذا المجمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود ، إننا ياسيدي أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم إلى غيرنا فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم فيها كيف يرمون البذور وكيف يستنبتونها وكيف يصنعون آلات الزراعة وكيف يستعملونها ، وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويُعدُّون عُددهم ، وإنا لا نعرف علماً غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قِوام حياتنا ، ونستعين به على عبادة ربنا ، قلت ألكم حاكم يتولى أموركم ، قال لنا حكَمٌ لا حاكم

وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامة شأنه فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض من ذلك عارض ، قلت أليس له جند وأعوان يؤيدونه وينفذون أحكامه ، قال نعم كلنا جنده وكلنا أعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وكفى ، قلت أليس له سجن يحبس فيه المجرمين ، قال لا ، حسبُ المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به، وإن أحدنا ليؤثر أن يتخطفه الطير أو يسقط عليه كِسف [١] من السماء قبل أن يرى نفسه بغيضاً إلى قومه صغيراً فى نفوسهم ذليلا فى أعينهم لا يرفعون اليه طرفاً ، ولا يقيمون له وزناً

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا إلى المنزل الذى خرجنا منه فاستقبلنا أهلوه بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق ، فلم أر فيما رأيت من البيوت فى مدن العالم وقراه بيتاً أسعد حظاً ولا أنعم عيشاً ولا أروح بالاً من هذا البيت

تلك مدينة السعادة التى يعيش أهلها سعداء لا يشكون هما

(١) الكسف القطعة

لأنهم قانعون ، ولا يمسكون فى أنفسهم حقداً لأنهم متساوون، ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون

تلك مدينة السعادة التى رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها لولا أن لله فى خلقه سنةً لا تتبدل ، وشأناً لا يتحول ، فقد جاء الليل وأخذت مكانى من مرقدى فى منزل الشيخ فلم أستيقظ حتى رأيتُنى فى فراشى فى منزلى ، فلا السهل ولا الجبل ، ولا الشيخ ولا المزرعة ، ولا المدينة ولا السعادة

ولما نزلنا منزلا طله [١] الندى ... أنيقاً وبستاناً من النوْر حاليا
أجدّ لنا طيبُ المكان وحسنه ... منًى فتمنينا فكنتِ الأمانيا

(١) طله أمطره الطل وهو المطر القليل

أيها المحزون

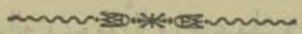
إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد فى جميع شؤونك وأطوارك وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهى فجدير بك أن تطلق لنفسك فى سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب ، أو استعصى عليك مطلب ، وإن كنت تعلم أخلاق الايام فى أخذها وردها ، وعطائها ومنعها ، وأنها لا تنام عن منحة تمنحها حتى تكر عليها راجعة فتستردها وأن هذه سنتها وتلك خلتها فى جميع أبناء آدم سواء فى ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطأ بنعله هام الجوزاء ، ومن ينام على بساط الغبراء ، فخفض من حزنك ، وكفكف من دمعك ، فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان ، وما مصابك بالبدعة الطريفة فى جريدة المصائب والاحزان

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الامل كان يتراءى لك فى سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً ، وقلبك سروراً ، وما هى إلا كرة الطرف أن افتقدته ، فما وجدته ، ولو أنك أجلت فى

أملاك ، لما غلوت فى حزنك ، ولو كنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ، ما تظنه نجما زاهراً ، وهنا لك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله

أسعد الناس فى هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ونظر إليها نظرة المستريب بها وترقب فى كل ساعة زوالها وفناءها ، فإن بقيت فى يده فذاك ، وإلا فقد أعد لفراقها عُدته من قبل

لولا السرور فى ساعة الميلاد ما كان البكاء فى ساعة الموت ، ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر ، ولولا فرحة التلاق ، ما كانت ترحة الفراق



الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذى رأيته صباح أمس منزوياً فى ركن من أركان أحد الأندية وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن وانحنى على نفسه كأنما شعر بأن قلبه يتمشى فى صدره وأنه يحاول الفرار منه فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه يمضى فى سبيله حيث شاء ، فبُعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان ، ولا يفيق من الهموم والأحزان

سألته ما بالك أيها الصديق ، قال لا شىء ، قلت أنت تكتمنى ما فى نفسك ولو عرفتنى ما كتمتنى ، قال ما جهلتك مذ عرفتك ولكننى أعطيت الله عهداً مذ خُلقت ألا أشكو إلا إلى من أرجو عنده البرء ، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس بُرءاً من دائى ، قلت هبني طبيباً والطبيب وإن كان لا يشفى الا نادراً فإنه يسكّن غالباً ويعزى دائماً ، فأنا إن عجزت عن معالجتك ، فلا أعجز عن تعزيتك ، على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه وإلا طار بالقِدر ، طيرانَ الهم بالصدر

فاصغى إلى كلماتى واستخذى لها وأنشأ يحدثنى حديثاً تمازجه العبرات ، وتقطعه الزفرات ، ويقول : زوجنى أبى منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لُبانتها ، وترفيهَ عيشها ، وإرضاء نفسها ، وهو يحسب أنه قد أحسن إلى بسليلة المجد وربيبة النعمة ومالكة الدور ، وساكنة القصور ، أَجلْ إنها ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عليه غفر الله له أنى ما كنت أريد أن أكون تاجراً أكسب مالاً بل زوجاً أجد بجانبى نفساً يؤنسنى محضرها ويوحشنى مغيبها ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فترينى نفسى كما هى لا تكذبني فى خير ولا شر ، إنى أريد أن أجد فى الزوجة التى أتزوجها صديقاً فى المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لى به فى امرأة تجهل حتى إرضاع طفلها ولبس ثوبها ، على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها فقد كان لها خادمة لملابسها وأخرى لشعرها وأخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة وخياطة خاصة بها وطبيب لا يُغِبُّ [1] زيارتها ومؤنسات لا يفارقن مجلسها ، ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها

(١) أغب فلان القوم اذا جاءهم حيناً بعد حين

فى الحسن المجلوب ، والجمال المكذوب ، وليتها كانت تُغفل
أمرى وتتركنى وشأنى فأستطيع أن أتناساها وأعدّ نفسى من
العزاب تخيلا وتقديراً، بل كانت تقيم من نفسها ومن هذا الجحفل
اللجب [1] المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس
الانكليز يراقبن مواقع نظرى ومواطىء قدمى لتعلم أين مذهب
قلبى ووجهة نفسى فتغار علىّ من الكوكب اذا رأتنى أنظر اليه، وتكاد
تمزق الثوب الذى أحبه وأتعشق لبسه، وتحسبها آهة الوجد أو دمعة
الحب اذا رأتنى أتأوه من آلام عشرتها أو أبكى لعظم مصيبتى
فيها، وما هى بغيرة الحب ولكنها الأَثَرَة [2] قبحها الله وقبح كل
ما تأتى به، وأكثر ما كان يغيظنى منها أنها ما كانت تفتح علىّ
باب الحساب على اللفتات والخطوات الا فى الساعة التى أريد أن
أخلو فيها بنفسى أو بكتابى فما أكاد أنتفع بواحد منهما ، فان
سكتُّ أغضبها سكوتى، وان نطقت أغضبها حديثى، وان
قرأت فى كتابى ظنت أن المؤلفين ما ألفوا الكتب الا نكاية
بالنساء لكى يتخذها الرجال مُعتصَما يعتصمون به من محادثتهن
ومسامرتهن ، فكان الكتاب فى نظرها أعدى أعدائها وأبغض

(١) الجحفل الجيش واللجب ذو الجلبة والصياح (٢) الاثرة اختيار الشيء والاستئثار به

الأشياء اليها ، وجملة القول إنها ما كانت تستطيع أن تتصور
الا أن الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة فى جميع أطوار حياتها،
وأنه ما خلقنى إلا لأكون زينة مجالسها ، ودُمية [1] قصرها ، وأداة
لهوها ولعبها ، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطى نفسى حقاً من
حقوقها ولا أبكر لمزاولة أعمالى ولا أسأم أحاديثها الطويلة المملة
التى لا تشتمل الا على نقد الازياء ، واغتياب النساء ، فان وافيت
رغبتها فذاك ، والا استحالت فى لحظة واحدة من انسان ناطق الى
وحش مفترس ، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تُسمعنيها ولا تترك
وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها علىّ . فكنت بين ألم
رضاها وعذاب غضبها فى شقاء حبب إلىّ الموت وبغض إلى وجه
الحياة ، وبعد فقد رأيت أن العيش معها مستحيل فلم أر بداً من
فراقها ففارقتها وما على وجه الارض شىء أبغض الىّ من المجد ولا
أسمج فى نظرى من المال ، قلت ولكننى لا أزال أراك حزيناً
بعد ذلك ، قال نعم لاننى نفضت يدى من الزوجة الجاهلة ورحت
أفتش عن الزوجة المتعلمة وقلت ليكونن لى من الشأن فى الزواج
الثانى ما لم يكن لى فى الزواج الاول بعد ما صار الىّ الخيار ، وبعد

(١) الدمية الصورة المصورة

تلك التجربة وذاك الاختبار ، فهيأ لى الحظ جاراً ملاصقاً مازلت
أسمع مذ حل فى جوارى أن فى بيته فتاة جميلة مازال يُعنَى بأمرها
حتى خرّجها[1] وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها وسيدة أترابها
علماً وفضلا وتهذيباً وأدباً فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها
ثم خالطتها فاذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها فوقعت من نفسى
أحسن موقع وحلت مكاناً لم يكن حلّ من قبل

خطبت الفتاة الى أبيها فما لبث أن أخطبنى[2] فامتلأ قلبى
فرحاً وسروراً وخيل الىّ أننى أرى فى سماء الآمال نجماً لامعاً يدنو
منى قليلا قليلا وسجلت أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ، ما أسلف
من سيئاته ، فانى لكذلك وقد أعددت للبناء بها عُدّته ولم يبق
بينى وبينه الا يوم واحد واذا برسول البريد قد جاءنى بهذا الكتاب ،
فها كه فاقرأه فان فيه بقية قصتى وسر نكبتى ، ثم ألقى الىّ بغلاف
معنون باسمه فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن
الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه
ووجدت مع البطاقة كتاباً فقرأت فيه ما يأتى :

(١) خرج الاستاذ تلميذه هذبه وعلمه (٢) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه أى أجابه

«علمت أنك خطبت فلانة الى أبيها وأنك عما قليل ستكون
زوجها ولعمرى لقد كذَبَكَ نظرك وخدعك من قال لك إنك
ستكون سعيداً بها فانها لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك
ولا يَخلُص حبك الى قلبها بعد أن امتلأ بحب عاشقها ، فاعدل عن
رأيك فيها ، وانفض يدك منها ، وان أردت أن تعرف من هو ذلك
العاشق وتحقق صدق خبرى وإخلاصى اليك فى نصيحتى فانظر الى
الصورة المرسلة مع هذا الكتاب » التوقيع

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شئ
فأحسست برعدة تمشى فى أعضائى وشعرت بسحابة سوداء قد
غشّت على نظرى لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، الا أننى
تماسكت قليلا فأعدت اليه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت
أن أقول: ماذا يَعنيك من أمر فتاة فاجرة عاهر بعد ما انكشف
لك سرها ، وظهرت لك حقيقتها ، ولو كنت فى مكانك لعدلت
عن الحزن على فوتها الى الاستغفار من حبها وحَمْدِ الله على ما ألهم
من صواب الرأى فيها ، أما إن سألتنى عن رأيى فى زواجك بعد
الآن فانى لا أرى لك الا أن تترهب وتتعزّب[1] وأن تقول ما قاله
«هملت» وقد زهد فى الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك
خبيئة نفسها « الى الدير ، الى الدير »

(١) تعزب أى عاش عزباً لايتزوج

الرحمة

سأكون فى هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر لانى أريد أن أخاطب القلب وجهاً لوجه ولا سبيل الى ذلك الا سبيل الشعر

إن البذور تُلق فى الارض فلا تنبت الا اذا حرث الحارث تربتها وجعل عاليها سافلها، وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة الا اذا داخلته وتخللت أجزاءه، وبلغت سويداءه، ولا محراث للقلب غير الشعر

أيها الرجل السعيد كن رحيما، أشعِر قلبك الرحمة، ليكن قلبُك الرحمةَ بعينها

ستقول إنى غير سعيد لأن بين جنبيّ قلباً يُلم به من الهم مايُلم بغيره من القلوب، أجل فليكن ذلك كذلك، ولكن أطعم الجائع واكس العارى وعز المحزون وفرّج كربة المكروب يكن لك من هذا المجتمع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك فالبدر لا يطلع الا

اذا شق رداء الليل، والفجر لايَدرُج الا من مهد الظلام

لقد بَليت اللذات كلها ورثت حبالها وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد ولم يبق ما يعزى الانسان عنها الا لذة واحدة هى لذة الاحسان

ان منظرَ الشاكر منظر جميل جذاب ونغمة ثنائه وحمده أوقع فى السمع من رنات العود فى هزَجه ورَمَله[1] وأعذب من نغمات مَعبد فى الثقيل الاول[2]

أحسن الى الفقراء والبائسين وأعدك وعداً صادقاً أنك ستمر فى بعض لياليك على بعض الاحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك منه أنك أكرم مخلوق وأشرف انسان ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يجزيك الله خيراً بما فعلت فيدعو صاحبه بدعائه، ويرجو برجائه، وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل فى هذه البيئة الخاملة مايجده الصالحون اذا ذكروا فى الملأ الأعلى

ليتك تبكى كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود[3] فتبتسم

---

(١) الهزج والرمل نوعان من نغمات الموسيقى (٢) معبد أحد كبار المغنين فى العصر الاموى والثقيل الاول ضرب من ضروب الغناء (٣) المفؤود المصاب فى فؤاده بألم أو غيره

سروراً ببكائك ، واغتباطا بدموعك ، لأن الدموع التى تحدر على
خديك فى مثل هذا الموقف إنما هى سطور من نور تسجل لك فى
تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان

إن السماء تبكى بدموع الغمام ويخفق قلبها بلمعان البرق
وتصرخ بهدير الرعد ، وإن الارض تئن بحفيف الريح وتضج
بأمواج البحر ، وما بكاء السماء ولا أنين الارض إلا رحمة
بالانسان ، ونحن أبناء الطبيعة فانجارها فى بكائها وحنينها

إن اليد التى تصون الدموع أفضل من اليد التى تريق الدماء ،
والتى تشرح الصدور أشرف من التى تبقر البطون ، فالمحسن
أفضل من القائد ، وأشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيى الميت
ومن يميت الحى

إن الرحمة كلمة صغيرة ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق
مثل ما بين الشمس فى منظرها والشمس فى حقيقتها

إذا وجد الحكيم بين جوانح الانسان ضالته من القلب
الرحيم وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عار ولا مغبون ولا
مهضوم ، ولأقفرت الجفون من المدامع ، واطمأنت الجنوب فى

المضاجع ، ولمحت الرحمةُ الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح
مداد الظلام

لم يخلق الله الانسان ليقتّر عليه رزقه ولم يقذف به فى هذا المجتمع
ليموت فيه جوعا ، بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق
بساط الارض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته ، ويسد
حاجته ، ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضه على بعض وغدر القوى
بالضعيف واحتجن دونه رزقه فتغير نظام القسمة العادلة وتشوه
وجهها الجميل ، ولو كان للرحمة سبيل الى القلوب لما كان
للشقاء اليها سبيل

الفرد هو المجتمع وإنما يتعدد بتعدد الصور ، أتدرى متى
يكون الانسان إنسانا ؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة
وأشعرها نفسه فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها ،
فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائى بينه وبينها انفرد عنها
واستوحش من نفسه ، واذا كان الأنس مأخذ الانسان المجتمع ،
فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع

وجماع القول انه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة
الاشقياء فى مكان واحد الا اذا أمكن أن يجتمع فى بقعة واحدة
الملك الرحيم ، والشيطان الرجيم

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والاحسان فلا يفعل ،فاذا مشى مشى متدفعاً مندلثاً (١) لا يلوى على شىء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة ، واذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الاغراب فى الضحك سخرية به وبيذاذة ثوبه ودمامة خلقه ، وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب دِرَّتهم (٢) ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته ، لا يقربها ولا يُطعمها ولا يَسقيها إلا لما يترقب من الربح فى الاتجار بألبانها وأصوافها ، ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل ، وإن من الناس من لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق اليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف فى وجهه والحيطة لفراره ، يبيت ليله حزيناً كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل فى يقظته أو يرى فى منامه أنه سيأتيه فلم يُقيَّض له ، وإن من الناس من يؤذى الناس لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى مالا يعرف وجهه أو لِيَضرَى (٣)

(١) اندلث فى الامر اندفع فيه (٢) الدرة اللبن إذا كثر وسال (٣) يقال أضرى فلان كلبه بالصيد وضراه إذا أغراه به وعوده متابعته

نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة اليه ، حتى لو لم يبق فى العالم شخص غيره لكانت نفسُه مدبَّ عقاربه وغرض سهامه ، وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الاحمر يترقرق فيها أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية أو عن قلبه رأيت حجراً صَلداً من أحجار الغرانيت لا يَبِضّ (١) بقطرة من الرحمة ، ولا تَخلُص اليه نسمة من العظة

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله من أن تكون واحداً من هؤلاء ، فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية ، بل أعظك ألا تدنوَ من أحدهم أو تعترض طريقَه فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك ولا آسف عليك

أيها الإنسان: ارحم الأرملة التى مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار ، ودموع غزار ، إرحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتفضل الموت على الحياة

إرحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساوماً يساومها فيه فتعود به إلى كسر بيتها

(١) بض الدم سال

إرحم الزوجة أم ولدك ونعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ولأن الله قد وكل أمرها إليك وما كان لك أن تُكذب ثقته بك واعتماده عليك

إرحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك إلا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين

إرحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الإنتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجّراً تربح فيه ليكون من الخاسرين

إرحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكى بغير دموع ، ويتوجع ولا يكاد يُبين ، إرحمه وكذب من يقول إن الانسان طبع على ضرائب لؤم أقلها أنه يقبّل يد ضاربه ويضرب من لا يمد اليه يداً

إرحم الطيور لا تحبسها فى الأقفاص ودعها فى فضائها تهيم حيث تشاء وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير ، إن الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها فى محبس لا يسع مدّ جناحها ، أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الأشجار وفى الغابات وعلى شواطئ الأنهار وترى

منظَرها وهى طائرة فى جو السماء فيخيل اليك أنها أجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار

أيها السعداء، أحسنوا الى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء



رسالة الغفران[1]

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لى بمداها ولا بما وقع لى فيها ثم صحوت فرأيت نفسى فى صحراء مدّ البصر مكتظة[2] بأنواع من الخلق لا أحصيهم عدداً ، فعلمت أنى بعثت وأنه يوم القيامة فساورنى[3] من الهم ما ساورنى حين ذكرت أن مقداره ألف سنة من سنى القيامة وقلت من لى بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعاً ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيد ظفر ، فتماسكت بضعة أشهر ثم لم أجد بعد ذلك الى الصبر سبيلا فزينت لى نفسى الكاذبة أن أذهب الى رضوان خازن الجنة وكنت أحمل شهادة التوبة فى يدى لأسترحمه وألتمس منه الإذن بالدخول قبل انقضاض المحشر فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسوّمة[4] باسمه كما كنت أرقى بأمثالها أمثاله من عظماء

(١) للمعري رسالة طويلة جداً بهذا العنوان وهذه الرسالة خلاصتها (٢) مكتظة مملوءة (٣) ساورته الهموم واثبته وملكت ناصيته (٤) المسومة المعلمة

العاجلة وساداتها فما أبه[1] لى ولا فهم كلمة مما أقول فانصرفت عنه الى خازن آخر اسمه زُفَرُ فكان شأنى معه شأنى مع صاحبه الا أنه كان أرق منه قلباً وألين جانباً فأشار على بالذهاب الى النبى الذى أتبعه وأفهمنى أن الامر موكول اليه فعدت وبين جنبيّ من الحسرة والوجد ما اللهُ عالم به ، فبينا أنا أتخلل الصفوف ، وأزاحم الوقوف ، إذ وقع بصرى على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم أنعمت النظر فيه فإذا هو الشيخ أبو على الفارسى النحوى واذا بالمحتفلين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم يَنقِمُ عليه ، هذا يقول له رويتَ بيتى على غير وجهه وذاك يقول أعربته على غير ما أردتُ وذهبتُ ، فدفعنى الفضول كما دفعهم الى النزول فى ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركتُ شؤم ما فعلت وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت منى فى ذلك المعترك ، فقلت قبح الله الشعر والاعراب ، واللغة والآداب ، إنهما شؤم الآخرة والأولى

وقفت أحير من ضب فى حمارّة[2] قيظ لا أدرى ما آخذ وما أدع حتى رميت بطرفى فإذا بأمير المؤمنين على بن أبى طالب

(١) أبه إحتفل (٢) الحمارة بالتشديد شدة الحر

فى لفيف من العِترة الطاهرة النبوية فدَلَفتُ[١] اليه وأبثثته[٢] أمرى وأمر الشهادة المفقودة فقال : لا عليكَ ألك شاهدٌ بالتوبة فقلتُ نعم ، فنودى بشهودى فشهدوا بتوبتى ، فقال تريثْ[٣] قليلا حتى تمرَّ فاطمة بنت محمد فنسألها فى أمرك فهى تمتُّ الى أبيها بما لا نَمَتّ به[٤] وكانت ممن قُسم لهم دُخولُ الجنة قبل فصل القضاء إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها ثم تعود الى مستقرها ، فإنّا لكذلك واذا بمنادٍ ينادِى أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تَعبُرَ فاطمةُ بنت محمد صلى الله عليه وسلم فهرعتُ اليها فرأيتها راكبة مع إخوتها وجواريها على أفراس من نور وتَقدمَ من وعدنى بسؤالها فى أمرى فأنجز وعده ، فقالت لأخيها إبراهيم دونك الرجل ، فقال تَعلقْ بركابى فتعلقت فطارت الأفراس فى الهواء ، تقطع الأجيال وتتخطى رءوس القرون حتى وافينا النبى صلى الله عليه وسلم واقفاً لشهادة القضاء فقصت عليه فاطمة ما علمتْ من أمرى فراجع الديوان الاعظم فوجد اسمى فى التائبين فشفع لى فعدتُ فى ركب فاطمة فرحاً مستبشراً وما كنت أُقدّر أن بين يدىّ

(١) دلف مشى مشياً متثاقلا (٢) أبثه السر كاشفه به (٣) تريث أبطأ
(٤) مت بالشىء توسل به

عقبة الصراط فلما وافيته وجدتُنى لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها أن تعبر معى فأمسكتْ بيدى فشيت أترنح ذات اليمين وذاتَ الشمال وخفت السقوط فقلت لها احملينى زقفونه ، فقالت وما زقفونة ، فقلت أما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب

ضلَحتْ حالتى الى الخلْفِ حتى
صرتُ أمشى الى الورى زَقَفُونَه

فقالت ما سمعتُ بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفرطاب ، فقلت أُلقِى يدىّ فوق كتفيك وأجعلُ بطنى الى ظهرك فحملَتنى وجازت بى الصراطَ كالبرق الخاطف حتى صرتُ الى باب الجنة ، فرمت الدخول فوقف رضوانُ فى وجهى وقال أينَ جَوازكَ[١] فَبعِلتُ[٢] بالأمر ثم رأيت فى دِهليز الجنة شجرةَ صَفصاف فعالجتُه على أن يعطيَنى منها ورقة أعود بها الى الموقف لاستكتب عليها الجوازَ فأبى ، فقلت وقد ملك الهم علىَّ رشدى وصوابى أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء ، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء ، لما وصل شاعر الى درهم ولا سائل الى سُحتوت[٣]

(١) الجواز صك المسافر (٢) بعل بأمره برم به فلم يدر ما يصنع فيه
(٣) السحتوت فى الاصل السويق القليل الدسم ثم أطلق على كل شىء قليل

وتهلك الفقراء هماً وحزناً ، فسمع ابراهيم عليه السلام حَواري (١)
فجذبني جذبة حصّلتني بها في الجنة وصاحبي ينظر اليَّ شزراً ، فدخلت
فرأيت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر
رأيت أنهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء ، وأصقل
من مرآة الحسناء ، تنصبُّ فيها جداول من الكوثر اذا جرعَ
الشارب منها جرعةً جرع ماء الحياة وأمن أن يذوق كأس المنون
مرة أخرى . ورأيت جداول تفيض بالراح فيضاً قد زُينت
حوافيها بأباريق من العسجد ، وكؤوس من الزبرجد ، فانهلتُ
منها نهلة حتى قلت لو كُشف لاهل العاجلة عما في هذه الخمرة من
اللذة التي لا يشوبها كدر ، والنشوة التي لا يعقبها خُمار (٢) ما باعوا
قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابلُ وقُطربُلُ (٣) من البواطي (٤)
والدنان ، ولو نظر الاقيشرُ الأسدي بعين الغيب الى عسجد
هذه الاباريق وزبرجد تلك الكؤوس لخجل من نفسه أن يقول

أفني تِلادي وما جمّعتُ من نَشب
قرعُ القوازيز (٥) أفواهَ الاباريق

(١) الحوار مراجعة الكلام (٢) الخمار صداع الخمر (٣) بلدان معروفان بجودة خمرهما (٤) جمع باطية وهي إناء للشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه
(٥) القوازيز جمع قازوزة وهي قدح للشراب

وفي تلك الانهار آنية ترفرف فوق سطحها على صور الطيور
كالكراكي والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها
شراب ، أرق من السراب ، وتسبح فيها أسماك من الذهب
واليافوت

يَعُمن فيها بأوساط مجنّحةٍ (١) كالطير تنشر في جوٍّ خوافيها

ورأيت أنهاراً من لبن وأنهاراً من عسل لا يدرك الوهم
كنهه الا اذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من زهورها وأنوارها
رأيت جميع تلك الانهار مكبّرة ثم تمثلت في نظري مصغّرة ،
فاذا هي سطورٌ ، من النور ، وأحرف بيضاء ، في صحيفة خضراء ،
قرأتها فرأيتها « مثل الجنة التي وُعدَ المتقون فيها أنهارٌ من ماء
غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمهُ وأنهار من خمر لذةٍ
للشاربين وأنهارٌ من عسل مصفّى ولهم فيها من كل الثمرات »
ظللت أمشي فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظراً عجيباً
يُنسي السابق ، ويشوقَ الى اللاحق ، فوددت لو طويت لي
الارض طياً فأتعجل النظر الى ما غاب عني من الجنة وبدائعها ،
فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرساً
من الجوهر المتخيّر مسرجاً ملجماً فعلمت أني قد سعدت وأنها

(١) مجنحة ذات أجنحة

الأُمنية التى كنت أتمناها فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها
خروج الودْق (١) من السحاب، والسيف من القراب (٢)، وعلى
ما جهّدتُه لم يشك إلىّ ماشكاه جواد عنترة اليه فى قوله

فازورّ من وقع القنا بلَبانه   وشكا إلى بعَبرة وتحمحم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبى ربيعة اليه فى قوله

تشكّى الكميْت الجرىَ لما جهدتُه
وبيّن لو يستطيعُ أن يتكلما

ذكرت أنى وأنا فى الدار الفانية كنت أسمع بذكر الذاهبين
الاولين من الأدباء والشعراء والرواة فآسف على أن لم أكن فى
زمنهم أراهم وأحضُر مجالسهم فقلت ليت شعرى ما فعل الله بهم فى
هذه الدار وهل سَعِدوا أو شقوا وهل يقيّض لى من رؤيتهم فى دار
البقاء، مالم يقيضْ فى دار الفناء

ثم رميت بطرفى فاذا فارس يحضر فرسه (٣) فى الهواء
إحضاراً حتى تقاربنا فتماسّت الركب واختلفت الاعناق فقال
انتسب، فقلت فلان ومن أنت يرحمك الله وقد فعل، فقال عدى
ابن زيد العبادى فدهشت وقلت عدى بن زيد فى الجنة بعد الزيغ
والضلال، فقال أنا عيسوى وأنت محمدى وليس لصاحبك على

(١) الودق المطر (٢) قراب السيف غمده (٣) أحضر الفرس ارتفع فى عدوه

أحد حجة الا بعد ظهوره وبلوغ دعوته، فقلت لا نكران
ولكن كيف لم يَقعد بك فِسقك وشرابك وأين استهتارك
فى قولك

بكرَ العاذلون فى وضح الصبـ   ـح يقولون لى أما تستفيق
ودعَوْا بالصبوح فجراً فجاءت   قينةٌ فى يمينها أبريق

قال غفر الله لنا ما غفر لكم، قلت هل لك علم بجماعة
الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنتَ عنوان
الكتاب وفاتحة الاجابة، فقال اصحبْنى فطارت بنا الخيلُ فقلت
له هل آمنُ ألا يقذف بى هذا السابحُ على صخرة من الزمرد أو
هضبةٍ من الياقوتِ فيكسر لى عضداً أو ساقاً أو جمجُمة، فتبسم
وقال أين يُذهَبُ بك نحن فى دار الخلود والبقاء

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على
شاطئه جمع كثير على سُرر متقابلين، أو على الارائك متكئين،
فهوَى صاحبى بفرسه فهويت هُوِيَّه وقلنا سلام عليكم بما صبرتم
فنعم عُقبى الدار، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ثم
أخذوا فيما كانوا فيه فاذا الأصمعى يُنشد مروياته وأبو عبيدة
يَسرُد وقائع الحروب ومَقاتلَ الفُرسان واذا سيبويه والكسائى
متصافيان بعد أن وقع بينهما فى مجلس البرامكة ما وقع وأحمد

ابن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من الموْجدة ما كان يضمر ، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكّرتني بقول الاعشى ميمون « مثلُ ريح المسك ذاكٍ ريحها » وعلى ذكر الاعشى ذكرتَ مصرعه وشقاءه ، وقلت في نفسي لولا أن قريشاً صدته عن الاسلام لكان اليومَ بيننا في مجلسنا هذا ، فسمعت هاتفاً من ورائي يقول أنا بينكم وفي مجلسكم فالتفتُّ فاذا الأعشى ميمون فلم أدر من أي مَدخَلَيه (١) أعجبُ ، أمِنْ مَدخله الى الجنة أم من مَدخله الى نفسي وعلمه بما هجس في صدري فعلمتُ أن أهل الجنة ملهَمون ، ثم سألتهُ كيف غُفر لك فقال سحبتْني الزبانيةُ الى سقر فرأيت في عرَصاتِ القيامة رجلا يتلألأ وجهه تلألؤَ القمر والناس يهتفون به من كل جانب الشفاعة يا محمد فأخذت إخذهم وهتفت هتافهم فأمر أن أدنوَ منه فدنوت فسألني ما حُرمتُك فقلت أنا القائل

ألا أيُّهذا السائلي أين يمّمَتْ — فإن لها في أهل يثربَ موْعدا
فآليتُ لا أرثي لها من كلالة — ولا من وجىً حتى تلاقي محمدا
متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم — تُراحي وتَلقيْ من فواضله ندا
نبي يَرى ما لا ترونْ وذكره — أغار لعمري في البلاد وأنجدا

(١) المدخل مصدر دخل كالدخول

فقال ما سمعتُها منك قبل اليوم ، قلت خدعَني عنك الناس بعد ما شددتُ راحلتي اليك وكنتُ رجلاً أُحب الشرابَ وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه ، فشفع لي فدخلت الجنة على ألا أذوقَ فيها الخمر فقنعت بالرُّضاب ، عن الشراب ، وبماء الثغر المنضود ، عن ماء العنقود ، ورأيت بجانبه شاباً ريِّقَ الشباب فسألت عنه فقيل لي زهيرُ بن أبي سُلمَى فما كدتُ أصدق أنه القائل

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبَالكَ يسأمِ

فقلت له بم غفر الله لك فقال كنت في جاهليتي أترقبُ مبعثَ محمد وأتمنى البقاء حتى أراه فحال بيني وبينه الموت فأوصيت به ابنيَّ كعباً وبُجيراً وكنت أومن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي

فلا تكتُمُن اللهَ ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعلمِ
يؤخرْ فيوضعْ في كتاب ويُدخر
ليوم الحساب أو يقدَّم فيُنقَمِ

والى جانب زهير عَبيد الابرص فسألتُه عن مصير أمره

فقال كتبت لى النار فما زال الناس يهتفون بقولى

من يسألِ الناسَ يحرموهُ وسائلُ الله لا يخيب

والعذاب يُخفف عنى شيئاً فشيئاً حتى خرجتُ ببركة هـذا البيت من الجحيم، الى النعيم

ذهبنا فى الحديث كلَّ مذهب وذهب بعضنا الى ارتشاف الخمر، من النهر، فى آنية الدر، فانتشينا جميعاً فما أفقنا الا على حفيفِ رَفٍّ [1] من إوَزِّ الجنة نزل بنا ثم انتفض عن كواعبَ أتراب يغنينَ بالمزاهر والآلات الثقيلَ والخفيفَ والهزجَ فما أتينَ على الالحان الثمانيـةِ حتى دارت بنا الأرضُ الفضاء وحتى ملَكَنا من الطرب مايَستخفُّ الحلوم، ويطير بالهموم، وقلنا لو عَلِمَ جبلةُ بن الأيهمِ بما نحن فيه لقَرَع السنَّ على أن باع دينه بسرور محدود، وأُنس معدود، ودُف وعود،

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النار وقوله تعالى « فاطَّلع فرآه فى سواء الجحيم » فتمنيت أن أطلع فأرى المعذَّبين كما رأيت المنعمين فأُلهمت الاذنَ فأشرت لصاحبي فقام وقمت وركبنا فرسيْنا فطارتا بنا حتى انتهينا الى سور الجنة فرأينا عنـده من الداخـل كوخاً يسكنه شيخ زرىُّ الهيئة فأشرفنا عليـه فقال

(١) الرف القطيع من الطير

لا تعجبوا لشأنى أنا الحُطيئةُ ووالله لولا أنى صدَقتُ مرة واحدة فى حياتى فى قولى

أرى لى وجهاً شوه الله خَلْقه فقبّح من وجه وقبح حامله

لما دخلتُ الجنة ولَمَا أدركت كوخاً ولا جُحْرا، فتركناه واطّلعْنا فما رآنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون [1] فى السلاسل والأغلال ويقولون « ربّنا أرجعْنا نعملْ صالحاً غيرَ الذى كنا نعمل » فيهتف بهم هاتف « أولم نعمرْكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير »

ورأيت بجانبى امرأة تبينتُها فاذا هى الخنساء تطلع مثلنا فترى رجـلاً كالجبل الاشم على رأسه شعلة من النار فتمتعضُ وتقول يا صخرُ هذا تأويل قولى فيك من قبل

وان صخراً لتأتمُّ الهداة به كأنه علَم فى رأسه نار

ورأيت هناك كثيراً من أمثال امرئ القيس وعنترة وعمرو بن كُلثوم وطَرَفة بن العبد ورأيت بشاراً بن برد تُفتح عيناه بكلاليبَ من نار وكلما اشتد به الالم رفس إبليسَ برجله وقال له ما كنت لأدخلَ النارَ لولا قولى فيك

(١) يقال بات الصبيان يتضاغون من الجوع أى يتضورون منه

إِبليسُ أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سموّ النار

وجزِعنا من المنظَر فهممنا بالرجوع واذا إبليسُ يهتِف بنا يا أهل الجنة بلّغوا عنى أباكم آدم أنى لم أدخل النار بسببه حتى أخذتُ معى أكثر ولده وأفلاذ كبده ، فلايهنأ كثيراً بمصيرى ، فقلنا قبحه الله لا يزالُ ينفَس على آدم نعمته حتى اليوم ، فما كان لنا همّ بعد رجوعنا الا لقاء أبينا عليه السلام فلقيناه فبلغناه الرسالةَ فقال وارحمتاه له ، ما كان بينه و بين الايمان الا القليل فأرداه الحسد فكان من المهلَكين ، فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير ، وجنة وحرير ، وحور وولدان ، كأنهنّ الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدىَ لو لا أن هدانا الله

عبرة الدهر

بنى فلان فى روضة من رياض بساتينه الزاهرة قصراً فخما يتلألأ فى تلك البقعة الخضراء ، تلؤلؤ الكوكب المنير فى البقعة الزرقاء ، ويطاول بشُرُفاته الشّماء ، أفلاك السماء ، كأنه نَسر محلق فى الفضاء ، أو قُرط معلق فى أذن الجوزاء ، وكأن شُرُفاته آذان تُفضِى اليها النجوم بالاسرار ، وطاقاتِه أبراج تنتقل فيها الشموس والأقمار

شاده مرمرا وجلله كِلسا [1] فللطير فى ذُراه وُكور

ولم يدع ريشة لمصور ولا لِيقة [2] لرسام الا أجراها فى سقوفه وجدرانه ، وطاقاته وأركانه ، حتى ليخيَّل الى السالك بين أبهائه [3] وحُجراته ، ومحاريبه وعرصاته [4] ، أنه ينتقل من روضة تَزهَر بالورود الحمراء ، والأنوار البيضاء ، الى بادية تسنَح

(١) الكلس الصاروج يبنى به (٢) ليقة الدواة صوفتها ويتخذها الرسام أيضاً لجمع أخلاطه فيها (٣) الابهاء جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت (٤) المحراب هنا صدر البيت والعرصات جمع عرصة وهى ساحة الدار

فيها الذئاب النبراء ، والنمور الرقطاء ، ومن ملعب تصيد فيه
الظباء الاسودَ الى غاب تصيد فيه الاسودُ الظباء ، وأنشأ فى
كُبرَى ساحاته ، وأوسع باحاته ، صهريجاً من المرمر مستديراً
يضم بين حاشيتيه نوّارة ينفر منها الماء صُعُدا كأنه سيف مجرد ،
أو سهم مسدد ، فيخيَّل الى الرائى أن الأرض تثأر لنفسها من
السماء ، وتتقاضاها ماأراقت منها من الدماء ، تلك تقاتلها بالرجوم
والشهب ، وهذه تحاربها بالسهام والقضُب ، وغرس حول دائرة
الصهريج دوائر من شجرات ، مؤتلفات ومختلفات ، وأغصان
صنوان وغير صنوان ، اذا رنّحتها نسائم الاسحار ، رقصت
فوق بساط الازهار ، وتحت ظلال الأثمار ، فغنت على رقصها
الاطيار ، غناء الاغاريد لا غناء الاوتار ، وادّخر فيه لنعيمه
وبُلَهْنِيته (١) ماشاء الله أن يدخر من نضائد (٢) ومقاعد ، ووسائد
ومساند ، وفرش وعرش ، وكِلل (٣) وحَجَل (٤) ، وتماثيل
وتهاويل (٥) ، وصحاف من ذهب ، كاللهب ، وأكواب من بلّور ،
كالنور ، وأقفاص للحمائم والنسور ، ومقاصيرَ للسباع والنمور ،

(١) بلهنية العيش رخاؤه (٢) النضائد جمع نضيدة وهى الوسادة
(٣) جمع كلة بالكسر وهى الستر الرقيق (٤) جمع حجلة بفتحات
وهى ستر العروس في جوف البيت (٥) التهاويل النقوش والصور
لانها تهول من ينظر اليها

وعربات وسيارات ، وجياد صافنات ، ووصائفَ وولائد ، تحيط
بالمجالس والموائد ، إحاطة القلائد ، بأعناق الخرائد ، وخدم حسان ،
تتنقَّل فى الغرف والقيعان ، تنقلَ الولدان ، فى غرف الجنان

فى ليلة من ليالى الشتاء حالكة الجلباب ، غُدافية (١) الاهاب ،
أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك فى سريره وفتح عينيه
فلم ير أمامه غير خادمه « بلال » وهو خصىّ أسود من ذوى
الاسنان رباه صغيراً وكفله كبيراً وكان يجمع بين فضيلتى الذكاء
والوفاء فأشار اليه اشارة الواله المتلهف أن يأتيه بجرعة ماء فجاءه
بها فتساند على نفسه حتى شرب وكأن الماء قد حل عقدة لسانه
فسأله فى أى ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال ، فأجابه نحن فى
الهزيع الاخير ياسيدى ، فقال ألم تعد سيدتك الى الآن ، قال لا ،
فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تحترق حجاب قلبه ثم
أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : إنها تعلم أنى مريض وأنى
فى حاجة الى من يسهر بجانبى ويتعهد أمرى ويرفّه (٢) عنى بعض
ماأعالجه وليس بين سكان القصر من هو أولى بى وأقوم
علىّ منها ، أين وفاؤها الذى كانت تزعمه وتقسم لى بكل محرَّجة من

(١) الغداف الغراب الاسود وليلة غدافية شبيهة به (٢) رفه عنه
نفس عنه وخفف

الايمان عليه ، أين حبها الذى كانت تهتف به فى صباحها ومسائها
وبكورها وأصائلها ، أين النعيم الذى كنت أقلبها فى أعطافه
والعيش الرغْد الذى كنت أُرشفها كؤوسه ، أأَن علِمتْ أنى
أصبحت بين حياة لا أرجوها وموت لا أجد السبيل اليه
بَرِمتْ [1] بى واستثقلت ظلى واستبطأت أجلى واستطالت
ضِجعتى فهى تفر من وجهى كل ليلة الى حيث تجد لذات العيش
ومواطن السرور ، آهِ من العيش ما أطوله ، وآهِ من الموت
ما أثقله

وما زال يحدث نفسه بمثل هذه الاحاديث حتى هاج ساكنه
واضطربت أعصابه فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليانَ القِدر
بمائها فسقط على فراشه ساعةً تجرع فيها من كأس الموتِ جرعاً
مريرة بيد أنه لشقائه لم يأت على الجرعة الاخيرة منها

أفاق من غشيته مرة ثانية فلم ير بجانبه تلك التى تسيل نفسه
حسرات عليها فسأل الخادم ألا تعلم أين ذهبت سيدتك يا بلال ؟
قال : خير لك الا تنتظرها يا مولاى والا تلومها فى بعدها
عنك فان لها عند بعض الناس دَيْناً فهى تخرج كل ليلة لتتقاضاه ،
قال ما عرفتُ قبل اليوم أن بينها وبين أحد من الناس شيأ من

(١) برم به سئمه وضجر منه

ذلك، ومتى كان يتقاضى الدائنُ دينَه فى مثل هذه الساعة من الليل،
وهل أعياها أن تجد من يقوم لها بذلك فهى تتولاه بنفسها، وهلا
فرغتْ من أمر دَيْنها بعد اختلافها اليه سنة كاملة ، قال إن بينها
وبين غريمها صَكا مكتوباً أن يؤدىَ ما عليه من الدين أقساطاً
فى كل ليلة قسط على أن تتناوله بيدها وأن تكون مواعيدُ الوفاء
أُخريات الليال ، قال ما سمعت فى حياتى بأغرب من هذا الدَيْن
ولا أعجب من هذا الصك ومن هو غريمها ، قال أنت يا سيدى ،
فنظر اليه نظرة الحائر المشدوه [1] وقال إنى أكاد أُجن لغرابة
ما أسمع وأحْسَب أنك هاذٍ فيما تقول أو هازئ ، فدنا منه الخادم
وقال والله يا سيدى ما هَزأت فى حياتى ولا هذيت، ألا تذكر
تلك الليالى الطوال التى كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة
تطلبها ، وكأس تشربها ، وملاعبَ تجرر فيها أذيالك ، ومراقص
تَهتك فيها أموالك ، تاركا زوجتك فى هذه الغرفة على هذا السرير
تشكو الوحشة ، وتبكى الوَحْدة ، وتتقلب على أحر من الجمر
شوقاً اليك ، وحزناً عليك ، فلا تعود اليها الا اذا شاب غراب
الليل ، وطار نَسر الصباح ، إنك سلبتها تلك الليالىَ السالفة
فأصبحتَ غريمها فيها فهى تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتىَ

(١) المشدوه المدهوش

عليها، ذلك هو دينها وهذا هو غريمها، ألا تذكر أنك كنت
فى لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه
وهو واقف موقفك هذا فى حسرتك هذه يبكى ما تبكى ويندب
ما تندب، ذلك الزوج هو الذى يتقاضاك اليوم حقه ويأبى الا
أن يأخذه عيناً بعين ونقداً بنقد، فهو يفجعك فى زوجتك كما
كنت تفجعه فى زوجته ويقض (١) مضجعك كما كنت تقض
مضجعه، وأنا أعيذك بعدلك وإنصافك أن تكون من لواة
الدين أو تكون من الظالمين

قال حسبك يا بلال فقد بلغت منى وإن لى فى حاضرى
ما يشغلنى عن ماضىّ فادع لى ولدى، قال لم يعد يا سيدى من
الوجه التى بعثته فيه حتى الآن، قال لا أذكر أنى بعثته
فى وجه ما وأين ذهب، قال ذهب الى الحانة التى يختلف اليها
ولن يرجع منها حتى يرتوى ولن يرتوى حتى يعجز عن الرجوع،
إننى طالما وقفت بين يديك يا مولاى ضارعاً اليك أن تحول
بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك
فكنت تعرض عنى إعراض من يرى أن تدليل الولد
وترفيهه (٢) وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة ومظهر

(١) أقض مضجعه جعله خشناً (٢) رفهه جعله مترفهاً أى لين العيش

من مظاهر الأبهة والجلال، كنت أسألك أن تعلمه العلم وأن
تهديه الى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة فكنت ترى
ان الذى يحتاج الى العلم من يرتزق به وأن ولدك عن ذلك من
الاغنياء، فلا تشك من عمل يديك، ولا تبك من جناية نفسك
عليك، فأنت الذى أرسلته الى الحانة وأنت الذى أبقيته فيها الى
مثل هذه الساعة وأنت الذى أبعدته عن فراشك أحوج
ما كنت اليه

وما وصل الخادم من حديثه الى هذا الحد حتى نصل الليل
من خضابه واشتعل المبيض فى مسوده واذا صوت الناعورة يرن
فى بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها، فقال السيد هات
يدك يا بلال وخذ بيدى الى جوار النافذة لأروح عن نفسى بعض
ما ألم بها أو أودع الى جانبها نسمات الحياة، ثم اعتمد على يده
حتى وصل الى النافذة فجلس على كرسى مستطيل وألقى على البستان
نظرة طويلة فرأى البستانى وزوجه جالسين الى الناعورة وقد
برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية بريق الكواكب
المنيرة من خلال السحب المتقطعة، رآهما متحابين متعاطفين
لا يتعاتبان ولا يتشاحان (١) ولا يشكوان هما ولا يندبان حظاً،

(١) من المشاحة وهى المخاصمة والمجادلة

رآهما قويين نشيطين يجرى دمهما فى عروقهما صافياً رائقاً وكأن
كلا منهما يحاول أن يخرج من إهابه [١] مرحاً ونشاطاً ، رآهما
راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشوبة [٢] المطعم فلا
يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران الى ذلك القصر الشامخ المطل
عليهما نظرات الهم والحسرة ، سمعهما يتحدثان فأصغى اليهما فاذا
البستانى يقول لزوجه : والله لو وُهب لى هذا القصر برياضه
وبساتينه ، وآنيته وخُرثيّه [٣] ، على أن تكون لى تلك الزوجة
الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة فى منقطَع العمران ،
على البقاء فى مثل هذا المكان ، أقاسى تلك الهموم والأحزان ،
فقالت لا أحسب أن سيدنا ينجو من خطر هذا المرض
فقد مرّ به على حاله تلك عام كامل وهو يزداد كل يوم ضعفاً
ونحولا ، قال قد علمتُ أن الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه
وأضمر اليأس منه ولا عجب فى ذلك فانه مازال يسرف على نفسه
ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها ، قالت ما أشقاه أكانت
نفسُه عدوة اليه جنى عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء ، قال ما كان
عدواً لنفسه ولا كانت نفسه عدوة اليه ولكنه كان جاهلا

(١) الاهاب الجلد (٢) جشوبة المطعم خشونته (٣) الخرثى أثاث البيت

مغروراً غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد أخذ على
الدهر عهداً بالسلامة والبقاء فانطلق فى سبيله لا يلوى على شئ
مما وراءه حتى سقط فى الحفرة التى احتفرها لنفسه ، قالت أتعلم
ماذا يكون حال هذا القصر من بعده ، قال لا أعلم الا أنه
سيكون لولده ، قالت ولكنى أعلم أنه سيكون لفلان ، قال إن
فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه ، قالت إنه ليس بصديق السيد
بل صديق السيدة ، فهو خاطبُ زوجته قبل وفاته ، وزوجها
بعد مماته

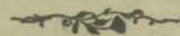
فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً
وسقط عن كرسيه وهو يقول : أشهد انى من الاشقياء : وما
زال فى غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين
يديه هذا المنظر المحزن المؤلم

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى
زوجته تضاحك تِرْباً من أترابها وتغمزها بطرفها أنْ قد حان
حَينه ودنا أجله ، ورأى صديقه أو ولى عهده يأمر فى القصر وينهى
ويتصرف تصرف السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت
ويُعد عُدته للانتقال من القصر الى القبر ، وهنا سمع كأن هاتفاً
يهتف به من السماء ويقول : أيها الرجل ، لو وفيت لزوجك

لوفقت لك ، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك ، ولو أحسنت اختيار صديقك ماخانك ، ولو رحمت نفسك ماخسرت حياتك ، فأغمض عينيه وهو يقول « فلتكن مشيئة الله »

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجه وولده ، وصديقه ونفسه ، وبستانه وقصره

رب ركب قد أناخوا حولنا
يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا
وكذاك الدهر حالا بعد حال



أفسدك قومك

أيها المجرمُ الفاتكُ الذى يسلب الخزائنَ نفائسها ، والاجسام أرواحها ، لست أحمل عليك من العتْب فوق ما يحتمله ذنبك ولا أنظرُ اليك بالعين التى نظر بها اليك القاضى الذى قسا فى حكمه عليك لأنى أعتقد أن لك شركاء فى جريمتك فلا بد لى من أن أنصفك وإن كنت لا أستطيع أن أنفعك

شريكك فى الجريمة أبوك لانه لم يتعهّدْك بالتربية فى صغرك ولم يحلْ بينك وبين مخالطة المجرمين بل كثيراً ماكان يُبخبخ [1] لك إذا رآك هجمت على تربك وضربته ويُصفق لك إذا رأى أنك تمكنت من إختلاس درهم من جيب أخيك أو اختطاف لقمة من يده ، فهو الذى غرس الجريمة فى نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذى أنت معلق به اليوم ، وها هو ذا الآن يذرفُ عليك العبرات ، ويُصعّد الزفرات ،

(١) يبخبخ له قال له بخ بخ

ولو عرف أنها جريمته وأنها غرسُ يمينه لضحك مسروراً بغفلة
الشرائع عنه وسجد لله شكراً على أن لم يكن حبلُك فى عنقه
وجامعتُك (١) فى يده

شريكك فى الجريمة هذا المجتمع الانسانى الفاسدُ الذى
أغراك بها، ومهد لك السبيل اليها، فقد كان يُسميك شجاعاً إذا
قتلت، وذكياً فطناً إذا سرقت، وعالماً إذا احتلت، وعاقلاً
إذا خَدعت، وكان يَهابك هيبته للفاتحين، ويُجلك إجلاله
للفاضلين، وكثيراً ما كنتَ تحب أن ترى وجهك فى مرآته
فتراه وجهاً أبيض ناصعاً فتتمنى لو دام لك هذا الجمال، ولو
أنه كان يؤثر نصحك ويَصدُقك الحديث عن نفسك لمثل لك
جريمتك فى نظرك بصورتها الشوهاء، وهنالك ربما وددت
بجدع الأنف لو طواك بطن الارض عنها، وحالت المنية
بينك وبينها

شريكك فى الجريمة حكومتُك لانها كانت تعلم أن الجريمة
هى الحلقة الاخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات وكانت تراك تمسك
بها حلقة حلقة وتعلم ما سينتهى اليه أمرك فلا تضربُ على يدك

(١) الجامعة الغل

ولا تعترض دون سبيلك، ولو أنها فعلتْ لما اجترمتْ، ولا
وصلت الى ما إليه وصلْت،

كانت حكومتُك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك وأن
تقفل بين يديك أبواب الحانات وأن تحول بينك وبين مخالطة
الاشرار بابعادهم عنك وتشريدهم فى مجاهل الارض ومخارمها
وأن تُعديك (١) على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه من
نفسك وأن تحسن تأديبك فى الصغيرة، قبل أن تصلَ الى
الكبيرة، ولكنها أغفلت أمرك فنامت عنك نوماً طويلا حتى
إذا فعلتَ فعلتك استيقظتْ على صوت صراخ المقتول وشمّرت
عن ساعدها لتمثّلَ منظراً من مناظر الشجاعة الكاذبة، فاستصرخت
جُندها واستنصرت أسلحتها وأعدت جذعها وجلادها وكان
كلُّ مافعلتْ أنها أعدمتك حياتك

هؤلاء شركاؤك فى الجريمة وأقسم لو كنتُ قاضياً لاعطيتك
من العقوبة على قدر سهمك فى الجريمة وجعلت تلك الجذوع قسمة
بينك وبين شركائك ولكننى لا أستطيع أن أنفعك، فيا أيها
القتيل المظلوم رحمةُ الله عليك

(١) أعدى الامير فلاناً على فلان إذا نصره عليه وأعانه

الصدق والكذب

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر ، وسمعت بالكذب وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب، وأليم العقاب ، وقرأت ما كتبه حكماء الامم من عهد آدم الى اليوم وإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والاصل الذى تتفرع عنه جميع الاخلاق الشريفة والصفات الكريمة وأنه ماتمسك به متمسك إلا كان النجاح فى أعماله ألصقَ به من ظله ، وأعلق به من نفسه ، سمعتُ هذا وقرأت هذا فلم يبق فى نفسى ريب فى أن ما أنا مرزوءٌ به فى حظى من الشقاء وعيشى من الضنك وحياتى من الهموم والاكدار إنما جرّه إلىّ شؤم الكذب وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة إنما هو ضربٌ من ضروب الوهم الباطل ونزغة من نزغات الشيطان ،

فعاهدت الله و نفسى ألا أكذب ما حييت وأعددت لذلك القسم العظيم عُدته من شجاعة فى النفس وقوة فى العزيمة بعد ما وجهت وجهى لله تعالى وسألته أن يُمدنى بمعونته ونصره

وها أنذا ذاكر لك مواقف الصدق التى وقفتها بعد ذلك العهد وما رأيته من آثارها ونتائجها

الموقف الأول : جلست فى حانوتى فما وقف بى مساوم الا صدَقته القول فى الثمن الذى اشتريت به السلعة والربح الذى أريده لنفسى فيها والذى لا أستطيع أن أعد نفسى رابحاً إذا تجاوزت عن بعضه فيأبى الا الحطيطة [1] فآباها عليه فينصرف عنى استثقالاً للثمن واستعظاماً لمقداره وما هو الا الربح الذى اعتدت أن آخذه منه فى مثل تلك الصفقة الا أننى كنت أكذب عليه فى أصل الثمن فيصغر فى نظره الربح الذى أربحه منه فلما صدَقته عنه أعظمه وانصرف عنى الى سواى ، ولم أزل على هذه الحال حتى أظلنى الليل ولم يَفتح الله علىّ بقوت يومى ، وما هى الا أيام قلائل حتى عُرفت فى السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتى طارق

(١) الحطيطة ما يحط من الثمن

الموقف الثانى : جلست فى مجلس يتصدره شيخ من تجار العقول الضعيفة المعروفين بمشايخ الطرق وقد حف به جماعة من عبدته وسدنة (١) هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريباً يذهب فيه الى أنه القعود عن العمل وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه والاعراض عن كل سعى يؤدى الى أى غاية ، ويعتمد فى هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء وأحاديثَ لا يستند فى صحتها على مستنَد سوى أنه سمعها من شيخه أو قرأها فى كتابه ، وأكثر ما كان يدور على لسانه حديثُ « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بطاناً » (٢) فقلت له وقد أخذ الغيظ من نفسى مأخذه يا شيخُ أردتَ أن تحتج لنفسك فاحتججت عليها ، أتَعمِد الى حديث يستدل به رواتُه على وجوب السعى والعمل ، فتستدل به على البطالة والكسل ، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطاناً الا بعد أن أمرها بالغدو وهى التى ترويها القطرة ، وتشبعها الحبة ، فكيف لا يأمر الانسان بالسعى وهو من لا تفنى مطالبه ، ولا تنتهى رغباته ،

(١) السادن خادم الهيكل أو خادم الكعبة والمراد به الحاجب والجمع سدنة
(٢) الخماص جمع خميص وهو ضامر البطن والبطان جمع بطين وهو ممتلىء البطن

أيها القوم ، إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلدتم الى الكسل ، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلاً وما هو الا العجز الفاضح ، والإسفاف الدنىء ، وهنا زفَر الشيخ زفرة الغيظ ونادى فى قومه أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسى فتألبوا علىَّ تألبهم على قَصعة الثريد وأوسعونى لطماً وصفعاً ثم رموا بى خارج الباب فما بلغت منزلى حتى هلكت أو كدت ، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رمونى بالنظر الشزْر وعاذوا بالله من رؤيتى كما يعوذون به من الشيطان الرجيم

الموقف الثالث : لا أكتمك يا سيدى أنى كنت أبغض زوجتى بغضاً يتصدع له القلب غير أنى كنت أصانعها وأتودد اليها وأمنحها من لسانى ما ليس له أثر فى قلبى خداعاً لها وإبقاءً على ما تحتويه يدى من صُبابة مال كانت لها ، فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه فآليت على نفسى ألا أسدل بعد اليوم أمام عينيها حجاباً يحول بينها وبين سريرتى ، فانقطع عن سمعها ذلك السلسبيل العذب ، من كلمات الحب ، فاستوحشت منى

وأظلم ما بيني وبينها فما هي الا عشية أو ضحاها حتى انحل ذلك الوثاق، وختمت سورة الفراق، بآية الطلاق

الموقف الرابع : حضرت مجتمعاً يضم بين حاشيتيه جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون إلى الحديث عن الناس والمفاضلة بينهم ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم ويتغلغلوا بين أطواء[1] سرائرهم ويغالون في ذلك مغالاة الكيماني في تحليله وتركيبه فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلاً عظيماً من أصحاب الآراء السياسية لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخذين إخذه من أخلص لأمته إخلاصه أو وقف في المواقف المشهودة موقفه أو لاقى في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الايام ما لاقاه ، سمعتهم يسمونه خائناً فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب إلىّ من أن يتهم البرئ أو يجازى المحسن سوءاً على إحسانه ، سمعت مالم أملك نفسي معه فقلت ياقوم أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً[2] ثم لاتزالون عبيد الأوهام أسرى الخيالات سراعاً الى كل داع ، سعاة مع كل ساع ، تنظرون بغير روية وتحكمون بغير علم ، إنكم

(١) أطواء الثوب طرائقه ومكاسر طيه (٢) يريد أن تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف

بعملكم هذا تزهدون المحسن في إحسانه وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لاجلكم وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة بلادكم : أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم أن نراكم طُعمة كل آكل ، ولُعبة كل عابث ، يستهويكم الكاذب بالكلمات التي تستهوى بها المرضعات أطفالهن ثم يدعوكم الى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم وإخلاصكم ، والثاني بغضكم وموجدتكم ، خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم فأرادوا شراً بي فما خلصت من بينهم الا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي

الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً[1] كبيراً وكنت ذاهباً الى موعد لابد لي من الوفاء به فعرض علىّ أن يسمعني قصيدة من طريف شعره وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده فاستعفيته بعد أن كاشفته بأمري فأبى فانتحيت به ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً وأنا أشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة حتى تمنيت أن لو ضربني بها ضربة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليريحني من هذا العذاب

(١) الطومار الصحيفة

المتقطع والتمثيل الفظيع ، وكلما أتى على بيت منها أقبل علىّ
بوجهه وأطال النظر فى وجهى وحدق فى عينى ليعلم كيف كان
وقع شعره من نفسى فاذا رأى تقطيب وجهى ظنه تقطيب
الشارب لارتشاف الكأس فيستمر فى شأنه حتى أنشد نحو
خمسين بيتاً ، ثم وقف وقال هذا هو الباب الاول من أبواب
القصيدة ، فقلت وكم عدد أبوابها يرحمك الله ، قال عشرة ليس
فيها أصغر من أولها ، قلت أتأذن لى أن أقول لك ياسيدى إن
شعرك قبيح وأقبح منه طوله وأقبح من هذا وذاك صوتك
الأجش الخشن وأقبح من الثلاثة اعتقادك أنى من سخافة الرأى
وفساد الذوق بحيث يعجبنى مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل
علىّ فوات الغرض الذى أريده والذى ما خرجت من منزلى الا
من أجله ، فتلقانى بضربة بجمع يده [1] فى صدرى فتلقيته بمثلها وما
زالت أكفنا تأخذ مأخذها من خدودنا وأقفائنا حتى كلت
فجردت عصاى وضربته فى رأسه ضربة ما أردت بها يعلم الله الا
أن أصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه ، فسقط مغشياً
عليه وسقطت القصيدة من يده فأسرعت اليها ومزقتها وأرحت

(١) جمع اليد هيئتها حين تقبضها

نفسى منها وأرحت الناس من مثل مصيبتى فيها ، وكان الشرطى
قد وصل الينا فاحتملنا جميعاً الى المخفر ثم الى السجن حيث أكتب
اليك كتابى هذا

فياصاحب النظرات أفتنى فى أمرى وأنر ظلمة نفسى فقد
أشكل علىّ الامر وأصبحت أسوأ الناس بالصدق ظناً بعدما رأيت
أنى ما وقفت موقفه فى حياتى إلا خمس مرات فكانت نتيجة
ذلك إفلاسى وخراب بيتى وإتهامى بالخيانة مرة والزندقة أخرى ،
ذلك الى ما أقاسيه اليوم فى هذا السجن من أنواع الآلام ،
وصنوف الاسقام

* * *

أيها السجين :

كتبت إلىّ مسح الله ما بك وألهمك صواب الرأى فى
حالك تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف
الشك فى أمره وكاد يزلق بك الى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل ،
لا فضيلة الفضائل ، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل
الى نفسك وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات
الايام مبلغاً يذهب برشدك ، ويطير بلبك ، فما أنت أول صادق
فى الارض ولا أول من لقى فى سبيل الصدق شراً وكابد ضراً

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مرارتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ماتتقطع دونه أعناق الرجال

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال وانما هى حالة من حالات النفس تسمو بها الى أرقى درجات الانسانية وتبلغ بها غاية الكمال

إن الذى يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله أو يرفه بها عيشه يحتقرها ويزدريها لانه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأى أن يجعل الانسان حالة عيشه ميزاناً يزن به أخلاقه فان اتسع عيشه اطمأن اليها وان ضاق أساء الظن بها فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء ، وبين الارذلين كثيراً من ذوى النعمة والثراء

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا اذا استطاع أن ينزل من نفوس الناس منازل الحب والاكرام ، ولن يستطيع ذلك الا اذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك الا اذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء . والسواد الأعظم الذى يمسك بيده أسباب العيش ويملك ينابيعه سواد أبله ساذج يبغض الصادق لانه

يصادره فى ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لانه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب اليه نفسه ، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش وقلب يحتمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار

الصدق جنة حفت بالمكاره فان كان للصادق فى جنة الصدق أرب فليحمل فى سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الانسانى ودعاة المطالب الدينية والسياسية

كما أن الجود يفقر والإقدام قتال وكما أن لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات ترفع درجتها وتبعد منازلها الا على الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادمة الكاذبين وهم الاكثرون ، للصادقين وهم الاقلون

أتريد أيها الرجل أن تسمى صادقاً وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر وأن يوافيك المجد طائعاً مذعناً دون أن تبذل فى سبيله شيئاً من مالك أو راحتك

إنك إن أردت ذلك أو قدرته فى نفسك تظلم الفضيلة

ظلماً بيناً وتُرخصُ قيمتها وتُلقى بها فى مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال

أيحزنك انصراف الأغبياء عن حانوتك أو اتهامك بالزندقة والالحاد أو المروق والخيانة وترى أن ذلك كثير فى سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته ، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت ، فى سبيل إحراز ما أحرزت ، فما ندموا ولا حزنوا

أيها السجين الشريف

هنيئاً لك السجن الذى تكابده ، وهنيئاً لك البغض الذى تحتمله ، وهنيئاً لك العيش الذى تعالج همومه ، فوالله لأنت أرفع فى نظرى من كثير من أولئك الذين يَعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء

لا تظلم الصدق ولا تكن سيئ الظن به وكن أحرص الناس على ولائه ومودته ، وإياك أن يخدعك عنه خادع ، واصبر قليلاً يُثمرْ لك غرسه ، ويمتدّ عليك ظله ، وهنالك تجد فى نفسك من اللذة والغبطة مالو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وأرباب الكنوز كنوزهم ، لما استطاعوا اليه سبيلا

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدءون ساعة واحدة عن صدع رءوسنا وجرح قلوبنا بهذه الصواعق التى يمطرونها علينا كل يوم من سماء الصحف حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا فى وسطها جدولاً أبيض مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء ففزعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمّس لينجو بنفسه ويسلم بحياته

من لى بالقلم العريض الذى يكتب به كتاب الصحف عناوين مقالاتهم فى معرض التهويل والتجسيم فأكتب به الى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم ، إن علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بانه الكلام الموزون المقفى لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه أو اشتقاقه وتصريفه وإنما جروا فى ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من أن يقفوا فى تعريف الشعر عند هذا القدر ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه ، وعلله وزحافاته

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون وإلا لاستطاع كل قارئ بل
كل انسان أن يكون شاعراً لأنه لا يوجد فى الناس من يُعجزه
تصورُ النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخصر طريق

أيها القوم ، ما الشعر إلا روح يودعها الله فطرةَ الانسان
من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار فى الزند حتى إذا
شدا [١] فاضت على أسلات أقلامه [٢] كما تفيض الكهرباء على
أسلاكها ، فمن أحسّ منكم بهذه الروح فى نفسه فليعلم أنه شاعر
أوْ لاَ فليكفِ نفسَه مؤونة التخطيط والتسطير وليصرفها إلى
معاناة ما يلائم طبعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة ، فوالله
لَلمحراث فى يد الفلاّح والقَدوم فى يد النجّار والمِسبر في يد الحداد
أشرف وأنفع من القلم فى يد النظام

فان غُمّ عليكم الأمر وأعجزكم أن تعلموا مكان الروح الشعرى
من نفوسكم فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ويدلكم
عليكم حتى تكونوا على بينة من أمركم

(١) شدا أخذ طرفاً من الادب والعلم (٢) الاسلات جمع أسلة وهي
نبات رقيق الغصن

الحرية

استيقظت فى فجر هذا اليوم على صوت هرة تموء [١] بجانب
فراشي وتمسح بى وتلح فى ذلك إلحاحاً غريباً فرابنى أمرها
وأهمنى همها وقلت لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعاماً فعافته
وانصرفت عنه فقلت لعلها ظمآنة فأرشدتها الى الماء فلم تحفل
به وأنشأتْ تنظر إلىّ نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من
الآلام والأحزان فأثر فى نفسى منظَرها تأثيراً شديداً حتى
تمنيت أن لو كنت سليمان ، أفهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها
وأفرج كربتها ، وكان باب الغرفة مقفلا فرأيت أنها تطيل النظر
اليه وتَتلصَّق بى كلما رأتنى أتجه اليه فأدركت غرضها وعرفت أنها
تريد أن أفتح لها الباب ، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على
الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهمّ
الى غبطة وسرور وانطلقت تعدو فى سبيلها ، فعدت الى فراشي

(١) المواء صوت الهر

وأسلمت رأسى الى يدى وأنشأت أفكر فى أمر هذه الهرة وأعجب لشأنها وأقول ، ليت شعرى هل تفهم الهرة معنى الحرية فهى تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها ، أجَلْ : إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسُّحها وإلحاحها إلا سعياً وراء بلوغها

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بنى الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرةُ المحبوسة فى الغرفة والوحشُ المعتقَل فى القفص والطير المقصَّص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من لا يفكر فى وجه الخلاص أو يلتمس السبيل الى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه

من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميْداناً فى الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقهُ شؤماً عليه وعلى سعادته ، وهل يجمُل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ذكياً ناطقاً

يحلّق الطير فى الجو ويَسبح السمك فى البحر ويَهيم الوحش

فى الأودية والجبال ويعيش الانسان رهين المحبَسين مَحْبَسِ نفسه ومَحْبَسِ حكومته من المهد الى اللحد

صنع الانسان القوى للانسان الضعيف سلاسل وأغلالا وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام

صنع له هذه الآلة المخيفة وتركه قلقاً حذراً مروع القلب مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وفلتات لسانه وخطرات وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويلٌ له ما أكثر جهله ، وويحٌ له ما أشد حُمقه ، وهل يوجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يَذرِف دمعة واحدة عليها

لو عرف الانسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود لانتحر كما ينتحر البلابل اذا حبسه الصياد فى القفص، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية ولا تخلُص اليه نسمة من نسماتها

كان فى مبدأ خلقه يمشى عُرياناً أو يلبس لباساً واسعاً يشبه أن يكون ظُلة تقيه لفحة الرمضاء ، أو هبة النكباء ، فوضعوه فى القماط كما يضعون الطفل وكفنوه كما يكفنون الموتى وقالوا له هكذا نظام الأزياء

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته فحالوا بينه وبين ذلك وملأوا قلبه خوفاً من المرض أو الموت وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب وأن يتكلم أو يكتب الا كما يريد الرئيس الدينى أو الحاكم السياسى وأن يقوم أو يقعد أو يمشى أو يقف أو يتحرك أو يسكن إلا كما تقضى به قوانين العادات وتقاليدها

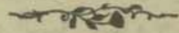
لا سبيل الى السعادة فى الحياة الا اذا عاش الانسان فيها حراً مطلقاً لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطرٌ الا أدبَ النفس

الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش فى ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر

الحرية هى الحياة ولولاها لكانت حياة الانسان أشبه شىء بحياة اللعب المتحركة فى أيدى الاطفال بحركة صناعية

ليست الحرية فى تاريخ الانسان حادثاً جديداً ، أو طارئاً غريباً ، وانما هى فطرته التى فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الاشجار

إن الإنسان الذى يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسوّل ولا مستجدٍ وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التى سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ولا يد لأحد عنده



عبرة الهجرة

إن فى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وسجاياه التى لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الارض أو السماء ، أو الماء أو الهواء

إن ما كان يَبهرُ العرب من معجزات علمه وحلمه ، وصبره واحتماله ، وتواضعه وإيثاره ، وصدقه وإخلاصه ، أكثر مما كان يَبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر ، ومشى الشجر ، ولين الحجر ، ذلك لأنه ما كان يَريبهم فى الأُولى ما كان يَريبهم في الأُخرى من الشبَه بينها وبين عِرافة العرافين وكَهانة الكهنة وسحر السحرة ، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريد ، ولا تركت المعجزات فى نفوس العرب ذلك الأثرَ المعروف ، ذلك هو معنى قوله تعالى « ولو كُنْتَ فَظًّا غليظَ القلبِ لا نفضُّوا من حولِك »

كان النبى صلى الله عليه وسلم شجاع القلب فلم يَهبْ أن يدعوَ إلى التوحيد قوماً مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاة شرسون

متحمسون يغضبون لدينهم غضبَهم لأعراضهم ويحبون آلهتهم كما يحبون أبناءهم

كان على ثقة من نجاح دعوته فكان يقول لقريش أشدَّ ما كانوا هزءاً به وسخرية « يا معشر قريش والله لا يأتى عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما أنتم له كارهون »

كان حليماً سمح الأَخلاق فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويُشعِّثون [1] منه ويضعون التراب على رأسه ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسَلَى [2] الجَزور وهو فى صلاته بل كان يقول « اللهمَّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون »

كان واسع الأَمل كبير الهمة صُلب النفس لبث فى قومه ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل فلم يبلغ الملل من نفسه ولم يخلُص اليأس الى قلبه فكان يقول: والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأَمر حتى يُظهره الله أو أهلِك فيه ما تركته

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة ولا مطلع تلك الشمس المشرقة فهاجر الى المدينة فانتقل الاسلام

(١) يقال شعث فلان من فلان تنقصه (٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للانسان

بانتقاله من السكون الى الحركة ومن طور الخفاء الى طور الظهور

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها أكبر مظهر من مظاهره وكانت عيداً يحتفل به المسلمون فى كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد فى سبيل الله

لقد لقى صلى الله عليه وسلم فى هجرته عناءً كبيراً وشدة عظيمة فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضنًّا به بل مخافة أن يجد فى دار هجرته من الأعوان والأنصار مالم يجد بينهم كأنما كانوا يشعرون بأنه طالب حق وأن طالب الحق لابد أن يجد بين المحقين أعواناً وأنصاراً ، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعد ما ترك فى فراشه ابن عمه على ابن أبى طالب رضى الله عنه عبثاً بهم وتضليلاً لهم عن اللَحاق به ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور ويتسربان فى الأغوار والكهوف ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب حتى انقطع عنهم الطلب وتم لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق

إن حياة النبى صلى الله عليه وسلم أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق بأشرف الاخلاق والتحلى بأكرم الخصال وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف

يكون الصدق فى القول والإخلاص فى العمل والثبات على الرأى وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد فى سبيل الحق سبباً فى علوّه على الباطل

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان ، وحكماء الرومان ، وعلماء الإفرنج ، فلدينا فى تاريخنا حياةٌ شريفة مملوءة بالجد والعمل والصبر والثبات والحب والرحمة والحكمة والسياسة والشرف الحقيقى والإنسانية الكاملة وهى حياة نبينا صلى الله عليه وسلم وحسبُنا بها وكفى

الانصاف

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه ثم هجمتَ من أخلاقه على ما لم يحلُ في نظرك ولم يتفق مع ما علمت من حاله ، وما اطّرد عندك من أعماله ، أو كان لك عدو تذم طباعه ، وتَنقِم منه شؤونَه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك على الهفوة التي ذممتها ، وحَمْدِ عدوك على الخَلة التي حمِدتَها ، عدَّك الناس متلوناً أو مخادعاً أو ذا وجهين تَمدح اليوم من تذم بالامس وتَذم في ساعة من تمدح في أخرى وقالوا إنك تظهر مالا تضمر وتخفى غير الذى تبدى ، ولو أنصفوك لأُعجبوا بك وبصدقك ، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها ، ولسمّوا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقاً ، وإنصافاً لا خداعاً ، لأنك لم تَغْلُ في حب صديقك غلوّ من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه ولم تمسك من صداقته بالسبب الضعيف فمُنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لإصلاح ما فسد من الأولى ، واعوجّ من الأُخرى

إن صديقك الذى يَبسِم لك فى حالى رضاك وغضبك ، وحلمك وجهلك ، وصوابك وسقطك ، ليس ممن يُغتبط بمودته ، أو يوثق بصداقته ، لانه لا يصلح أن يكون مرآتك التى تتراءى فيها فتنكشف لك عن نفسك وتصدُقك عن زينك وشينك ، وحلوك ومرك ، وهو إما جاهل متهور فى ميوله وأهوائه فلا يرى غير ما تريد أن ترى نفسُه لا ما يجب أن تراه ، وإما منافق مخادع قد علم أن هواك فى الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول عليها فجاراك فيما تريد ، ليبلغ منك ما يريد

فهاأنت ترى أن الناس يعكسون القضايا ويقلبون الحقائق فيسمون الصادق كاذباً ، والكاذب صادقاً ، ولكن الناس لا يعلمون

المدنية الغربية

سأودّع فى هذه النظرة الخيال والشعر وَداع من يعلم أن الأمر أعظم شأناً وأجل خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هـذه الطرائف التى هى بالهزل أشبه منها بالجد والتى إنما يلهو بها الكاتب فى مواطن فراغه ولعبه ، لا فى مواطن جده وعمله

إن فى أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعةً يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدَب عليها حتى نؤديَها الى أخلافنا من بعـدنا كما أداها الينا أسلافنا من قبلنا سالمة غـير مأروضـة [1] ولا متأكّلة ، فان فعلنا فذاك ، أوْ لاَ فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأمناء

الأمة المصرية أمة مسـلمة شرقية فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتّها ما جرى نيلها فى أرضها ، وذهبت إهرامها فى سمائها ، حتى تُبدَّل الارض غيرَ الارض والسموات

إن خطوة واحدة يخطوها المصرى الى الغرب تدنى اليـه

(١) الخشب المأروض الذى أكلته الأرضة

أجله وتدنيه من مهوى سحيق يُقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده الى يوم يبعثون

لا يستطيع المصرى وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز يمسك خُشاره ، ويُفلت لُبابَه ، أو الراووق [1] من الخمر يحتفظ بعُقاره ، ويستهين برحيقه ، فخير له أن يتجنبها وأن يفر منها فِرار السليم من الأجرب

يريد المصرى أن يقـلد الغربى فى نشاطه وخفته فلا يَنشَط الا فى غدوته وروحته ، وقعدته وقومته ، فاذا جـد الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملا من الأعمال المحتاجة الى قليل من الصبر والجلد دب الملل الى نفسه دبيب الصهباء فى الأعضاء ، والكرى بين أهداب الجفون

يريد أن يقلده فى رفاهيته ونعمته فلا يفهـم منهما الا أن الأولى التأنث فى الحركات ، والثانية الاختلاف الى الحانات

يريد أن يقلده فى الوطنية فلا يأخذ منها الا نعيقها ونعيبها وضجيجها وصفيرها ، فاذا قيـل له هذه المقدمات فأين النتائج أسلم رجليه الى الرياح الاربع واسـتنّ فى فراره استنان المهر

(١) الراووق المصفاة

الأرِن (1) ، فاذا سمع صفير الصافر مات وجلا ، واذا رأى غير
شئ ظنه رجلا

يريد أن يقلده فى السياحة فلا يزال يترقب فصل الصيف
ترقبَ الارض الميتة فصل الربيع حتى اذا حان حينه طار الى مُدن
أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي
على شئ مما وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكامن الفجور
وملاعب القمار ، وهناك يبذل من عقله وماله مايعود من بعده فقير
الرأس والجيب ، لا يملك من الاول مايقوده الى طريق السفينة
التى تحمله فى أوبته ، ولا من الثانى أكثر من الجعالة التى يجتعلُها
منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته ، حادثة
عودته ، موشاة بجمل الإجلال والاحترام ، مطرزة بوشائع
الاكرام والاعظام

يريد أن يقلده فى العلم فلا يعرف منه الا كلمات يرددها
بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه الى ركن من العلم وثيق ، ولا
يعتصم به من جهل شائن

يريد أن يقلده فى الاحسان والبر فيترك جيرانه وجاراته
يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى

(1) الارن النشط

اذا سمع دعوة الى اكتتاب فى فاجعة نزلت فى القطب الشمالى أو
كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه فى فاتحة الكتاب ،
ورصد هبته فى مستهل جريدة الحساب

يريد أن يقلده فى تعليم المرأة وتربيتها فيقنعه من علمها مقالة
تكتبها فى جريدة أو خطبة تخطبها فى مَحفل ومن تربيتها التفنن
فى الازياء والمقدرة على سحر النفوس واستلاب الألباب

هذا شأنه فى الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة
وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى ولا ينتحى بها مقصداً ولا
يذهب فيها الى مذهب ، فيكون مثله فى ذلك كمثل جهلة المتدينين
الذين يقلدون السلف الصالح فى تطهير الثياب وقلوبهم ملأى
بالاقذار والاكدار ، ويجارونهم فى آداء صور العبادات وان كانوا
لا ينتهون عن فحشاء ، ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون
بعمرَ فى ترقيع الثياب وان كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة
الاسرائيليين

أما شأنه فى رذائلها فانه أقدر الناس على أخذها كما هى
فينتحر كما ينتحر الغربى ويلحد كما يلحد ويُستهتَر فى الفسوق
استهتاره ، ويترسم فى الفجور آثاره

ان فى للمصريين عيوباً جمة فى أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم

وعاداتهم فان كان لا بد لنا من الدعوة الى إصلاحها فلندع الى ذلك باسم المدنية الشرقية ، لا باسم المدنية الغربية

إن دعوناهم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا لا بباريس ورومة وسويسرة ونيويورك ، وإن دعوناهم الى مكرُمة فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه لا آيات رُسُّو وباكون ونيوتن وسبنسر ، وإن دعوناهم الى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر ، وفى وقائع القادسية وعَمُّورِيَّة وأفريقية والحروب الصليبية مايغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين

إن عاراً على التاريخ المصرى أن يعرف المسلم الشرقى فى مصر من تاريخ بنوبارت مالا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ، مالا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث درون مالا يحفظ من حكم الغزالى وأبحاث ابن رشد ، ويروى من الشعر لشكسبير وهوجو مالا يروى للمتنبى والمعرى

لا مانع من أن يعرّب لنا المعرّبون المفيد النافع من مؤلفات

علماء الغرب والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم على أن ننظر اليه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية علمية قضية مسلمة ولا نطرب لكل معنى أدبى طرباً متدفقاً ، ولا مانع من أن ينقل الينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم فى مدنيتهم على أن ننظر اليه نظر من يريد التبسط فى العلم بشؤون العالم والتوسع فى التجربة والاختبار لا على أن نتقلدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا فى استحسان ما نستحسن من شؤوننا ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا

وبعد فليعلم كتاب هذه الأمة وقادتها أنه ليس فى عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم مانحسدهم عليه كثيراً ، فلا يخدعوا أمتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ولا يُزينوا لها هذه المدنية الغربية تزييناً يرزؤها فى استقلالها النفسى ، بعد ما رزأتها السياسة فى استقلالها الشخصى

يوم الحساب

ساهرتُ الكوكبَ ليلة أمس حتى ملنى ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً وقد وقف الهم بينى وبين الكرى أجذبه فيدفعه ، وأُدنيه فيبعده ، حتى أسلس قيادُه ، وسكن جماحه

لم تخالط جفنى سِنة الكرى حتى خيل إلىَّ أنى قد انتقلت من العالم الأول الى العالم الثانى ورأيت كأنى بُعثت بعد الموت وكأن أبناء آدم مجتمعون فى صَعيدٍ واحد يحاسَبون على أعمالهم فأُلهمت أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب

أنشأت أمشى مِشية الحائر الذاهل لا أعرف لى مذهباً ولا مضطرَباً ولا أجد من يأخذ بيدى ويدلنى على نفسى فى هذا الموقف الذى يَنشد فيه كل ذى نفس نفسَه فلا يجد اليها سبيلا ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر فى الغادين والرائحين ، علنى أجد صديقاً أستأنس به فى وحدتى ، وأستعين بمرافقته على وحشتى ، فلا أرى الا خَلقاً غريباً ، ومنظراً عجيباً ، ووجوهاً ما رأيت لها فى حياتى شبيهاً ولا ضريباً ، ولولا أنى أعلم

أن الحساب خاص بالإنسان ، لظننت أن الله يحاسب فى هذا الموقف جميع أنواع الحيوان

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسى رأيت على البعد وجهاً يبتسم لى ويدنو منى رويداً رويداً فأرقلت نحوه حتى بلغتُه فاذا صديقى « فلان » واذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب فى علياء السماء ، فسألته ما فعل الله به ، فقال حاسبنى حساباً يسيراً ثم غفر لى ، وها أنذا ذاهب الى ما أَعد الله لعباده الصالحين فى جنته من النعيم المقيم ، فعجبت لشأنه وقلت فى نفسى لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعد ما هان على هذا الذى كنت أَعرفه فى أُولاه لا يتقى مأثماً ، ولا يهاب منكراً ، ولا يخرج من حان الا الى حان ، ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق الا على موعد من اللقاء ، فنظر الىَّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامةً علمت منها أن الرجل قد ألمَّ بما أَضمرته فى نفسى فذكرت أن قد كُشف الغطاء فى هذه الدار وأن قد رُفع الحجاب بين الناس فلا سرَّ ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان ، وخطرات الجنان ، نظر الىَّ تلك النظرة وقال لا تعجب لأمر فى هذه الدار فكل ما فيها عجيب ، واعلم ان الله حاسبنى على كل ما كنت أَجترح من الإثم فى الدار الأُولى ، إلا أنه وجد

لى فى جريدة حسناتى حسنةً ذهبت بجميع السيئات ، ذلك أنه
كان لى جار من ذوى النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة
والبرّ نكبه دهره نكبة ذهبت بماله فأهمنى أمره وأزعجنى أن
أراه فى مستقبل الايام بائساً معدِماً يريق ماء وجهه على أعتاب
الذين كان يُسدى اليهم نعمته ، وعلمت أنى إن عرضت عليه شيئاً
من مالى أخجلته وصغُرت نفسه فى عينه فاحتلت على أن أُدخل
فى بيته خادماً كانت فى بيتى وجعلت لها جُعلا على أن تَدُسّ فى
كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها ،ولا
يقف على سرها ، ومازال هذا شأنى وشأنه لا يعلم من أين يأتيه
رزقه ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذَهاب ماله ،
حتى فرق الموت بينى وبينه ، فما نفعنى عمل من أعمالى ما نفعنى
هذا العمل ، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتى بل كان
سببها أنه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء ، فهنأته بنعمة
الله عليه وشكوت اليه وحشتى من الوَحدة وخوفى من المحاسبة،
فقال أما الوحشة فانى لن أُفارقك حتى يأتى دورك ، وأما الخوف
فلا حيلة لى ولا لأحد من الناس فى نقض ما أبرم الله فى شأنك ،
فقلت أنت من السعداء فهل تستطيع أن تشفع لى أو تطلب لى
شفاعة من ولى من الأولياء ، أو نبي من الأنبياء ، قال لا تطلب

المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخدوعين فى الدار
الأُولى بتلك الآمال الكاذبة التى كان يبيعها منا تجار الدين بثمن
غال ولا يتقون الله فى غشنا وخداعنا ، وما الشفاعة إلا مظهر
من مظاهر الاكرام والتبجيل يختص به الله بعضَ عباده المقربين،
فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد الا اذا
كان بين أعمال المشفوع له أو فى أعماق سريرته ما يقتضى إيثاره
بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى أجل
من العبث وأرفع من المحاباه

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من
ملائكة العذاب تحيط برجل يساق الى النار ورأينا فى يد كل
واحد منهم مَقرعة من الحديد يَقرع بها رأسه وهو يصرخ
ويقول « أهلكتنى يا أبا حنيفة » فسألت صاحبي ما ذنب الرجل،
فقال إنه كان فى حياته يتخذ فى أعماله ما يسمونه «الحيل الشرعية»
فكان يهب ماله لأحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول
عليه الحول ليتخلص من فريضة الزكاة ، ويطلق زوجته ثلاثاً ثم
يأتى بمحلل يحللها له فيعود الى معاشرتها ، وكان يرابى باسم الرهن
فاذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالا أبى أن يُقرضه الا اذا
وضع فى يده رهناً فاذا وضع يده على ضَيْعته ألزمه أن يَستأجرها

منه بمال كثير يراعى فيه النسبة التى يراعيها المرابون بين الربح
وأصل المال ، وكان اذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته،
أو لا يأكل رغيفاً أكله الا لقمة منه ، فذنبه أنه كان يعمد الى
الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها ثم يرفعها الى الله
قشوراً جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الأطفال والبله
مستنداً على تقليد أبى حنيفة أو غيره من كبار الأئمة وأبو حنيفة
أرفع قدراً وأهدى بصيرة من أن يتخذ الله هزأ أو سخرية وأن
يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين

وما انقطع عنا صوت هذا الشقى حتى رأينا شقياً آخر ذا
لحية طويلة كثة قد أحاط به ملكان وشدا عنقه بسبحة طويلة
ذات حبات كبيرة وقد أخذ كل منهما بطرف منها وهو يهمهم
بكلمات مبهمة فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له « أمكرٌ وأنت
فى الحديد » فدنوت منه وأنعمت النظر فى وجهه فعرفته فتراجعت
ذعراً وخوفاً وقلت أيكون هذا من أشقياء الآخرة وقد كان
بالامس من أقطاب الأولى، فقال لى صاحبى إن هذا الذى كنت
تحسبه فى أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين ،
وما هذه اللحية والسبحة والهمهمة والدمدمة الا حبائل كان
ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم ولكن الناس لا يعلمون

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا هذا الى
جنته وذاك الى ناره وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً
فأرى سعيداً من كنت أحسبه شقياً ، وشقياً من كنت أحسبه
سعيداً ، فسجلت أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم،
لا على جوارحهم ، ويسألهم عن نياتهم ، لا عن أفعالهم ، وأن
لا سعادة الا الصدق، ولا شقاء الا الكذب ، وعلمت أن الله
لا يغفر من السيئات الا ما كان هفوة من الهفوات يُلمّ بها
صاحبها إلماماً ثم يندم عليها، ورأيت أن أكبر ما يعاقب الله عليه
جنايةُ المرء على أخيه بسفك دمه أو هتك عرضه أو سلب ماله ،
وأن أضعف الوسائل الى الله ذلك الركوع والسجود ، والقيام
والقعود ، فلو أن امرأ قضى حياته بين ليل قائم ، ونهار صائم ، ثم
ظلم طفلاً صغيراً فى لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته الى
سيئات ، وما أغنى عنه نسكُه من الله شيأ

وبينا أنا أحدث نفسى بهذا الحديث وأقلب النظر فى وجوه
تلك المواعظ والعبر إذ قال لى صاحبى أتعرف هذين ، وأشار الى
رجلين واقفين ناحية يتناجيان ، أحدهما شيخ جليل أبيض اللحية ،
وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده ، فما هى الا النظرة
الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين ، رجل الإسلام « محمد عبده »

ورجل المرأة «قاسم أمين» ، فقلت لصاحبي هل لك فى أن ندنو منهما ونسترقَ نجواهما من حيث لا يشعران ، ففعلنا فسمعنا الأول يقول للثانى ؛ ليتك يا قاسمُ أخذت برأيى وأحللت نصحى لك محلا من نفسك ، فقد كنت أنهاك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك فى الحجاب قبل أن تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذّلها وإراقة تلك البقية الصالحة التى كانت فى وجهها من ماء الحياء ، فقال له صاحبه إنى أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تَسفِر وأن لا ترفع برقعها قبل أن تَنسِج لها برقعاً من الأدب والحياء ، قال له ولكن قد فاتك ما كنت تنبأت لك به من أنها جاهلة لا تفهم هذا التفصيل وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء ، فكنتَ كمن يعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فيقتل نفسه ، فقال له أتأذن لى يا مولاى أن أقول لك إنك قد وقعت فى مثل ما وقعت فيه من الخطأ وأنك نصحتنى بما لم تنتصح به ، أنا أردتُ أن أنصح المرأة فأفسدتُها كما تقول ، وأنت أردت أن تحيىَ الإسلام فقتلته ، إنك فاجأت جَهلَة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والأغراض الشريفة فأرادوا غير ما أردت ، وفهموا غير ما فهمت ، فأصبحوا ملحدين ، بعد أن كانوا مخرفين ،

وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين ، أوّلت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملَك والشيطان والجنة والنار ، وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها ، وسفهت لهم رأيهم فى الأخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها جملة واحدة ، وقلت لهم إن الولى إله باطل ، والله إله حق ، فأنكروا الألوهية حقها وباطلها ، فتهلل وجه الشيخ وقال له ما زلت يا قاسم فى أخراك ، مثلك فى دنياك ، لا تضطرب فى حجة ، ولا تنام عن ثأر ، يا قاسم لا تحمل هماً ، ولا تخش شراً ، وثق أن الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا ، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، إنَّا ما أردنا الا الخير لأمتنا ، وما قدَّرنا لها فى مستقبلها إلا ما تحتمله عقولنا ، فان كذبتْ فراستنا أو أخطأ تقديرنا فذلك لأن المستقبل بيد الله

وما وصلا من حديثهما الى هذا الحد حتى تركا مكانهما وذهبا لشأنهما ، فقلت لصاحبي هل لك أن ترينى الميزان والصراط والجنة والنار فانى ما زلت فى شوق الى رؤية تلك الأشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها فى «خريطة الآخرة» التى رسمها الشعرانى فى بعض كتبه ، قال أما الميزان فتقدير الاعمال والموازنة بين الحسنات

والسيئات ، وأما الصراط فهو سبيل الانسان الى سعادته أو شقائه ،
وأما الجنة والنار فلا علم لى حتى الساعةَ بهما

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً صارخاً ما قَرع سمعى فى
حياتى مثله يناديني باسمى فعلمت أن قد جاء دورى فأدركنى من
الهول والرعب ما أيقظنى من نومى ، فاستيقظت فلم أرَ حساباً ولا
عقاباً ، ولا موقفاً ولا محشراً ، فعلمت أنها خيالات وأوهام ،
أو أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم أمام المرآة فلمحت فى رأسى شعرة
بيضاء ، تلمع فى تلك اللِمة السوداء ، لمعان شرارة البرق فى
الليلة الظلماء

رأيت الشعرة البيضاء فى فَودىّ [1] فارتعتُ لمرآها كأنما
خُيّلَ الىّ أنها سيف جرده القضاء على رأسى ، أو علمٌ أبيضُ
يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرنى باقتراب الأجل ، أو
يأسٌ قاتلٌ عرَض دون الأمل ، أو جذوةُ نار علِقت بأهداب
حياتى علوقها بالحطب الجزل ولا بد مهما ترفقت فى مِشيتها
واتأدت فى مسيرها من أن تبلغ مداها ، أو خيط من خيوط
الكفن الذى تَنْسِجه يد الدهر وتُعده لباساً لجثتى عند ماتجردها
من لباسها يد الغاسل

أيتها الشعرة البيضاء : مارأيت بياضاً أشبه بالسواد من

---

(١) الفود ناحية الرأس

بياضك ، ولا نوراً أقربَ الى الظلمة من نورك ، لقد أبغضتُ من أجلك كل بياضٍ حتى بياضَ القمر ، وكلَّ نورٍ حتى نورَ البصر ، وأحببتُ فيك كلَّ سوادٍ حتى سوادَ الغربانِ ، وكلَّ ظلام حتى ظلام الوجدان

أيتها الشعرة البيضاء : ليت شعرى من أى نافذةٍ خلَصْتِ إلى رأسى ، وفى أى مسلكٍ من مسالك الدهر مشيتِ الى فَودى كيف طاب لكِ المقام فى هذه الأرض الموحشة التى لاتجدين فيها أنيساً يسامركِ ، ولا جليساً يساهركِ ، وكيف لم يُرعْ قلبكِ لمنظر هذا الليل الفاحم ، ولم يَعْشَ بصرُكِ فى هذا الظلام القاتم

أيتها الشعرة البيضاء : لقد عييتُ بأمركِ ، وَبعِلْتُ (١) بحملكِ ، وأصبحتُ لا أعرف وجه الحيلة فى البعد عنكِ ، والفرار من وجهكِ

لا ينفعنى معكِ أن أنزعكِ من مكانكِ لانكِ لاتلبثين أن تعودى اليه ، ولا ينقذنى منكِ أن أخضّبكِ بالسواد لانكِ لا تلبثين أن تنصُلى (٢) ولأنى لا أحب أن أجمع على نفسى بين

(١) بعل بالشئ برم به واستثقله (٢) نصل الشعر خرج من الخضاب

مصيبتين ، مصيبة الشيب ، ومصيبة الكذب

أيتها الشعرة البيضاء : يخيَّلُ الىَّ وأنا أنظر اليكِ أنكِ من ذوات الحيلة والدهاء والكيد والخبث ، وأنكِ تهمِسين فى آذان أخواتكِ السود اللواتى بجانبكِ تحاولين إغراءهن بالتشبه بكِ والتردى بردائكِ ، وكأنى بكِ وقد أشعلتِ فى هذه البيئة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء ، وفتنة عمياء ، يختلط فيها الرامح بالنابل (١) والدارع بالحاسر (٢) ويَهلِكَ فيها القاعد والقائم ، والمظلوم والظالم

إن كان هذا مصيركِ فسيكون شأنكِ شأن ذلك السائح الأبيض الذى ينزل بأمة الزنج مستكشفاً فيصبح مستعمراً ، ويدخل أرضها سلماً ، ويفارقها حرباً ، فأسأل الله لرأسى العافية منكِ ، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك ، فكلاكما مشئوم الطلعة فى مُقامه وارتحاله ، وكوكب النحس فى وقوفه وتَسياره

أيتها الشعرة البيضاء : ماأنت ، وما وفودُكِ الىّ ، وما مكانُكِ منى ، وما مُقامكِ عندى ، إن كنتِ ضيفاً فأين استئذان الضيف وتلطفه ، وتجمُّله وتودُّده ، وإن كنتِ نذيراً فأنا أعلم

(١) الرامح حامل الرمح والنابل ذو النبل (٢) الدارع لابس الدرع والحاسر خلافه

من الموت وشأنه ما لا أحتاج معه الى نذير ، فلم يبق إلا أن تكونى
أوقح الخلائق وجهاً ، وأصلبها خداً ، وأنكِ قد نزلتِ من
السماجةِ والفضول منزلةً لا أرى لكِ فيها شبيهاً إلا تلك الحية
التى تلِج كل جُحر من أجحار الهوام والحشرات تعُده جحرها ،
وتحسَبه بيتها

أيبلغ بكِ الشأن وأنتِ التى يضربون الأمثال بدقتها
وخفائها ويبعثون وراءها اللاقط والمقاريض فلا يكادون يعرفون
السبيل الى مدارجها ومكامنها أن تملئ من الرعب قلباً لا يَروعه
السيف المجرد ، ولا السهم المسدد

لا لا ، ما ذُعرتُ ولا ارتعتُ ، وما حزنتُ ولا بكيتُ ،
وإنما هى خطرةٌ من خطراتِ الأمل الكاذب ، ولمحةٌ من لمحات
البرق الخالب

أيتها الشعرة البيضاء : هل لكِ أن تتجاوزى عما أسأتِ به
إليكِ فى إطالة عتبكِ ، واستثقال ظلك ، فلقد رجعتُ الى نفسى
فعلمتُ أنك أكرم الخلائق عندى ، وأعظمها فى عينى ، هنيئاً
لكِ رأسى مَصيفاً ومرتبَعاً ، وهنيئاً لكَ فودى مَراداً ومَسرحاً
فأنتِ رسولُ الموت الذى مازلتُ أطلبه مُذ عرفته ، فلا أجد
له سبيلا ، ولا أعرف له رسولا

ما الذى يحمله فى صدره لكِ من الحقد والموْجدة رجل لم
ينعمَ بشبابه ، فيحزنَ على ذهابه ، ولم يذق حلاوة الحياة ، فيجزع
لمرارة الممات ، ولم يستنشق نسمات السعادة غصناً رطباً ، فيأسَى
عليها عوداً يابساً

ما الذى ينقمه منكِ من الشؤون رجلٌ يعلم أنكِ وحى
الأمل الذى يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة
والهناء ، إلا لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم
والاحزان كما تكدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرآة

أليس كلُّ ما أعده عليكِ من الذنوب أنكِ طليعة الموت
والموتُ هو الذى يخلصنى من منظر هذا العالم المملوء بالشرور
والآثام ، الحافل بالآلام والاسقام ، الذى لا أغمض عينى فيه إلا
لأفتحها على صديق يغدر بصديقه ، وأخ يخون أخاه ، وعشير
يحدد أنيابه ليمضغ عشيره ، وغنىٌّ يضنّ على الفقير بفُتات مائدته ،
وفقير يقترح على الدهر حتى بُلغةَ الموت فلا يظفر بأمنيته ، وملك
لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز بين مُلك الملك
وربوبيته ، وقلوب تضطرم حقداً على غير طائل ، ونفوس تتفانى
قتلا على لون حائل ، وظلٍ زائل ، وغرض باطل ، وعقول تتهالك
وجداً على نار تُحرقها ، وأنيابٍ تمزقها ، وعيون حائرة ، فى رءوس

طائرة ، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها ، وتلمع ولا تكاد تبصر ماتحتها ، إن كان هذا هو ذنبكِ عندى فاستكثرى من ذنوبكِ فإنى لكِ من الغافرين

أيتها الشعرة البيضاء : مرحباً بكِ اليوم ومرحباً بإخواتكِ غداً ، ومرحباً بهذا القضاء الواقف وراءكِ أو الكامن فى أطوائكِ ، ومرحباً بتلك الغرفة التى أخلو فيها بربى وآنس فيها بنفسى ، من حيث لا أسمع حتى دوى المدافع ، ولا أرى حتى غبار الوقائع

أهلاً بوافدةٍ للشيب واحدة
وإن تراءت بشكل غير مودود

الصياد

حدّث أحد الاصدقاء قال : بينا أنا فى منزلى صبيحة يوم إذ دخل علىّ رجل صياد يحمل فى شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها علىّ فلم أساومه فيها بل نقدته الثمن الذى أراده فأخذه شاكراً متهللا وقال : هذه هى المرة الأولى التى أخذت فيها الثمن الذى اقترحته ، أحسن الله اليك كما أحسنت الىّ وجعلك سعيداً فى نفسك ، كما جعلك سعيداً فى مالك ، فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت أن تفتح لها أبواب السماء ، وعجبت أن يهتدى شيخ عامى الى معرفة حقيقة لا يعرفها الا القليل من الخاصة ، وهى أن للسعادة النفسية شأناً غير شأن السعادة المالية ، فقلت له يا شيخ وهل توجد سعادة غير سعادة المال ، فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : لو كانت السعادة سعادة المال لكنت أنا أشقى الناس لأنى أفقر الناس ، قلت وهل تَعُد نفسك سعيداً ؟ قال نعم لأنى قانع برزقى مغتبط بعيشى لا أحزن على فائت من العيش

ولا تذهب نفسى حسرة وراء مطمع من المطامع فمن أى باب
يخلص الشقاء الى قلبي ، قلت أيها الرجل أين يذهب بك وما
أرى الا أنك شيخ قد اختلس عقله ، كيف تعد نفسك سعيداً
وأنت حافٍ غير منتعل وعارٍ الا قليلا من الاسمال البالية والاطمار
السحيقه ، قال ان كانت السعادة لذة النفس وراحتها ، وكان الشقاء
ألمها وعناءها ، فأنا سعيد لأنى لا أجد فى رثاثة ملبسى ولا فى
خشونة عيشى ما يولد لى ألماً ، أو يسببُ لى هماً ، وان كانت
السعادة عندكم أمراً وراء ذلك ، فأنا لا أفهمها الا كذلك ، قلت
ألا يحزنك النظر الى الأغنياء فى أثاثهم ورياشهم ، وقصورهم
ومراكبهم ، وخدمهم وخولهم ، ومطعمهم ومشربهم ، ألا يحزنك
هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم ، قال إنما يصغر جميعَ هذه
المناظر فى نظرى ويهونها عندى أنى لا أجد أن أصحابها قد نالوا
من السعادة بوجدانها ، أكثر مما نلته بفقدانها

هذه المطاعم التى تذكرها إن كان الغرض منها الامتلاء فأنا
لا أذكرُ أنى بتُّ ليلة فى حياتى جائعاً ، وإن كان الغرضُ منها
قضاء شهوة النفس فأنا لا آكلُ الا اذا جعت فأجدُ لكل ما يدخل
جوفى لذةً لا أحسبُ أن فى شهوات الطعام لذةً تفضلها ، أما
القصورُ فانّ لدىّ كوخاً صغيرا لا أشعرُ بأنه يضيق بى وبزوجتى

وولدى فأقرع السن على أن لم يكن قصراً كبيراً ، وان كان لا بدّ
من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي أن أحمل شبكتي فوق
كتفي كلّ مطلعِ فجر وأذهبَ بها الى شاطئ النهر فأرى منظر
السماء والماء ، والأشعة البيضاء ، والمروج الخضراء ، فما هى إلا
لفتةُ الجيد حتى يَطْلُعَ من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه ترس
من ذهب ، أو قطعة من لهب ، فلا يبعد عن خط الأفق ميلاً
أو ميلين حتى ينتشر فوق سطح النهر حَلْيه المتكسر ، أو دره
المتحدر ، فاذا تجلى هذا المنظرُ فى عينى تخلله سكون الطبيعة
وهدوؤها ملكَ علىّ شعورى ووجدانى فاستغرقتُ فيه استغراق
النائم فى الأحلام اللذيذة حتى لا أحب أن أعودَ الى نفسى الى
يوم النشور ، ولا أزال هكذا غارقاً فى لذتى حتى أشعر بجذبة
قوية فى يدى فأنتبهُ فاذا السمكُ فى الشبكة يضطرب ، وما
اضطرابهُ إلا لأنهُ فارق الفضاء الذى كان يهيم فيه مطلق السراح
وبات فى المحبَس الذى لا يجد فيه مَراحاً ولا مسرحا ، فلا أجد لهُ
شبيهاً في حالتيه الا الفقراء والأغنياء ، يمشي الفقير كما يشتهى
ويتنقلُ حيث يريد كأنما هو الطائر الذى لا يقع إلا حيث يطيب
له التغريد والتنقير ، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر
ما طار فى كل فضاء ، ولا تنقّل حيث يشاء ، أما الغنىُّ فلا يتحرك

ولا يسكن إلا وعليه من الاحداق نطاق ، ومن الارصاد
أغلال وأطواق ، ولا يخرج من منزله إلا اذا وقف أمام المرآة
ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً ثم يطيل
التفكر هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً ، حتى إذا
استوثق من نفسه بذلك خرج الى الناس يمشى بينهم مشية
يحرص فيها على الشكل الذى استقر رأيه عليه فلا يطلق لجسمه
الحرية فى الحركة والالتفات حتى لا يخرج بذلك من حكمها ولا
لفكره الحرية فى النظر والاعتبار بمشاهد الكون ومناظره
مخافة أن يغفل عن إشارات السلام ، ومظاهر الاكرام

فاذا أخذت من السمك كفاف يومى عدت به وبعته فى
الأسواق أو على أبواب المنازل ، فاذا أدبر النهار عدت الى منزلى
فيعتنقنى ولدى وتبش زوجتى فى وجهى ، فاذا قضيت بالسعى
حق عيالى وبالصلاة حق ربى نمت فى فراشى نومة هادئة مطمئنة
لا أحتاج معها الى ديباج وحرير ، أو مهد وثير ، فهل أستطيع
أن أعد نفسى شقياً وأنا أروح الناس بالاً ، وان كنت
أقلهم مالاً

لا فرق بينى وبين الغنى إلا أن الناس لا ينهضون إجلالا لى
إذا رأونى ، ولا يمدون أعناقهم نحوى اذا مررت بهم ، وأهون

به من فرق لا قيمة له عندى ولا أثر له فى نفسى ، وما يعنينى
من أمرهم إن قاموا أو قعدوا ، أو طاروا فى الهواء ، أو غاصوا فى
أعماق الماء ، ما دمت لا علاقة بينى وبينهم ، وما دمت لا أنظر
اليهم إلا بالعين التى ينظر بها الإنسان الى الصور المتحركة

لا علاقة بينى وبين أحد فى هذا العالم إلا تلك العلاقة التى
بينى وبين ربى ، فأنا أعبده حق عبادته وأخلص فى توحيده فلا
أعتقد ربوبية أحد سواه ، ولا أكتمك يا سيدى أنى لا أستطيع
الجمع بين توحيد الله والإعتراف بالعظمة لأحد من الناس ، ولقد
أخذ هذا اليقين مكانه من قلبى حتى لو طلع على الملك المتوج فى
مواكبه وكواكبه ، وبطانته وجنده ، لما خفق له قلبى خفقة
الرهبة والخشية ، ولا شغل من نفسى مكاناً أكثر مما يشغله
ملك التمثيل

ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب فى عزائى وراحة نفسى
من الهموم والأحزان ، فما نزلت بى ضائقة ولا هبت على
عاصفة من عواصف هذا الكون إلا انتزعنى من بين مخالبها
وهونها على حتى لا أكاد أشعر بوقعها ، وكيف أتألم لمصاب أعلم
أنه مقدور لا مفر منه وأننى مأجور عليه على قدر احتمالى إياه
وسكونى اليه

آمنتُ بالقضاءِ والقدر خيْرِهِ وشرّهِ ، وباليوم الآخر ثوابه وعقابه ، فصغُرَتْ الدنيا فى عينىّ وصغُرَ شأنها عندى حتى ماأفرح بخيرها ، ولا أحزن لشرها ، ولا اعوّل على شأن من شؤونها حتى شأن الحياة فيها ، وأُقسمُ ماخرجتُ مرة الى شاطئ النهر حاملا شبكتى فوق عاتقى إلا وقع الشك فى نفسى هل أعود الى منزلى حاملاً أم محمولاً

ماالعالَم إلاّ بحرٌ زاخرٌ ، وما الناس إلا أسماكه السائحة فيه ، وما ريب المنون إلا صيادٌ يحمل شبكته كل يوم ويلقيها فى ذلك البحر فتُمسك ماتمسك ، وتترك ما تترك ، وماينجو من شبكته اليومَ لا ينجو منها غداً ، فكيف أغتبط بما لا أملك ، أو أعتمد على غير معتمَد ، إذاً أنا أضلُّ الناس عقلاً وأضعفهم إيماناً

قال المحدث فأكبرتُ الرجل فى نفسي كلّ الإكبار وأُعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه وقلت له : ياشيخُ ان الناس جميعاً يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها فاستقرّ رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها ، فكيف تعدّ العالم سعيداً وما هو إلا فى شقاء ، قال لا ياسيدى ، ان الانسان سعيد بفطرته وانما هو الذى يجلب بنفسه الشقاء الى نفسه ، يشتدّ طمعه فى المال فيتعذّرُ

عليه مطمعه فيطول بكاؤه وعناؤه ، ويعتقدُ أن بلوغَ الآمال فى هذه الحياة حقٌّ من حقوقه فاذا أخطأ سهمُه والتوى عليه غرضه أنّ وشكى شكاةَ المظلوم من الظالم ، ويبالغُ فى حُسن ظنه بالايام فاذا غدرتْ به فى محبوب لديه من مال أو ولد فاجأه من ذلك مالم يكن يقدّر وقوعه فناله من الهم والألم مالم يكن لينالهُ لو خبَرَ الدهر وقتل الأيام علماً وتجربة وعرَف أن جميع مافى يد الإنسان عاريةٌ مستردةٌ ، ووديعةٌ موقوتةٌ ، وأن هذا الامتلاك الذى يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خِدع النفوس الضعيفة ووهْم من أوهامها

إن أكثر ما يصيبُ الناس من الشقوة من طريق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتألم كلما وقع نظرُه على محسود ، والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجزٌ عن الإنتقام من عدوّه ، والطماع يتألم كلما خابَ أَملُه فى مطمَع، والشارب يتألم كلما أفاق من سكره ، والزانى يتألم كلما فاوضتْه فى الإثم سريرته، والظالم يتألم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه أو حاق به ظلمه ، وكذلك شأن الكاذب والنمام والمغتاب وكل من تشتمل نفسُه على رذيلة من الرذائل

من أَراد أَن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، وإلا فهو أشقى العالمين وإن ملك ذخائر الأرض وخزائن السماء

قال الصديق : فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال أستودعك الله ياسيدى وأَدعو لك الدعوة التى أحببتها لنفسك وأحببتها لك ، وهى أَن يجعلك الله سعيداً فى نفسك ، كما جعلك سعيداً فى مالك ، والسلام عليك ورحمة الله

الانتحار

فى كل موسم من مواسم الامتحان المدرسى نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين ، ولو رُبى التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسرَ سعادته الاخرويةَ خسراناً مبيناً أسفاً على أن لم ينلْ كلّ حظه من السعادة الدنيوية ، ولو رُبى تربية أَدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوَى وجهه عنها لانها لم تُقدّم اليه فى لُفافة الشهادةالمدرسية، ولو أن أستاذه ملأْ قلبه بنور الإيمان ولقَّنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه أن جناية المرء على نفسه أكبرُ إثماً عند الله وأعظم جرماً من جنايته على غيره لما خاطر بدينه فى آخر ساعة من ساعات حياته ، وهى الساعةُ التى يُنيب فيها العاصى الى ربه ويستغفر فيها المذنب من ذنبه ، ولو أنه لقنهُ فيما يلقنهُ من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفةٌ من صفات الكمال لا سِلعةٌ من سِلع التجارة يجب أن يَحفلَ به صاحبه من حيث ذاتهُ لا من

حيث كونه وسيلةً من وسائل العيش لما جرى على تلك القاعدة الفاسدة « الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ، ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتى وعلمهُ أن الشرفَ فى هـذه الحياة على قدر ما يبذُلُ الانسان من الجهد فى خدمة الأمة أو المجتمع سواء أكان فى قصر الملك أم فى دار الوزارة ، وفى حانوت التجارة ، أم فى معمل الصناعة ، لما أكبرَ مناصب الحكومة هذا الاكبارَ ولا احتفلَ بها احتفالَ من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو انه نفث فى رُوعه روحَ الشجاعة النفسية وعوَّده الصبر والجلد فى مواقف الشدة والبلاء لما جزِعَ هذا الجزعَ الفاضح ولا جُنَّ هذا الجنون الذى خَيلَ اليه أن عذاب النزع أهوَنُ من عذاب الهم

الوالد والاستاذ والمجتمع فى مصر عَوْنٌ على الناشئ المتعلم وآفة على عقله وأخلاقه وآدابه

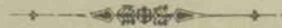
أما الوالد فانه يقول له وهو ذاهب به الى المدرسة ستكون غداً يابنى حاكما كهذا الحاكم ووزيراً كهذا الوزير ، وكلما أراد أن يحثه على الاجتهاد فى طلب العلم ويخوفه عاقبة الخيبة فى الامتحان صور له المستقبلَ المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه ، وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفى فيقول له اذا لم تنجح فى الامتحان فموتك أفضل من حياتك ، وأما الاستاذ فانه يضرب

له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصِب وإجلاله وإنزاله المنزلةَ الأولى بين أعمال المجتمع الانسانى اذ يراه بعينه يتجرعُ مرارةَ الذل ويعانى من كبرياء رؤسائه وقسوةِ المسيطرين عليه عناء شديداً ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف حرصاً على منصبه وإرعاءً عليه . فكأنما يتلقى عنه درساً عملياً موضوعه « إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته لأن المنصبَ كل شئ فى هـذه الحياة » أما المجتمع فانه يحترم الموظف الصغير ، أكثرَ مما يحترم العالم الكبير ، ويَطير الى تهنئته باقبال المنصِب عليه وتعزيته عن إدباره عنه كأن الكوكبَ لا يدور الا فى دائرة المناصب نحوساً وسعوداً ، فاذا رأى الناشئ ذلك أكبرَ الوظيفةَ أيما إكبار ولجَّ به الحرصُ عليها ، واللصوق بها ، وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه أو بعدها عنه ، فاذا وُفِّق اليها لطمَ بأنفه قبة السماء ، وداس بنعله رأس الجوزاء ، وإن يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول ذلك الشاعر الأحمق : فإما الثريا وإما الثرى :

أيها الناشئ : لقد جهل أبوك وغشك أستاذك وخدعك هذا المجتمع الفاسد فكن أحسن حالا منهم واعلمْ أن شرف العلم أكبر من شرف المنصِب وأن المنصِب ما كان شريفاً إلا لأنه حسنة من حسنات العلم وأثر من آثاره ، فان فاتك حظك منه

فلا تَحفِل به فهو أحقر من أن تشتد فى أثره أو تبـذلَ حياتك حزناً عليهِ ، ولا تحسد أرباب المناصب على مناصبهم فانهم يخدعونك بزخرفٍ من القول وظاهرٍ من النعمة وبَهرجٍ من الابتسام ، ووراءَ ذلك لو علمت قلبٌ يقطر دماً وفؤاد يضطرم لوعة وأسى

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب ، ولا تحفِل بعد ذلك بشيء ، فقد ربحت كل شيء



الجمال

الجمال هو التناسبُ بين أجزاء الهيئات المركبةِ سواء أكان ذلك فى الماديات أم فى المعقولات ، وفى الحقائق أم الخيالات

ما كان الوجهُ الجميـل جميلاً الا للتناسب بين أجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلا الا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حباتِ العقد ما افتتنت به الحسناء ، ولولا التناسقُ فى أزهار الروض ما هامت به الشعراء

ليس للتناسب قاعدةٌ مطردةٌ يستطيع الكاتب أن يبينها ، فالتناسب فى المرئيات ، غيره فى المسموعات ، وفى الرسوم غـيره فى الخطوط ، وفى الشؤون العلمية ، غيره فى القصائد الشـعرية ، على أنه لا حاجـة الى بيانه مادامتِ الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح اليه وما لا يلائمها فتنفرِ منه

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنف الصغير فى الوجه الكبير ، والرأسَ الكبيرَ فى الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرَص فى الجسم الاسود ، والخال فى الخد الأبيض ، ويَطربون

لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير الماء ، ويفضلون أنغام النواعير
على أنغام العيدان ، ويُعجَبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق
والبرعى أكثر مما يُعجَبون بشعر أبى الطيب وأبى تمام والبحترى ،
ويضحكون لما يبكى ويبكون مما يضحك ، ويرضون بما يُغضب
ويغضبون مما يرضى

أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة ، وأولئك هم الذين تصدر
عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوّهةً غيرَ متناسبة ولا متلائمة ، لأنهم
لم يدركوا سر الجمال فيَصدرَ عنهم ، ولم تألفْه نفوسهم فيصيرَ غريزة
من غرائزهم

إن رأيتَ شاعراً يبتدئ قصائد التهنئة بالبكاء على الاطلال ،
ويودِع القصائد الرثائية ، النكات الهزلية ، ويتغزل بممدوحهِ ، كما
يتغزل بمعشوقه ، أو متكلماً يقتضب الأحاديث اقتضاباً ويهزل
فى موضع الجد ويجدّ فى موضع الهزل ، أو صحفياً يضع العنوان
الضخمَ للخبر التافه ، ويكتب مقدمةً فى السماء لموضوع فى
الأرض ، أو حاكما يضع الندى فى موضع السيف والسيفَ فى
موضع الندى ، أو ماشياً يتلوّى فى طريقه من رصيف الى رصيف
كأنما يرسم خطاً معرّجا ، أو لابساً فى الشتاء غُلالةَ الصيف وفى
الصيف فروة الشتاء ، فاعلم أن ذوقه مريض وأنه فى حاجة الى معالجة

ذوقه ، كحاجة المجنون الى علاج عقله ، والمريض الى علاج جسمه
كما أنه ليس كلُّ مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كلُّ مريض
يرجى إبلاله ، كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فان
رأيت من تؤمل فى صلاحه خيراً وتجد فى نفسه استعداداً لتقويم
ذوقه فعلاجه أن تَحُفَّه بأنواع الجمال وتدأب على تنبيهه على
متناسباته ومؤتلفاته ، وإن استطعت أن تعلمه فناً من الفنون
الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل فانها المقومات للاذواق ،
والغارسات فى النفوس ملكاتِ الجمال

الكذب

كذب اللسان من فضول كذبِ القلب ، فلا تأمن الكاذب على وُدّ ، ولا تثق منه بعهد ، واهرب من وجه الهربَ كله ، وأخوَف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك الرجل الكاذب

عرّف الحكماء الكذب بأنه مخالفةُ الكلام للواقع ولعلهم جاروا فى هذا التعريف الحقيقة العرفية ولو شاؤا لأضافوا الى كذب الأقوال كذب الأفعال

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال فى تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه ، ولا فرق بين أن يكذب الرجلُ فيقولَ إنى ثقةٌ أمين لا أخون ولا أغدُر فأقرِضنى مالا أؤده اليك ثم لا يؤديه بعد ذلك ، وأن يأتيكَ بسُبحة يهمهم بها فتنطق سُبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء فيخدعَك فى الثانية كما خدعك فى الأولى ، لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعَك ألف مرة قبل أن يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة ، لأنه لا يكتفى بقول الزور

بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من أحواله وأطواره

ليس الكذب شيئاً يستهانُ به فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل فكأنه أصل والرذائل فروع له ، بل هو الرذائلُ نفسُها وانما يأتى فى أشكال مختلفة وتمثل فى صور متنوعة

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما فى قلبه ، والمتكبرُ كاذب لأنه يدّعى لنفسه منزلةً غير منزلته ، والفاسق كاذب لأنه كذب فى دعوى الأيمان ونقضَ ما عاهد الله عليه ، والنمام كاذب لأنه لم يتق الله فى فتنته ، فيتحرى الصدقَ فى نميمته ، والمتملق كاذب لأن ظاهرَه ينفعك وباطنَه يلذعك

لقد هان على الناس أمرُ الكذب حتى انك لتجد الرجل الصادق فتعرضُ على الناس أمرَه وتُطرفهم بحديثه كأنك تَعرضُ عجائب المخلوقات ، وتحدث بخوارق العادات

فويل للرجل الصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة ، وويلٌ له من صديق يخون العهد ، ورفيق يكذب الودّ ، ومستشار غير أمين ، وجاهل يفشى السر ، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه ، وشيخ يدعى الولاية كذباً ، وتاجر يغش فى سلعته ، ويحنث فى أيمانه ، وصحفى يتجر بعقول الأحرار كما يتجر النخاس بالعبيد والأماء ، ويكذبُ على نفسه وعلى الله وعلى الناس فى كل صباح ومساء ،

غرفة الاحزان

كان لى صديق أحبه لفضله وأدبه، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه، فكان يروقنى منظره ويؤنسنى محضره، ولا أبالى بعد ذلك بشئ من نسكه وعبادته، أو فسقه واستهتاره، لأنى ما فكرت قط أن أتلقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق فقد علمتُ من ذلك ما حسبى به وكفى

قضيتُ فى صحبته عهداً طويلاً ما أُنكرُ من أمره ولا ينكرُ من أمرى شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلاً فتراسلنا حيناً ثم انقطعت عنى كتبهُ فرابنى من أمره ما رابنى ثم عدت فجعلت أكبر همى أن أراه فطلبتهُ فى جميع المواطن التى كنت أعرفه فيها فلم أجده، فذهبت الى منزله فحدثنى جيرانه أنه هجره من عهد بعيد وأنهم لا يعرفون أين مذهبه، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، ثم شعرت كأن أولهما يغالب ثانيهما حتى غلبه، فعلمت أن قد فقدتُ الرجل وأنى لن أجد بعد اليوم اليه سبيلا

هنالك ذرفت من الوجد دموعاً لا يذرفها الا من قل نصيبه من الأصدقاء، وأقفر ربعه من الأوفياء، وأصبح غرضاً من أغراض الأيام لا تخطئه سهامها، ولا تُغبه آلامها (١)

بينا أنا عائد الى منزلى فى ليلة من ليالى السرار (٢) إذ دفعنى الجهل بالطريق فى هذا الظلام المدلهم الى زُقاق موحش مهجور يتخيل الناظر اليه فى مثل تلك الساعة التى مررت فيها أنه مسكن الجان، أو مأوى الغيلان. فشعرت كأن بحراً أسود يتدفق بين جبلين شامخين، وكأن أمواجه تقبل بى وتدبر، وتقوم وتقعد، فما توسطتُ لجته حتى سمعت فى منزل من تلك المنازل المهجورة أنةً تتردد فى جوف الليل فأصغيت اليها فتلتها أختها ثم أخواتها فأثر فى نفسى مسمعها تأثيراً شديداً وقلت يا للعجب، كم يكتم هذا الليل فى صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين، وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت، أو الباكى اذا عجزت، فتلمست الطريق الى ذلك المنزل حتى بلغته فطرقت الباب طرقاً خفيفاً فلم يُفتح لى فطرقته أخرى طرقاً شديداً ففتحت لى فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل

(١) أغبه الالم جاءه حيناً بعد حين (٢) السرار آخر ليلة من ليالى الشهر

الذى كان فى يدها فاذا هى فى ثيابها الممزقة ، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها هل عندكم مريض ، فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها وقالت أدرك أبى أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت ، ثم مشت أمامى فتبعتها حتى وصلت الى غرفة ذات باب قصير مسنم فدخلتها فخيل الىّ أنى قد انتقلت من عالم الأحياء الى عالم الأموات ، وأن الغرفة قبر والمريض ميت ، فدنوت منه حتى صرت بجانبه فاذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء فى البرج الخشبى ، فوضعت يدى على جبينه ففتح عينيه وأطال النظر فى وجهى ثم فتح شفتيه قليلا قليلا وقال بصوت خافت « أحمد الله فقد وجدت صديق » فشعرت كأن قلبي يتمشى فى صدرى جزعاً وقلقاً وعلمت أنى قد عثرت بضالتى التى كنت أنشدها وكنت أتمنى الا أعثر بها وهى فى طريق الفناء ، وعلى باب القضاء ، والا يجدد لى مرآها حزناً كان فى قلبي كميناً ، وبين أضالعى دفيناً ، فسألته ما باله وما هذه الحالة التى صار اليها ، وكأن أنسه بى أمد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور فأشار الىّ أنه يحب النهوض فمددت يدى اليه فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص علىّ هذه القصة :

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتى بيتاً يسكن بجانبه

جار لنا من أرباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنحتها على مثلها حسناً وبهاء ، ورونقاً وجمالا ، فألمّ بنفسى من الوجد بها ما لم أستطع معه صبراً ، فما زلت بها أعالجها فتمتنع وأستنزلها فتتعذر وأتأتى الى قلبها بكل الوسائل فلا أصل اليه حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه اليها ، فسكن جماحها ، وأسلس قيادها ، فسلبتها قلبها وشرفها فى يوم واحد ، وما هى إلا أيام قلائل حتى عرفت أن جنيناً يضطرب فى أحشائها فأسقط فى يدى وطفقت أرتئى بين أن أفى لها بوعدها ، أو أقطع حبل ودها ، فآثرت أخراهما على أولاهما وهجرت ذلك المنزل الى المنزل الذى كنت تزورنى فيه أيها الصديق ، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال وفى ذات يوم جاءنى منها مع البريد هذا الكتاب ومد يده تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفراً فقرأت فيه ما يأتى :

لو كان بى أن أكتب اليك لأجدد عهداً دارساً أو وداً قديماً ما كتبت سطراً ، ولا خططت حرفاً ، لأنى لا أعتقد أن عهداً مثل عهدك الغادر ، وودًا مثل ودك الكاذب ، يستحق أن أحفل به فأذكره ، أو آسف عليه فأطلب تجديده

إنك عرفتَ حين تركتنى أن بين جنبىَّ ناراً تضطرم ، وجنيناً يضطرب ، تلك للأسف على الماضى ، وذاك للخوف من المستقبل ، فلم تُبلْ بذلك وفررتَ منى حتى لا تُحمّلَ نفسكَ مؤونة النظر الى شقاء أنت صاحبه ، ولا تكلف يَدك مسحَ دموع أنت مرسلها ، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصورَ أنك رجل شريف ، لا بل لا أستطيع أن أتصور أنك انسان ، لأنك ماتركت خلة من الخلال المتفرقة فى نفوس العجماوات والوحوش الضارية الا جمعتَها فى نفسك وظهرتَ بها جميعَها فى مَظهر واحد

كذبتَ علىَّ فى دعواك أنك تحبنى وما كنت تحب الا نفسك ، وكل ما فى الأمر أنك رأيتنى السبيلَ الى إرضاء نفسك فمررتَ بى فى طريقك اليها ، ولولا ذلك ما طرقتَ لى بابا ، ولا رأيت لى وجهاً

خنتنى إذ عاهدتنى على الزواج فأخلفتَ وعدك ذَهابا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمةُ ولا تلك السقطة الا صورة نفسك ، وصنعة يدك ، ولولاك ما كنتُ مجرمة ولا ساقطة ، فقد دفعتك جهدى حتى عييتُ بامرك فسقطتُ بين يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدى الجبار الكبير سرقتَ عفتى ، فاصبحتُ ذليلة النفس حزينة القلب أستثقل

الحياة وأستبطىء الأجل ، وأى لذة فى العيش لامرأة لاتستطيع أن تكون زوجة لرجل ولا أماً لولد بل لاتستطيع أن تعيش فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية الا وهى خافضة رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدها على كفها ، ترتعد أوصالها ، وتذوب أحشاؤها ، خوفا من عبث العابثين ، وتهكم المتهكمين

سلبتنى راحتى لانى أصبحتُ مضطرة بعد تلك الحادثة الى الفرار من ذلك القصر الذى كنت متمتعة فيه بعشرة أبى وأمى تاركة ورائى تلك النعمة الواسعةَ وذلك العيش الرغَد الى منزل حقير فى حى مهجور لايعرفه أحد ولا يطرق بابه طارق لأقضى فيه الصُبابة الباقية من أيام حياتى

قتلتَ أمى وأبى فقد علمتُ أنهما ماتا وما أحسَب موتهما إلا حزنا لفقدى ، ويأسا من لقائى

قتلتنى لان ذلك العيش المر الذى شربته من كأسك ، وذلك الهم الطويل الذى عالجته بسببك ، قد بلغا مبلغهما من جسمى ونفسى فأصبحتُ فى فراش الموت كالذُبالة المحترقة ، وأحسب أن الله قد صنع لى وأجاب دعائى وأراد أن ينقلنى من دار الموت والشقاء ، الى دار الحياة والهناء

فانت كاذب خادع ، ولص قاتل ، ولا أحسَبُ أن الله تاركك

بدون أن يأخذ لى بحق منك

ما كتبت اليك هذا الكتاب لاجدّد بك عهداً ، أو لأخطب اليك وُداً ، فقد عرفتَ مكانك من نفسى ، على أننى أصبحتُ على باب القبر وفى موقف وَداعٍ هذه الحياة خيرِها وشرها ، سعادتها وشقائها ، وانما كتبتُ اليك لأن لك عندى وديعة وهى فتاتك ، فان كان الذى ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة فأَقبل اليها وخذها اليك حتى لايدركها من الشقاء ما أدرك أمَّها من قبلها

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت اليه فرأيت مدامعه تحدر من مقلتيه فسألته ماذا تم بعد ذلك ، قال إنى ماقرأت هذا الكتاب حتى أحسست بِرعدة تمشى فى أضالعى وخيل لى أن صدرى يحاول أن ينشق عن قلبي حزنا وجزعاً فأسرعت الى منزلها وهو هذا المنزل الذى ترانى فيه الآن فرأيتها فى هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لاحَراك بها ، ورأيت فتاتها الى جانبها تبكى بكاء مراً فصعقتُ لهول مارأيت وتمثلت لى جرائمى فى غشيتى كأنما هى وحوش ضارية ، وأساودُ ملتفة ، هذا يُنشب أظافره وذاك يحدد أنيابه ، فما أفقتُ حتى عاهدت الله ألا أبرحَ هذه

الغرفة التى سميتها « غرفة الأحزان » حتى أعيشَ فيها عيشَها ثم أموت موتها

وها أنذا أموت اليوم راضيا مسروراً فقد حدثنى قلبي أن الله قد غفر لى سيئاتى بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى انعقد لسانه واصفرّ وجهه وسقط على فراشه فأسلمَ الروح وهو يقول : ابنتى ياصديق :

فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها مايجب على الصديق لصديقه ثم كتبت الى أصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته وما رُئى مثل اليوم أكثر باكية وباكياً

ولما حثونا الترب فوق ضريحه   جزعنا ولكن أى ساعةِ مَجزع

ويعلم الله انى لأكتب قصته ولا أملك نفسى من البكاء والنشيج ولا أنسى ماحييت نداءه لى وهو يودع نسمات الحياة وقولَه « ابنتى ياصديق »

فيا أقوياء القلوب من الرجال ، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء ، إنكم لاتعلمون حين تخدعونهنّ عن شرفهنّ وعفتهنّ أى قلب تَفجَعون ، وأى دم تسفكون

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلُّهم شرفاء

ما من عامل يعمل فى هـذه الحياة الا وهو يطلب فى عمله الشرفَ الذى يتصوره أو يصوّره له الناسُ ، إلا انهُ تارة يخطئُ مكانَه وتارة يصيب

يَقتل القاتل وفى اعتقاده أن الشرف فى أن ينتقم لنفسه أو عِرضه باراقة هذه الكميّة من الدم ، ولا يبالى أن يسميَه القانون بعد ذلك مجرما لأن البيئة التى يعيش فيها لاتوافق على هذه التسمية وهى فى نظره أعدل من القانون حكماً ، وأصدق قولا

يَفسُق الفاسق وفى اعتقاده أنه قد نفضَ عن نفسه بعَمله هـذا غُبار الخمول والبله الذى يظلّل الاعفاء والمستقيمين ، وأنه استطاع أن يعمل عملاً لايُقْدم عليه الا كل ذى حذق وبراعة وشجاعة وإقدام

يَسرِق السارق ويزوّر المزوّر ويخون الخائن وفى اعتقاد كل منهم أن الشرف كلَّ الشرف فى المال وإن كان السبيل اليه دنيئاً وسافلا ،

وأن للذهب رنيناً تَخفِتُ بجانب صوته أصوات المعترضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لايُسمع بجانبه صوتٌ سواه

هكذا يتصور الادنياء أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه ، وما أفسد عليهم تصورهم الا الذين أحاطوا بهم من سجرائهم وخلطائهم وذوى جامعتهم ، أولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يَغسل الدمَ بالدم فيعظمونه ، وينعوْن على الرجل المستقيم العفيف بلاهتَه وخموله حتى يفجر ويُستهتر فيبخبخون له ويقرظونه ، ويكرمون صاحب الذهب ولو أن كل دينار من دنانيره محجم من الدم ، وأولئك الذين يسمون الفقير سافلا ، وطيب القلب مغفلا ، وطاهر السريرة بليداً ، والحليم عاجزاً

لاتعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس فى أدمغتهم صور الحقـائق حتى تلبسَ فى نظرهم ثوبا غير ثوبهـا ، وتتراءى فى لون غير لونها ، فان بين الخاصة الذين نعتدّ بعقولهم ونمتـدح أفهامهم ومداركهم من لايفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى انه ليكاد يفخر بالاولى ويستحي من الأخرى

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية فى حرب لايدافع فيها عن فضيلة ولا يؤيد بها حقا من الحقوق الشرعية ، ولولا فساد التصور ماوضع المؤرخون

اسم ذلك السفاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والاطباء خَدَمةِ الانسانية وحَمَلةِ عرشها وأصحاب الأيادي البيضاء عليها فى سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصور ما جلس القاضى المرتشى فوق كرسى القضاء يفتل شاربيه ، ويصعّر خديْه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء الى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل ، ولا ذنب لهُ الا أنهُ جاع وضاقت بهِ مذاهب العيش فسرِق درهما ، ولا توهَّم وهو اللص الكبير ، أنه أشرفُ من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معاً فى موقف واحد أمام قاض عادل يحكم بادانة الأول لانه سرِق مختاراً ليرفه عيشه ، وبراءةِ الثانى لانه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس ويقوم اعوجاجها فليهذب تصوراتهم ، وليقوّم أفهامهم ، يُوافِه مايريد من التهذيب والتقويم

ليس من الرأى أن يشير المعلمُ على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الانسانى ميزانا يزن به أعماله ، أو مرآة يرى فيها حسناتِه وسيئاته ، فالمجتمع الانسانى مصاب بالسقم فى فهمه ، والاضطراب فى تصوره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقة بوزنه وتقديره

ليس من الرأى أن يرشد المعلمُ المتعلمَ الى أن يطلب فى

حياته الشرف الاعتبارى ، فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو فى الحقيقة كذلك

ألا تراهم يَعُدون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يحلى بها صدره ، وربما كانوا يعلمون أنهُ ابتاعها بماله كما تبتاع المرأة من الصائغ حِليتها

لا شرف الا الشرف الحقيق وهو الذى يناله الانسان يبذل حياته أو ماله أو راحته فى خدمة المجتمع البشرى جميعه أو خدمة نوع من أنواعه

فالعالم شريف لأنه يجلو صدأ العقل الانسانى ويصقُل مرآته ، والمجاهد فى سبيل الدفاع عن وطنه شريف لأنه يحمى مواطنيه غائلة الاعداء ، ويقيهم عادية الفناء ، والمحسن الذى يضع الاحسان فى موضعه شريف لأنهُ يأخذ بأيدى الضعفاء ، ويحيى أنفس البؤساء ، والحاكم العادل شريف لأنه رسول العناية الالهية الى المظلومين يمنعهم أن يبغىَ عليهم الظالمون ، وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته فى عشرائه وخلطائه ، ويُلقى عليهم بالقدوة الصالحة أفضلَ درس فى الأخلاق والآداب ، والصانع والزارع والتاجر أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا

المجتمع البشرى وهم الذين يحتملون ما يحتمـلون من المؤونة والمشقة فى سبيله حذراً عليه من التّهافت والسقوط

فان رأيت فى نفسك أيها القارىء أنك واحـد من هؤلاء فاعلم أنك شريف والا فاسلك طريقهم جهدَك ، فان لم تبلغ غايته فأخذُ القليل خير من ترك الكثير ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فابْكِ على عقلك البواكى

الحب والزواج

قرأت فى بعض المجلات قصـة قصها أحـد الكتاب وموضوعها أن كاتبها غاب عن بيروتَ بضعةَ أعوام ثم عاد اليها بعـد ذلك فزار صديقاً له من أسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوى الأخـلاق الكريمة والأنفس العاليـة فوجـده حزيناً كئيباً على غير ما يَعهد من حاله قبـل ذلك ، فاستفهم منه عن دخيلة أمره فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجُلّها ويفدّيها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعَه ولم ترعَ عهدَه وأنهـا فرت منه الى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب ، فاجتهد الكاتب أن يلقى تلك الفتاة ليعرِف منها سرّ فِرارها من بيت زوجها فلقيها فى منزل عشيقها فاعتذرت اليـه عن فَعلتها بأنها لا تحب زوجها لأنه فى الأربعين من عمره وهى لم تبلغ العشرين ، وقالت إنها جرت فى ذلك على حكم الشرائع الطبيعيةِ وان خالفت الشرائع الدينية ، لأن الأولى عادلة والثانية ظالمة ، وقالت إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو فى الحقيقة طهارة وأمانة ، لأن أساسه الحب ، وكل

ما كان أساسه الحب فهو طاهر شريف ، وإن كان فى أعين الناس عيباً وعاراً ، وقالت ما الخيانة ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع الا أن تعاشرَ المرأةُ زوجاً تكرهه معاشرتَها من تحبه فيفترشها الأول كما يفترشها الثانى لأنها لا تكون فى حكم العقل ولا فى نظر العدل زوجاً له ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته ، وقالت لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة فى هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية وأنها ربما تَعُد المرأة فى بيت زوجها زانية ، وفى بيت عشيقها طاهرة ، إذا كانت تكره الأول وتحب الثانى

هذا ملخص القصة على طولها وأحسبُها قصةً موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأى من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب ، لان الكاتب أعذرَ[١] تلك الفتاةَ فيما فعلت واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها[٢] وحكم لها عليه

وسواء أكانت القصةُ حقيقية أم خيالية فالحقَّ أقول إن الكاتب أخطأ فى وضعها وما كنت أحسبُ الا أن مذهب

(١) أعذرها قبل عذرها (٢) أعداها عليه انتصف لها منه

الإباحية[١] قد مضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمةِ حتى قرأتُ هـذه القصة منشورة باللغة العربية بين الأمة العربية فنالنى من الهمّ والحزَن ما الله عالم به

قرأنا ما كتب الكاتبون فى سبيل المرأة الساقطة وهى التى هفتْ فى حياتها هفوة دفعها اليها دافعُ خداعٍ أو سائق حاجة ثم ثاب اليها رشدها وهداها فقلنا لا بأس بغيرتهم على ذنب جسّمته العادة وألبسته ثوبا أوسع من ثوبه ، ولا بأس برحمتهم فتاةً مذنبةً تحاول الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبها ، ويأبى المجتمع البشرى الا أن يَسدّ دونها أبواب السماء المفتّحةَ للقاتلين والمجرمين

فأما وقد وصل الحد الى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج من طاعته كلما دعاها الى ذلك داعٍ من الهوى فهـذا مالا يطاقُ احتمالهُ ، ولا يستطاع قبوله

إن فتاة الروايةِ لم تهفُ فى جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لانهـا مقيمة فى منزل عشيقها من زمن بعيد وقد عَقدت عزمها على البقاء فيه مادامت روحها باقية فى جسدها ، ولم يَسقُها الى ذلك سائق شهوة بشرية إن صح أن تكون الشهوة البشرية

(١) مذهب قديم كان يستحل اصحابه كل شيء رايا واعتقادا

عذراً يدفع مثلها الى مثل ما صنعت، لأنها فرت من فراش زوجها، لا من وحشة خلوتها، ولا سائقُ جوع، لانها كانت أرق النساء عيشاً، وأروحهنَّ بالا، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب فى أعطاف العيش البارد لم ترَ مثلها من قبل ولا من بعد، إذن فهى امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً فى وضع كلمة الفساد فى معاجمهم لانها لا مسمى لها فى هذا العالم عالم العفة والطهارة والخير والصلاح، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاةَ المواخير لانها لم تترك وراءها زوجا معذبا ناقماً منكوبا ولم تكن راضية تمام الرضى عن نفسها ولا مغتبطة بعيشها فتبلغَ فى حالها مبلغ « ورده الهانى »

كل الازواج ذلك الرجل إلا قليلا، فاذا جاز لكل زوجة أن تفرَّ من زوجها الى عشيقها كلما وقع فى نفسها الضجرُ من معاشرة الاول وبرقت لها بارقة الانس من بين ثنايا الثانى فويل لجميع الرجال من جميع النساء، وعلى النظام البيتى والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام

أيها الكاتب: ليس فى استطاعتى ولا فى استطاعتك ولا

فى استطاعة أحد من الناس أن يقف دورةَ الفلك ويصد كرَّ الغداة ومر العشى حتى لا يبلغَ الاربعين من عمره فتراه زوجته غير أهل لمعاشرتها اذا علمت أن فى الناس من هو أصغر منه سناً وأكثر رشاقة وأنضر شبابا

إن الضجر والسآمة من الشىء المتكرر المتردد طبيعةٌ من طبائع النوع الانسانى فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه وعلم أن نظام الاسرة لا يتم الا اذا بُنى على رجل وامرأة تدوم عشرتهما، ويطول ائتلافهما، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب، وأمرَ الزوجين أن يعتبرا هذا الرّباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينهما وبين رجوعهما الى طبيعتهما وذَهابهما فى أمر الزوجية مذهبَهما فى المطاعم والمشارب من حيث الميلُ لكل جديد، والشغفُ بكل غريب

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلا من الزواج فقد خالف إرادة الله وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية

أى امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدث نفسها بالرغبة فى استبداله بأجملَ منه، وأى رجل متزوج بأجمل النساء

لا يتمنى أن يكون فى منزله أجملُ منها لولا هذا الرباط المقدس رباطُ الزوجية ، فهو الذى يعالج أمثال هذه الامانى وتلك الهواجس وهو الذى يعيد الى النفوس النزّاعة سكونها وقرارها

لا بأس أن يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه فى المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهوى هو قاعدة الزواج يحيا بحياته ، ويموت بموته ، فالقلوب متقلبة والاهواء نزّاعة ، بل بمعنى أن يكون كلٌّ منهما لصاحبه صديقا ، أكثرَ منه عشيقا ، فالصداقة ينمو بالمودة غرسُها ، ويمتدّ ظلها ، أما الحب فظل يتنقل ، وحال تتحول

الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشىء فى حياتى عجبى لهؤلاء الناس الذين يَعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الاسلام كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الاسلام ويضن به فوق ضنه بنفسه وماله أن يعتقد الوحدانية ، ويصدّق الرسالة المحمدية ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويحجَّ البيت مااستطاع اليه سبيلا

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحى متمسك بيسوعيته أن الاسلام دين موضوع ابتدعه رجل عربى بدوى أمى ما قرأ فى حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدنية الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران

هذا مَبلغ معتقده فيه فكيف يرى نفسه بين يديه أصغرَ من أن يناقشه ويناظره ويخطئه فيما وضعه للناس من الشرائع والأحكام ، وكيف يسمح لنفسه أن ينظر اليه بالعين التى ينظر بها المسلم اليه من حيث كونه نبياً مرسلاً موحىً اليه من عند الله

تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
أما ماتقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من وصف الدين
الاسلامى بصفات جميلة أو مدح آرائه وأحكامه فهى مكتوبة
بأقلام أقوام مؤرخين أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق فلم
يعبث التعصب الدينى بكتاباتهم ، ولا تمشت الروحُ المسيحية فى
أقلامهم ، ولا ريب فى أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فان
من قرأ كتابه « مصر الحديثة » تخيل أنه يسمع صوت راهب
فى صومعته قد لبس قَلَنسوته ومسوحه وعلق صليبه فى زنّاره

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يندهش أو
يذهب به العَجب كلَّ مَذهب إذا رأى فى كتاب اللورد كرومر
مايراه كل يوم فى كتب المبشرين الانجيليين وجرائدهم ومجلاتهم
من الطعن على الاسلام وعقائده وشرائعه

بلغ التعصبُ الدينى بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن
فى القرآن بعد اعترافهم بانه كتاب عربى نطق به على حسب
معتقدهم رجلٌ هو فى نظرهم أفصح العرب ، وليست مسئلةُ
الاعراب واللحن مسئلةً عقلية يكون للبحث العقلى فيه مجال ،
وانما الاعراب مانطق به العرب واللحن ما لم ينطقوا به ، فلو أنهم
اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلا لكان رفعُ الأول

ونصب الثانى لحنا ، ولكنّ جهلةَ المبشرين لم يدركوا شيئاً من
هذه المسلمات واستدلوا على وجود اللحن في القرآن بقواعد النحو
التى مادوّنها علماؤه الا بعد أن نظروا فى كلام العرب وتتبعوا
تراكيبه وأساليبه ، وأكبرُ ما اعتمدوا عليه فى ذلك هو القرآن
المجيد ، فالقرآن حجة على النحاة وليست النحاة حجةً على القرآن ،
فاذا وُجد فى بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي
ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصّرون فى التتبع
والاستقراء ، على أنهم ما قصروا فى شىء من ذلك وما تركوا
كثيراً ولا قليلاً ولا نادراً ولا شاذاً الا دونوه فى كتبهم ، فما فى
القرآن لحن ، ولا النحاة مقصرون ، ولكنّ المبشرين جاهلون ،
فاذا كان التعصب الدينى الأعمى أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة
المضحكةِ فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبه بهم هذا
الطعن على الاسلام فى نظاماته وأحكامه

إنا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على
الاسلام فى معتقدهم ولكننا نحب منهم الاّ ينازعونا فى معتقدنا
وأن يعطونا من الحرية فى ذلك ما أعطوه لانفسهم

يقول اللورد كرومر إن الدين الاسلامى دين جامد لا يتسع
صدره للمدنية الانسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعى ويقول إن

ما لا يصلح له الدين الاسلامى يصلح له الدين المسيحى ويستدل
على الاسلام بالمسلمين ، وعلى المسيحية بالمسيحيين

فى أى عصر أيها الفيلسوف التاريخى كانت الديانة المسيحية
مَبعثَ العلم والعرفان ، ومطلع أشعة المدنية والعمران ، أفى العصر
الذى كانت تدور فيه رحى الحروب الدموية بين الارثوذكس
والكاثوليك تارة وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى
بصورة وحشية فظيعة اسودّ لها لباس الانسانية وبكت الارض
منها والسماء ، أم فى العصر الذى كانت ارادة المسيحى فيه صورة
من إرادة الكاهن الجاهل فلا يعلم الا ما يعلمه اياه ، ولا يفهم
الا ما يلقيه اليه ، فما كان يترك له الحرية حتى فى الحكم على نفسه
بكفر أو ايمان ، وبهيمية أو إنسانية ، فيكاد يتخيل فى نفسه أن
له ذنَباً متحركا وخيشوما طويلاً وأنه يمشى على أربع إذا قال له
الكاهن أنت كلب أو قال له إنك لست بانسان ، أم فى
العصر الذى كان يعتقد فيه المسيحى أن دخول الجمل فى سَم الخياط
أقرب من دخول الغنىّ فى ملكوت السموات ، أم فى العصر
الذى كان يحرّم فيه الكاهن الأعظم على المسيحى أن ينظر فى
كتابٍ غير الكتاب المقدس وأن يتلقى علماً فى مدرسة غير
مدرسة الكنيسة ، أم فى العصر الذى ظهرت فيه النجمةُ ذات

الذنَب فذُعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض
الشكوى فطردها من الجو فولت الادبار ، أم فى العصر الذى
أَهدى فيه الرشيد العباسى الساعة الدقاقةَ الى الملك شارلمان فلما
رآها الشعبُ المسيحى وسمع صوتها فرّ من وجهها ظناً منه أنها
تشتمل على الجن والشياطين ، أم فى العصر الذى أُلفت فيه محكمة
التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت فى وقت قصير على
ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرقاً أو صلبا ، أم فى العصر الذى
أحرق فيه الشعب المسيحى فتاة حسناء بعد ما جرّد لحمها عن
عظمها لانها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة

هذا الذى نعلمه أيها الفيلسوف التاريخى من تاريخ العلم
والعرفان والمدنية والعمران فى العصور المسيحية ، ولا نعلم أكانت
تلك المسيحية التى كان هذا شأنها وهذا مبلغَ سعة صدرها صحيحةً
فى نظرك أم باطلة ، وانما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية
وإن لم نقف على حقيقتها ، كما فعلتَ أنت فى استدلالك بالمسلمين
على الإسلام وان لم تعرف حقيقته وجوهره ، على أن استدلالنا
صحيح واستدلالك باطل ، فان المدنيةَ الحديثة ما دخلت أوربا الا
بعد أن زَحزحت المسيحية منها لتحل محلَّها كالماء الذى لا يدخل
الكأس الا بعد أن يطرد منه الهواء لانه لا يتسع لهما ، ولا يجمع

بينهما ، فان كان قد بقى أثر من آثار المسيحية اليومَ فى أكواخ
بعض العامة فى أوربا فما بقى الا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت
بالابقاء عليه ، لا باعتبار أنه دين مقدس يجب إجلاله واعظامه ،
بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التى تستعين الحكومات
بها وبقوتها على كسر شِرَّة النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين
المسيحية والتمدين الغربى من حيث يُستدل به عليها أو باعتبار أنه أثر
من آثارها ، ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقةٌ
ما افترقت عنه نحو تسعة عشر قرنا كانت فيها أوربا وراء ما يتصوره
العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفعتها مسيحيتها ، ولا
أغنى عنها « كهنوتها » ولا « اكليروسها »

أما المدنية الاسلاميةُ فانها طلعت مع الاسلام فى سماء واحدة
من مَطلع واحد فى وقت واحد ، ثم سارت الى جانبه كتفاً
لكتف ما يُنكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئاً ،
فالمتعبد فى مسجده ، والفقيه فى درسه ، والمعرّب فى مكتبته ،
والرياضى فى مدرسته ، والكيمائى فى معمله ، والقاضى فى محكمته ،
والخطيب فى مَحفِله ، والفلكى أمام إسطرلابه ، والكاتب بين
محابره وأوراقه ، إخوة متصافون ، وأصدقاء متحابون ، لا يختصمون

ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يَبغى أحد منهم
على أحد

أيها الفيلسوف التاريخى : إن كان لا بد من الاستدلال بالأثر
على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثرٌ من آثار الاسلام بالأمس
والانحطاطُ الاسلامى اليومَ ضربة من ضرَبات المسيحية الأولى ،
واليك البيان

جاء الاسلام يحمل للنوع البشرى جميع ما يحتاج اليه فى معاده
ومعاشه ، ودنياه وآخرته ، وما يفيده منفرداً ، وما ينفعه مجتمعاً
هذب عقيدته بعد ما أفسدها الشرك بالله والاسفاف الى عبادة
التماثيل والاوثان وإحناء الرؤس بين أيدى رؤساء الاديان وأرشده
الى الايمان بربوبية إله واحد لا يشرك به شيئاً ، ثم أرشده الى
تسريح عقله ونظره فى ملكوت السموات والارض ليقف على
حقائق الكون وطبائعه ، وليزداد إيماناً بوجود الاله وقدرته وكمال
تدبيره ، وليكون اقتناعه بذلك اقتناعا نفسياً قلبياً فلا يكون آلة
صماء ، فى يد الاهواء ، تفعل به ما تشاء ، ثم أرشده الى مواقفَ
تذكره بربه ، وتنبههُ من غفلته ، وتطرد الشرور والخواطر السيئة
عن نفسه كلما ابتغت اليها سبيلا وهى مواقف العبادات ، ثم أطلق
لهُ الحريةَ فى القول والعمل ولم يمنعه الا من الشرك بالله والاضرار

بالناس، وعرَّفه قيمة نفسه بعد ما كان يجهلها وعلَّمه أن الإنسانية لافرق بين فقيرها وغنيها، ووضيعها ورفيعها، وضعيفها وقويها، وأن المِلك والسُّوقة والشريف الهاشمى، والعبد الزنجى، أمامَ الله والحقّ سواء، وأن الامرَ والنهى والتحليلَ والتحريم والنفعَ والضرّ والثوابَ والعقاب والرحمة والغفران بيدِ الله وحده لا ينازعه فيها منازع، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم نظر فى أخلاقه فأرشده الى محاسنها، وحال بينه وبين رذائلها، حتى علمه آداب الأكل والشرب والنوم والمشى والجلوس والكلام والسلام، ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يَبر الابنُ أباه، ويرحمُ الوالد ولده، ويَعطف الأخ على أخيه، ويكرم الزوج زوجته، وتطيع الزوجة زوجها، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوى الرحم، ثم نظر فى شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاةَ التى لو جُمعت ووضعت فى مصارفها لما كان فى الدنيا بائس ولا فقير، وندبه الى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء، وعطف الاغنياء على الفقراء، ثم شرع له شرائعَ للمعاملة الدنيوية ووضع له قوانينَ البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والاجارة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ليعرفَ كلُّ انسان حقه فلاَ يَغبن أحد أحداً،

ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يَبغى بعضه على بعض بشتم أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع فى فتنة أو خروج على أمير أو سلطان، ثم نظر فى شؤونه السياسيةِ فقرر الخلافةَ وشروطها، والقضاء وصفاتِه، والإمارة وحدودها، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم فى الدين البعيدين عنهم، والنازحين اليهم، وذكر مواطن القتال معهم، ومواضع المسالمة لهم

وجملة القول أن الدين الإسلامى ماغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الانسان يمشى فى مَيْدان هذه الحياة خطوةً من مهده الى لحده الا مدّ يده اليه وأنار له مواقع أقدامه وأرشده الى سواء السبيل

طلعت هذه الشمس المشرقةُ فى سماء بلاد العرب فملأت الكون نوراً واشراقاً واختلف الناس فى شأنها ما بين معترف بها ومنكر وجودها، ولكنهم كانوا جميعاً سواء فى الانتفاع بنورها، والاستنارة بضيائها، على تفاوتٍ فى تلك الاستنارة، وتنوّع فى ذلك الانتفاع

طلعت هذه الشمس المشرقةُ فتمشت أشعتها البيضاءُ الى أوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايتاليا وفرنسا فأبصرها عدد

قليل من أذكياء الغربيين فانتبهوا من رقدتهم ، واستيقظوا من سُباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الاسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة مالفتَ نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربى الخاملِ الضعيف والمجتمع الشرقى اليقظ النابه ، فقالوا أيمكن أن يعيش الانسان على ظهر هذه المسكونة حراً لا يستعبده مالِك ولا يسترقُّه كاهن ، أيمكن أن يبيت الانسان ليلة واحدة فى حياته هادئاً فى مضجعه مطمئناً فى رقدته لا يروعه دولاب العذاب ولا سيف الجلاد ، أيمكن أن تملك النفس حريتها فى النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ، أيمكن أن يطلع فجر المدنية الاسلامية على هذا المجتمع الغربى فيمحو ظلمته التى طال عهدنا بها حتى عشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً

كانت هذه الخواطر المترددة فى عقول أولئك الاذكياء هى الخطوة الأولى التي مشتها أوربا فى طريق المدنية والعمران بفضل الاسلام وشرائعه التى عرفها هؤلاء الافرادُ من مخالطة المسلمين فى أوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم أخذوا يعلمونها النـاسَ سراً ويبثونها فى نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ويلقون فى سبيل نشرها عناء شديداً ، واستمر هذا النزاع بين

العلم والجهل قروناً عديدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية فكانت هى القضاء الأخير على الوحشية السالفة ، والهمجية القديمة

أيها الفيلسوف التاريخى : إنك لابد تعلم ذلك حق العلم لانه أقل مايجب على المؤرخ أن يعلمه كما تعلم أن المدنية الاسلامية اذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها ، ولكن التعصب الدينى قد بلغ من نفسك مبلغه فما كفاك أن أنكرتَ فضلَ صاحبِ الفضل عليك حتى أنكرت عليه فضله على نفسه

لاحاجة بى الى أن أشرح لك المدنيةَ الاسلاميةَ أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم فى الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والاخلاق والعمران أو اعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها فى الشرق والغرب أو أصف لك مدنَها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناءها ، وعزتها وسطوتها ، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول

غير أنى لاأُنكر عليك ما لحق بالمسلمين فى هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور ، وما أصاب جامعتهم من الوهن

والانحلال ، ولكن ليس السببُ فى ذلك الاسلامَ كما تتوهم بل المسيحية التى سرت عدواها اليهم على أيدى قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباسَ الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء ، وأمرائه الجهلاء ، فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين حتى أفسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدَهم وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان

كل مانراه اليوم بين المسلمين من الخلط فى عقيدة القضاء والقدر وعقيدةِ التوكل وتشييد الاضرحة وتجصيص القبور وتزيينها والترامى على أعتابها والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها وإسناد النفع والضرر الى رؤساء الدين وأمثال ذلك أثرٌ من آثار المسيحية الاولى وليس من الاسلام فى شيء

أيها الفيلسوف التاريخى : لاتقل إننا متعصبون تعصباً دينيًا فانك قد أسأت الينا والى ديننا فلم نرَ بداً من الذبِّ عنا وعنه بما نعلم أنه حق وصواب ، على أنه لاعار علينا فيما تقول ،

وهل التعصب الدينى الاّ اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذودِ عن أنفسهم ، والدفاع عن جامعتهم ، وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله

إن كان رفضاً حبُّ آل محمد
فليشهد الثقلان أنى رافضى

أهناء أم عزاء

فارقَ مصر على أثر الدستور العثمانى كثير من فضلاء السوريين بعد ما عمّروا هذه البلادَ بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروسَ العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية . يأخذون من كمال الاولى ليُتمموا ما نقص من الاخرى ، وبعد ما علّموا المصرى كيفَ ينشط للعمل وكيف يجِد ويجتهد فى سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد فى معركة الحياة

قضوا بيننا تلك البرهةَ من الزمان يُحسنون الينا فنسىء اليهم ويَعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء ، وأخرى ثقلاء ، كانما كنا نحسَبُ أنهم قوم من شُذّاذ الآفاق أو نفاياتِ الامم جاءوا الينا يُصادروننا فى أرزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو أنصفناهم لعرَفناهم وعرَفنا أن أكثرهم من بيوتاتِ المجد والشرف وانما ضاقتْ بهم حكومة الاستبداد ذرعاً وكذلك شأنُ كل حكومة

مستبدةٍ مع أحرار النفوس وأُباةِ الضيم فأحرجت صدورَهم ، وضيقتْ عليهم مذاهبَهم ، ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً يَنعيهم ، ومجداً يَبكى عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، وأساتذة كباراً ، فما أحسنَّا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتَهم

وبعد فقد مضى ذلك الزمن بخيره أو شره وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خَفَقَت أفئدتنا مخافة أن يلحقَ باقيهم بماضيهم فلا نعلمُ أنشكر للدستور أن فرّج عنهم كربتهم ، وأمّنهم على أنفسهم ، وردهم الى أوطانهم ، أم ننقمُ منه أن كان سبباً فى حِرماننا منهم بعد أُنسنا بهم ، واغتباطنا بحسن عشرتهم ، وجميل مودتهم ، ولا ندرى هل نحن بين يدى هذا النظام العثمانى الجديد فى هناء أم فى عزاء

فيأيها القوم المودِّعون ، والكرام الكاتبون

اذكرونا مثل ذِكرانا لكم ربَّ ذكرَي قرّبت من نزحا
واذكروا صباً اذا غنى بكم شربَ الدمع وعافَ القدحا

الزوجتان

حدَّث أحد الأصدقاء قال : سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ، ولا أكاذيب القصاصين

أويْت الى مضجَعى فى ليلة من ليالى الشتاء حالكةِ الجلباب ، غُدافيةِ الاهاب ، فما استقبلتُ أول طليعة من طلائع النوم حتى قُرِع باب غرفتى فتسمَّعتُ فاذا الخادم تقول : إن امرأة سيئة الحال بَذَّة الثياب فى زِى المتسولات تُلح فى طلب مقابلتك وتقول إن لها عندك شأناً ، فقلت فى نفسى لاشأن لى مع امرأة وربما كانت ذاتَ حاجة وكانت حاجتها إلىَّ أكثر من حاجتى الى النوم ، على أن النوم لايفوتنى ، فليل الشتاء ، أطول من يوم القضاء ، فارتديت ردائى ونزلت فاذا فتاةٌ فى مُلاءة بالية وبرقع خَلَق يَنُمّ بجمالها كما ينُمّ السحاب المتقطع بضوء الشمس ، واذا هى تُرعَد وتضطرب وتقول بصوت شجى : أما فى الناس أخو همة ومُروءة يُعين على الدهر الغادر ويطفىء هذه الجُذوةَ التى تتأجج بين أضالعى بقطرة واحدة من الرحمة ، فقلت من أنتِ

يرحمك الله ، قالت أنا فلانة زوج فلان ، فدهشت وغَصِصتُ بريقى حتى ما أجد بِلّة أحرك بها لسانى لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، وقلت يالَلعجب ، زوجةُ فلان علَى عظمه وعظمها ، وجلاله وجلالها ، تخرج فى مثل هذه الساعة فى مثل هذه الملابس ، فسألتُها ماشأنكِ ياسيدتى ومِمَّ تبكين ، قالت لاتحدث نفسك بريبة ولا تذهبْ بك الظنون مذاهبَها فوالله ماجئت اليك تحت حجاب الليل الا وأنت أوثق الناس عندى ، وأرفعهم فى عينى ، ولولا شدةٌ أقلقت مضجَعى وفرقتْ ما بين جفنىَّ والكرى ماخضت سواد الليل فى مثل هذه الساعة ولا حملت فى سبيلى اليك ما حملت ، قلت عهدى بسيدتى رخيةَ البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عَذْب الاخلاق كريم السجايا لايؤثر هوى نفسه على هواك ولا يَعدِل بك أحداً ، قالت إنك تَقُص علىّ حديث الأمس وقد مضى بهِ الفلك الدائر ، والكوكب السيار ، فاسمع منى حديث اليوم

إنك لابد تعلم تاريخ زواجى منه منذ ثلاثة أعوام وأن أبى لم يبتغ به بدلا على كثرة الخاطبين اليه من عِلْية القوم وجِلَّتهم وأنا لاألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بى شراً ولا اعتمَد أن يسىء الاختيار لى ولكنه كان رجلاً أبيض السريرة طاهر

القلب تخدعه الخادعون عنى ، ومن ذا الذى لا يُخدع بشاب متعلم
مهذب من ذوى المناصب الكبيرة والرتب العالية ، وكيفما كان
الأمر فقد تمّ عقد الزواج بيننا فاغتبَطتُ به واغتبط بى بُرهة
من الزمان حسِبتها دائمة لا انقطاع لها حتى يفرّق بيننا الموت ،
وكنت امرأة أجمع فى نفسى جميع ماتَمُتُّ به النساء الى الرجال
فما خنته ولا ضقت ذرعاً بأمره ولا قطَّبت فى وجهه مرة ولا
أتلفت له مالاً ولا نقضت له عهداً فجازانى سوءاً بالاحسان ،
وكفر بنعمة الله بعد الأيمان ، وخان وُدى ، ونقض عهدى ؛
لا لذنب أتيته ، أو وصمة يَصمنى بها ، وكل ما فى الأمر أنه رجل
ملول ، ولا تغضب يا سيدى إن قلت لك إن قلب الرجل متقلب
متلون يُسرع الى البغض كما يسرع الى الحب ، وإن هذه المرأة
التى تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف
قلبها أوثق منه عقدا ، وأمتن وُدا ، وأوفى عهدا ، ولو وفى الزوج
لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرّق بين قلبيهما الا ريب
المنون ، قلت أنا لا أغضب لشىء الا للانسانية أن يُنقض عهدها ،
ويُخفر ذمامها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ، قالت مات أبى كما تعلم
وخلف لى مالاً أمكنتُ منه زوجى فأتلفه بين الخمر والقمر ،
فكنت أُغضى على هفواته رحمة به وشفقة عليه واستبقاء لوُده ،

حتى اذا صَفِرت يدى وأقفر ربعى أحسست منه مللا كان يدعوه
الى سوء عشرتى وتعذيب جسمى ونفسى ، وكان كثيراً ما يتهكم
بى ويقول إنى لا أحب المرأة الجاهلة التى لا تفهمُنى ولا أفهمُها ،
وآونة كان يعرّض بى قائلا إن الرجل السعيد هو الذى يُرزَق
زوجة متعلمة تقرأ له الجرائد والمجلات ، وتفاوضه فى المسائل
الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريضَ الى التصريح فيقول كلما
دخل علىّ متأففاً متذمراً ، ليت لى زوجة كفلانة فانها تحسن
الرقص والغناء والتوقيع على « البيان » فكنت أشك فى سلامة
عقله وأقول فى نفسى كيف يُفضل الزوجة المتبذّلة المستهتَرة على
الحييّة المحتشمة ، ووالله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التى
يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذُل فى رضاه من ذات اليدِ وذات
النفس ، وبعدُ فما زال الملل يدُب فى نفسه دبيب الصهباء ، فى
الأعضاء ، حتى تحوّل الى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظنى الا
شزْراً ولا يدخل المنزل الا لتناول غرض أو قضاء حاجة ، فكنت
أحتمل كلّ هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، ثم عرض له بعد
ذلك أن نُقل الى منصب أرقى من منصبه فى بلد آخر على ما تعلم
فسافر وحده وتركنى فى المنزل وحيدة لا مؤنس لى غيرُ طفلتى
فلبثت أترقب كتابا منه يدعونى فيه الى اللحاق به فما أرسل كتابا

ولا رسولاً ولا نفقة ، فاستكتبتُ اليه الكتابَ بعد الكتاب فما أسلس قيادُه ، ولا طاوع عنادُه ، فسافرت اليه مخاطِرةً بنفسي غيرَ مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه وشأني معه ، فما نزلتُ من القطار حتى قيّض الله لي من وقفني على حقيقة أمره وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على « البيان » ، فداخلني من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أيّ ساعة مَجزع ، ولا أظن الا أن العدلَ الالهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتُها في هذا السبيل حساباً غير يسير

وكأنه شعرَ بمكاني فجاء اليّ يتهددني ويتوعدني فتوسلت اليه ببكاء طفلته التي كنت أحملها بين يديّ وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدنا عليها وذهبت الى استعطافه كلّ مذهب فكنتُ كأنني أخاطب رَكوداً صمّاء (١) ، أو أستنزل آبِداً عصماء (٢)، ثم طردني وأمر من حملني الى المحطة فعدت من حيث أتيت

(١) الركود من الركود وهو الثبات والسكون ، والصخرة الصماء الصلبة المصمتة (٢) أبدت البهيمة توحشت ، والعصماء من الظباء التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود

فما وصلت الى المنزل حتى خلعتُ ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذِمام الليل لأني وحيدة في هذا العالم لاقريب لي ولا حميم ولأني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الوُد والاتصال عسى أن ترى لي رأياً في التفريق بيني وبينه على أجد في فضاء الحرية منفذاً كسَم الخياط أرتشف منه ما أتبلّغ به أنا وطفلتي حتى يبلغ الكتاب أجله

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني ووعدتُها بالنظر في أمرها بعد أن خفّضت كثيراً من أحزانها ولواعجها ، فعادت الى منزلها وعدت الى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة وقد اكتنفني همّان ، همُّ تلك البائسة التي لم أرَ في تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها ، ولا نجماً أنحس من نجمها ، وهمُّ ذلك الصديق الذي ربحته سنين طِوالا وخسرته في ساعة واحدة فقد كنت أغبط نفسي عليه فأصبحت أعزيها عنه ، وكنت أحسَبه إنساناً فاذا هو ذئب عَمَلّس (١) تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة والابتسام

هذا ماقصه عليّ ذلك الصديق الكريم ؛ ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ماتم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ولا ما تم من أمرها

(١) العملس السريع

مع زوجها حتى جاءنى منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام
على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه

سيدى

يهمنى كثيراً أن أرى بين كتب التهنئة التى ترد إلىّ كتاباً
منك لأسر بمشاركتك إياى فى سرورى وهنائى

إنك لابد تذكر تلك القصة التى كنت قصصتها عليك منذ
عام فى شأن تلك الفتاة البائسة التى خانها زوجها « فلان » وغدر
بها وهجرها إلى أخرى غيرها بعد ما جردها مما كانت تملك يدُها
وما كان من أمر مجيئها عندى وبث شكواها إلىّ ، وربما كنت
لاتعلم بما تم من أمرها بعد ذلك فاعلم أنها دفعت زوجها الى
موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعاً فطلقها وكنت افكر فى
ذلك التاريخ فى الزواج كما تعلم من زوج صالحة أجد السعادة فى
العيش بجانبها وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ولا أكرم
جوهراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتها فأمتعت نفسى بخير
النساء ، وأنقذت الانسانية المعذبة من شقوتها وبلائها ،
وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل
الظالم انتقاماً شديداً ، فقد حدثنى من يعلم دخيلة أمره أنه يعانى
اليوم من زوجه الجديدة الموت الأحمر ، والشقاء الاكبر ، وأنها

امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذاً عظيما فحولتها
إلى فتاة غربية فى جميع شؤونها وأطوارها ، والرجل شرقى
بفطرته ، أما غربيّته فهى متكلّفة متعمّلة يدور بها لسانه ولا
أثر لها فى نفسه ، فهو لايزال رجلا غيوراً شريفاً ، ولا يزال
يقاسى اليوم من تلك المرأة الخرقاء ، أضعافَ ما كانت تقاسيه
منه أشرف النساء ، والسلام

فى سبيل الاحسان

الاحسان شىء جميل وأجمل منه أن يَحُل محله ، ويصيب موضعه

الاحسان فى مصر كثير ، ووصوله الى مستحقه وصاحب الحاجة اليه قليل ، فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابةَ الموضع فيه لما سمع سامع فى ظلمة الليل شَكاة بائس ولا أنة محزون

ليس الاحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ، فالعطاء قد يكون نفاقا ورياء ، وقد يكون أحبولة يَنصبها المعطى لاصطياد النفوس وامتلاك الأعناق ، وقد يكون رأسَ مال يتّجر فيه صاحبه ليبذُل قليلا ويربح كثيراً

إنما الاحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء ، فلو أن جميع مايبذُله الناس من المال ويسمونه إحسانا صادر عن تلك العاطفة الشريفة لما تجاوز محله ولا فارق موضعه

فوضى الاحسان

الأحسان فى مصر فوضَى لانظام له ، يناله من لايستحقه ويُحرَم منه مستحقه ، فلا بؤساً يَرفع ، ولا فقراً يدفع ، فمثله كمثل السحاب الذى يقول فيه أبو العلاء

ولو أن السحاب همى بعقل لما أروَى مع النخل القتادا[1]

الأحسان فى مصر أن يدخل صاحب المال ضريحاً من أضرحة المقبورين فيضعَ فى صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالا ، أو يهدى مايسميه نذراً من نَعم وشاء الى دفين فى قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذى يأكل لحمه ، والسوسُ الذى ينخُر عظمه ، وما أهدى شاته ولا بقرته لو يعلم الا الى « ديوان الأوقاف » وكان خيراً له أن يُهديَها الى جاره الفقير الذى يبيت ليله طاويا يتشهّى ظلفاً[2] يمسك رمقه ، أو عرقوبا يطفىء لوعته

وأعظم مايتقرّب به محسننا الى الله ويَحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيهما أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير فى بناء مسجد للصلاة فى بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفى البلد كثير من البائسين وذوى الحاجات ، يَنشدون مواطن

(١) القتاد شجر صلب له شوك لافائدة منه (٢) ظلف البقرة ظفرها

الصيلات ، لا أماكن الصلوات ، أو يبنى بنيةً ضخمة فخمة
مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، مموهة الجوانب والأركان ،
مذهبة السقوف والجدران ، يسميها سبيلا ، ولا يهولنك هذا
الاسم الضخم فكل ما فى الأمر أن السبيل مكان يشتمل على
حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر الا بضع
خطوات ، على أن الماء كالهواء ، ملء الأرض والسماء ، أو يقفُ
الرقاع الواسعة من الأرض لتنفق غلتها على أقوام من ذوى
البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ،
وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يَحسَب أنه أحسن اليهم ،
ولو عرف موضع الأحسان لأحسن اليهم بقطع هذا الأحسان
عنهم علهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقا شريفاً ،
فان كان يظن أنه يعمل فى ذلك عملا يقرّبه الى الله فليعلم أن الله
تعالى أجلّ من أن يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سُلّماً الى
طعام يطعمونه ، أو درهم يتناولونه ، أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء
المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو أنصفوهم
لسموهم قطاع الطرق ، ولا فرق بين الفريقين الا أن هؤلاء
يتسلحون بالبنادق والعِصىّ ، وأولئك يتسلحون بالسبح
والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع

فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ، ولا خفاً ولا حافراً ، ولا شيئاً
مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها الا
أتوا عليه

أسوأ الاحسان

لم أر مالا أضيعَ ولا عملا أخيبَ ولا إحسانا أسوأ من
الاحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الارض ويَقلبونها
ظهراً على عقب ويجثُمون فى مفارق الطرق وزوايا الدروب وعلى
أبواب الأضرحة والمزارات يُصمون الأسماع بصريخهم، ويقذون
النواظر بمناظرهم المستبشعة ، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل
والجالس والقائم ، فلو أن نجماً هوى الى الارض لهوَوا على أثره
أو طائراً طار الى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل
يستحق عطفك وحنانك عليه وهل ما تُسديه اليه من المعروف
تُسديه الى صاحب حاجة فاعلم أنه فى الأعمّ الأغلب من أحواله
رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ولا مسكن عنده يحتاج
إلى مؤن ومَرافقَ ولا شهوة له فى مطعم أو مشرب أو ملبس
حتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذرِ
من الشراب لا يقعده عن السعى فى سبيله لانقطع عنه ، وهو لو

شاء أن يتزوّج أو يتخذ له مأوى يأوى اليه لفعل ولوّجد فى حرفته متسعاً لذلك ، ولكنهُ الحرصُ قد أفسد قلبه وأمات نفسه فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ليَجمع مالاً لافائدة له من جمعه ولا نية له فى إصلاح شأن نفسه به اذا اجتمع عنده منه ما يقوم له بذلك بل ليدفنه فى باطن الارض حتى يُدفنَ معه أو لينظمه فى سلك مرقّعته حتى يرثه الفاسل من بعده .ولقد يبلغ به الحرص الدنىء والشره السافل أن يحمل فى سبيل المال مالا يستطيع مجاهد أن يحمل مثله فى سبيل الله فيتعمدَ قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً مايحسد صاحبه اذا رآه أفظع منه شكلا أو أكثر تشويهاً كما يحكى أن شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيفِ البصر فتنافسا فى مصيبتيهما أيتها أقذى للأعين وأوقعُ فى النفس وأجلب للرحمة ، فقال الاول للثانى لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضلَ حبالة لاصطياد القلوب ، واستفراغ الجيوب ، فقال له صاحبهُ وأين يبلغ العمى من هذه الرّجل الضخمة الثقيلة التى تجلب فى كل عام وزنها ذهباً

إن أكبر جريمة يُجرمها الانسان الى الانسانية أن يساعد

هؤلاء المتسولين بما له على الاستمرار فى هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعرَ فى نفسه بالميل الى البطالة وإيثار الراحة بالسعى على آثارهم ، والاحتراف بحرفتهم ، فكأنه قطع من جسم الانسانية عضواً كاملا ، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملا ، وكأنه هدم بعمله هذا جميع تلك المساعى الشريفة التى بذلها الانبياء والحكماء قروناً عديدة لاصلاح المجتمع الانسانى وتهذيب أخلاقه وتخليصه من آفات الجمود والخمول ، فهل رأيتَ معروفاً أقبح من هذا المعروف وإحساناً أسوأ من هذا الإحسان

تنظيم الاحسان

ليست كمية المال التى ينفقها المحسنون فى سبيل الاحسان ممايستهانُ به فلو قال قائل إنها تبلغ فى مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما أخطأ التقدير

سألت رجلا من وجوه الريف المعروفين بالبر والاحسان عن كمية ما ينفقه كل عام فى هذا السبيل فأطلعنى على جريدة حسابه فرأيتها هكذا

جنيه

١٠ ولائم لمشايخ الطرق

٦٠ ليالى فى مولد البيومى والعفيفى

٧٢ مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات فى مسجده ومنزله

٣٠ هبات كبيرة للطائفين فى البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الداثر

١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً

١٠ توضع فى صناديق الاضرحة

٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس تفرق فى المواسم الدينية

٢٤٠ المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها فى سبيل الاحسان رجل واحد من متوسطى الثروة فى عام واحد ، وفى مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه ، فلا غرابة فى أن يقدر هذا النوع من الاحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شئ سوى إغراء الكسلان بكسله ، وحمل العامل على ترك عمله ، وفى اعتقادى لو أن هذا المقدار حل من الاحسان محله ، وأصاب منه موضعه ، وأنفق فى سبيل الخيرات النافعة ووجوه البر الحقيقية لارتقى بالامة المصرية الى ذروة الكمال ، ولكان له الاثر الجليل فى وصولها الى ما تتطلع اليه من هناء العيش وسعادة الحياة

لذلك أقترح فى تنظيم الاحسان اقتراحا نافعاً وأدعو الكاتبين

الذين لاغرض لهم من وراء الكتابات السياسية ولا غاية لهم من الاشتغال بإثارة الخواطر وتهييجها وإغراء بعض الناس ببعض أن يساعدونى بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه فى هذا المقترح المفيد

أقترح أن يقوم جماعة من سَرَاة الأمة ووجوهها وأصحاب الرأى والبصيرة فيها بتأليف مجتمع فى القاهرة يسمى « مجتمع الاحسان » ويكون له فى كل مدينة من مدائن الريف فرع تابع له

أما أعماله التى أُحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهى ثلاثة

ا — استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائط النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير معنى الاحسان ، وما هو الغرض منه ، وماهى أفضل وجوهه ، وأى أنواعه أجمع لخيرَى الدنيا والآخرة

ب — بذل الجهد فى حمل الناس على اعتبار مجتمع الاحسان هذا بيت مال لهم أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها ، وحسبها أن تأخذ من كل فرد فى كل عام مجموع ما يحسن به عادة فى ذلك العام فلا يكون بعد ذلك

مأخوذاً بشيء من الاحسان أمام ربه وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع

ح – إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين والعاجزات عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العز والنعمة وصيانة ماء وجوههم أن تراق على تراب الأعتاب والانفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنه ويرجى أن تنتفع بهم الامة فى مستقبلها من أبناء الفقراء ، الى أمثال هذه الاعمال الخيرية الشريفة التى لا يتحقق الاحسان بدونها ، ولا ينصرف معناه الا اليها

أنا أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الاولى فى سبيل هذا العمل الجليل ومن يضع الحجر الاول فى بناء مجتمع الاحسان ، هو أفضل عامل فى الوجود وأشرف انسان

أدب المناظرة

أنا لا أقول الا ما أعتقد ولا أعتقد الا ما أسمع صداه من جوانب نفسى فربما خالفت الناس أو بعض الناس فى أشياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعذرتى اليهم فى ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم وأن فى رأسى عقلا أُجله عن أن أنزل به الى أن يكون سيقةً (١) للعقول وريشةً فى مَهاب الاغراض والاهواء

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرمينى بجارحة من القول أو صاعقة من الغضب لأنى خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه أو أن يكون له من الحق فى حملى على مذهبه أكثر مما يكون لى من الحق فى حمله على مذهبي

لا بأس أن يؤيد الانسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه ويُزيّفها بما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه فى أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل الى نشر الحقيقة التى يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أُحبها له ولا أعتقد

(١) السيقة ما يساق سوقا ومنه انما ابن آدم سيقه يسوقه الله

أنها تنفعه أو تغنى عنه شيئاً ، وهى وسيلة الشتم والسباب

إن لأخلاص المتكلم تأثيراً عظيما فى قوة حجته وحلول كلامه المحلّ الأعظم من القلوب والافهام ، والشاتم يعلم الناس جميعاً أنه غير مخلص فيما يقول ، فعبثاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه أو يقنعهم بصدقه وإن كان أصدقَ الصادقين

أتدرى لمَ يسب الانسانُ مناظره ؛ لأنه جاهل وعاجز معاً ، أما جهلهُ فلأنه يذهبُ فى واد غير وادى مناظره وهو يظن أنه فى واديه ، ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة الى النظر فى شؤون المناظر وأطواره كأن كل مبحث عنده مبحثٌ « فسيولوجى » ، وأما عجزه فلأنه لو عرف الى مناظره سبيلا غيرَ هذا السبيل لسلكه وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس اياه وحماها من الدخول فى مأزق هو فيه من الخاسرين مُحقاً كان أم مبطلا

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرضُ من المناظرة شيئاً غيرَ خدمة الحقيقة وتأييدها . وأحسبُ أن لو سلك الكتاب هذا المسلك فى مباحثهم لاتفقوا على مسائلَ كثيرةٍ هم لا يزالون مختلفين فيها ، وما اختلفوا فيها الا لأنهم فيما بينهم مختلفون ، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمةُ حق لا ريب فيها ولكنه يبغضه فيبغضُ الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج

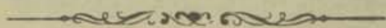
واهيةٍ وأساليبَ ضعيفةٍ وان كان هو قويا فى ذاته ، لأن القلم لا يقوى الا اذا استمد من القلب فاذا عَىّ بالحجج والبراهين لجأ الى المراوغةِ والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلا إنك رجل جاهل لا يُعتد بآرائك أو إنك رجل مضطرب الرأى لا ثبات لك لأنك تقول اليومَ غيرَ ماقلت بالأمس ، وهنالك يقول له الناس رويداً لا تخلط فى كلامك ، ولا تراوغ فى مناظرتك ، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله ، فانه يقول شيئاً فان كان صحيحاً فسلم به أو باطلاً فبين لنا أوجه بطلانه ، وهبه قولا لا تعلم قائله ، ولا شأن لك باضطراب القائل وثباته ، فربما كان بالأمس على رأى تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يخطئ مرة ويصيب ، فاذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرّ الى أدنى الوسائل وأضعفها فسب مناظره وشتمه وذهب فى التمثيل بهِ كل مذهب فيسجل على نفسهِ الفرار من تلك الحرب والانخذال فى ذلك الميدان

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فان لكل شئ جهتين ، جهة مدح وجهة ذم ، فاما أن تتساويا أو تكبرَ إحداهما الاخرى ، فان كان الأول فلا معنى للاختلاف ، وان كان الثانى وجب على المختلفين أن يعترف كل

منهما لصاحبه ببعض الحق لا أن يكون كل منهما من سلسلة
الخلاف فى طرفها

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف فى مسائل
كثيرة حتى يشتد النزاع وحتى لا يلين أحدهما لصاحبه فى طرف
مما يخالفه فيه ، فحضر حوارهما أحد الحكماء فى ليلة وهما يتناظران
فى المرأة ، يعلو بها الملك الى مصاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير الى
منزلة الشياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته ، فلما علا
صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس
ساعة ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء ،
وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء ، فقطع عليهما حديثهما وقال
لهما أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ، ليعطينى كل منكما رأيه
فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع
الى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد
منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله
من رؤيتها وأخذ يذمها ذماً قبيحاً ، فهاج غيظ الملك على الوزير
وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التى
رآها هو فلما عاد إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد تعرض
لهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا

كثيراً ، ثم قال لهما هذا هو الذى أنتم فيه منذ الليلة ، وما أحضرت
اليكم هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلا لتعلما أنكما متفقان فى
جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أن كلا منكما ينظر إلى المسائل
المختلف فيها من جهتيها ، فشكرا له همته وأثنيا على فضله وحكمته ،
وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيرا حتى ما كانا يختلفان بعد ذلك الا قليلا



الاحسان فى الزواج

ورد إلىّ فى البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع

حضرة السيد الفاضل

ضمنى وجماعةً من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فاخذته الرأفة بها فتزوجها وكان القوم مابين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له وطالت مدةُ الجدَل بيننا ساعات ولم يستطع أحدالفريقين أن يُقنع الآخر برأيه فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب اليك بذلك علك تلقى على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة والسلام

ف . س

أيها السائل الكريم

إن كان باعثُ الرجل على الزواج بهذه البغىّ شهوةً يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى له سبيلا إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها إلا هذا السبيل كما هو شأن أكثر الذين يتزوجون من البغايا فقدأخطأ خطأ جمًا لان من كان هذا شأنه

لايَعنيه إلا ذاتُ نفسه ولا يَشغَله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذى يرتبط بشهوته، ويتعلق بلذته، وآية ذلك أنه لاينظر بعداتصاله بها فى إصلاح قلبها ، ولا يحاول أن ينزَع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة فى نفسها ، ولا يداخلها مداخلةَ المؤدّب المهذب الذى يصور فى نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها ، بل لايكفيها مُؤونة العيش ولا يرفّهها ولا يقلّبها فى الرغد والنعمة إلا إذا شعَر بأن فى قلبه بقيةً من الوجد والشغف بها ، فاذا أقفر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لايَهيج له وجداً ، ورجوعها إلى عيشها السالفِ لا يثير منه غيرة ، فارقها فراقا هادئًا مطمئناً لايمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على سقوطها ، وهنالك تعود تلك المرأة إلى عُشّها الذى طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموْجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به

فالرجل الذى يتزوج من البغىّ قضاء لشهوته وإيثاراً للذته ، لا ينفعها ولا يحسن اليها ، لانه لايهذب نفسها ، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها ، والاستمرار على عشرتها ، بل يسئ اليها بسوء تصرفه معها فيبغّض اليها الصلاح ويحبب اليها الفساد ، وعندى أنه فى عمله هذا فاسق لامتزوج ، لانه لو لم يرَ أن الزواج

وسيلةٌ من وسائل الاستئثار والتوسع فى الاستمتاع ما سَمى الأجر مهراً ولا المتعةَ عقداً

فان كان حقاً ما تقول من أن باعثه الى ذلك الرحمةُ والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الإحسان ، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملا هو أفضل عند الله ذخراً ، وأعظم أجرا ، من هذا العمل الصالح

العِرض أثمن من الحياة فان كان من يمنح الحياة فاقدَها شريفاً فأشرفُ منه من يردّ العرض الضال الى صاحبه المفجوع فيه

ليت الرجالَ يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرُها وعُدمها أو فقد عائلها الى البِغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن

لمَ لا يكون بابا من أبواب الاحسان أن يتفقدَ المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من أولادهم وأقربائهم وإن لم يكنّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب لانه احسان والاحسانُ لا يجمُل الا اذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء

لو عرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إنفاق الاموال

على بناء التكايا والزوايا وتوزيعه على المتسولين والمتكففين ووقفه على القارئين والذاكرين لا يدّخر لهم من المثُوبة والاجر عند الله ما يدخره لهم الاحسان الى النساء ، بالعصمة من البِغاء

البغاء للبغيّ شقاء ماجناه عليها إلا الرجل ، فجدير به أن يَغرم ما أتلفَ ويصلح ما أفسد

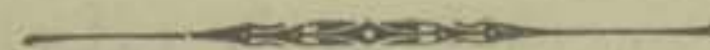
يهَجُم الرجل على المرأة ويَعدُ لمهاجمتها ماشاء الله أن يعده من وعد كاذب ، وقول خالب ، وسحر جاذب ، حتى اذا خدعها عن نفسها ، وغلبها على أمرها ، وسلبها أثمنَ ماتملك يدُها ، نفض يده منها وفارقها فراقا لا لقاء بينهما من بعده

هنالك تجلس فى كِسر بيتها جلسةَ الكئيب الحزين مسبلة دمعها على خدها ، مسندة رأسها بكفها ، تَفلى أناملها التراب ، لا تدرى أين تذهب ، ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ، لان الرجل يسميها ساقطة ، وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ماتحسنه منه ، لان الرجل أهمل شأنها فلم يعلّمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ، وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ، لان الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حراماً ، على أن يمنحها الدرهم حلالا ، فلا تجد لها بداً من أن تطلبه من طريق البغاء

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة ، وأن الرجل هو الذى يمثل جميع أدوارها ، ويظهر فى كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل فانا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة وأن حقاً عليه أن يؤدى دينه ويغرم أرش [١] جنايته

إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغياً فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له إلى ذلك الا اذا اعتبر الزواج باباً من أبواب الاحسان ، أى أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه ، وأحق النساء بالاحسان أولئك اللواتى لم يرزقهن الله الجمال والمال ، والحسب والنسب ، فان أبى الا أن يتزوج المرأة السعيدة ، فليعلم أنه هو الذى أخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه الى قرارة الشقاء ورماها بيده فى هوة الفسق والبغاء



(١) الارش دية الجراحات

لاهمجية فى الاسلام [١]

أيها المسلمون : إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف ، وقصفاً بالرماح ، وحرقاً بالنيران ، فقد أسأتم بربكم ظناً ، وأنكرتم عليه حكمته فى أفعاله ، وتدبيره فى شؤونه وأعماله ، وأنزلتموه منزلة العابث اللاعب الذى يبنى البناء ليهدمه ، ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقد ليبدده

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الانسان نطفة فى رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه ، ويمده برحمته وإحسانه ، ويرسل اليه فى ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها نطفة فعلقة فمضغة فجنينا فبشراً سويا

إن إلهاً هذا شأنه مع عبده وهذه رحمته به واحسانه اليه

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين فى ولاية اطنه من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم اياهم وتمثيلهم بهم فى عام ٩٠٩

محال عليه أن يأمر بسلبه الروحَ التى وهبه اياها أو يرضى بسفك دمه الذى أمده به ليجرى فى شرايينه وعروقه ، لا بين تلال الرمال . وفوق شعاف الجبال

فى أى كتاب من كتب الله وفى أى سنة من سنن أنبيائه ورسله قرأتم جواز أن يعمد الرجل الى الرجل الآمن فى سربه ، القابع فى كسر بيته ، فينزع نفسه من بين جنبيه ، ويفجع فيه أهله وقومه ، لانه لايدين بدينه ، ولا يتقلد مذهبه

لو جاز لكل انسان أن يقتل كل من يخالفه فى رأيه ومذهبه لأقفرت البلاد من ساكنيها وأصبح ظهر الارض أعرى من سراة أديم

ان وجود الاختلاف بين الناس فى المذاهب والاديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون التى لايمكن تحويلها ولا تبديلها ، حتى لو لم يبق على ظهر الارض الا رجل واحد لجرد من نفسه رجلا آخر يخاصمه وينازعه ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

إن الحياة فى هذا العالم كالحرارة التي تنتج من التحاكّ بين جسمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والاديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه

أيها المسلمون : ليس ما كان يجرى فى صدر الاسلام من محاربة المسلمين المسيحيين مراداً به التشفى والانتقامُ منهم ، أو القضاء عليهم ، وانما كان لحمايةِ الدعوة الاسلامية أن يعترضها فى طريقها مُعترض أو يَحول بينها وبين انتشارها فى مشارق الأرض ومغاربها حائل ، أى ان القتال كان ذوْداً ودفاعاً ، لا تشفياً وانتقاماً

وآية ذلك أن السّريّة من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة فى سبيلها الذى تذهب اليه حتى يصل اليها أمر الخليفة القائم أن لا تُزعج الرهبان فى أديرتهم ، والقسيسين فى صوامعهم ، وأن لا تحاربَ إلا من يقاومها ، ولا تقاتلَ إلا من يقفُ فى سبيلها ، ولقد كان أحرى أن تُسفك دماء رؤساء الدين المسيحى وتُسلبَ أرواحهم لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم والقضاء عليهم

لو أنكم قضيتم على كل من يتدينُ بدين غيرِ دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم لانقسمتم على أنفسكم مذاهبَ وشيَعاً وتقاتلتم على مذاهبكم تقاتُلَ أرباب الأديان على أديانهم ، وهكذا حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهب ولا متمذهب

أيها المسلمون : ما جاء الاسلام الا ليقضىَ على مثل هذه

الهمجية والوحشية التى تزعمون أنها الاسلام

ماجاء الاسلام الا ليستلّ من القلوب أضغانَها وأحقادها ثم يملؤها بعد ذلك حكمة ورحمة ليعيشَ الناس فى سعادة وهناء ، وما هذه القطراتُ من الدماء التى أراقها فى هذا السبيل الا بمثابة البَضع العضوى الذى يتذرعُ به الطبيب الى شفاء المريض

عذرْتكم لو أن هؤلاء الذين تُريقون دماءهم فى بلادكم كانوا ظالمين لكم فى شأن من شؤون حياتكم ، أو ذاهبين فى معاشرتكم والكونِ معكم مذاهبَ سوء تخافون مغبتها ، وتخشونْ عاقبتها ، أمّا والقوم فى ظلالكم والكونِ تحت أجنحتكم أضعفُ من أن يمدوا اليكم يد سوء أو يبتدروكم ببادرةِ شر فلا عذر لكم

عذرْتكم بعضَ العذر لو لم تقتلوا الاطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يبلغوا سن الحلم ، والنساء الضعيفات اللواتى لا يُحسنّ فى هذه الحياة أخذاً ولا رداً ، والشيوخَ الزاحفين الى القبور قبل أن تزحفوا اليهم وتتعجلوا قضاء الله فيهم

أمّا وقد أخذتم البرىء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون ، وسفاكون لا محاربون

مِنْ أى صخرة من الصخور أوهضبة من هضباتِ الجبال

نحتّم هذه القلوب التى تنطوى عليها جوانحكم والتى لاتروعها أنّات الثكالى ، ولا تحركها رنّات الايامى

من أى نوع من أنواع الأحجار صيغتْ هذه العيون التى تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير والنارُ تأكل أطرافهُ وتمشى فى أحشائهِ وبين جوانحه فتصرخ أمه وأمهُ عاجزة عن معونته لأن النار لم تترك لها يداً تحركها ، ولاقدماً تمشى عليها

لاأستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار لانى أعتقد أن قتل الضعفاء جبنٌ وعجز ، ولؤم ودناءة ، وأنّ سفكَ الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشيةٌ وهمجية أحرى أن يُعزّى صاحبها فيها ، لا أن يُهنأ بها

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ماشئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم ، ولكن حذارِ أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فالله سبحانه وتعالى أجلُّ من أن يأمرَ بقتل الابرياء ، أو يرضى باستضعاف الضعفاء ، فهو أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين

البخيل

سألني سائل ما ذا يستفيد الانسان من بخله حتى على نفسه وأيُّ غرض يرمي اليه من ذلك فأجبتهُ بهذا الجواب

البخلُ إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة فى النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار ، فكما لايسئل المسرف عن سبب إسرافه ، والغاضبُ عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه من حسده ، كذلك لايُسئل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه ، فكثيراً ماتَعرض لارباب هذه الملكاتِ عوارضُ تنزع بهم الى الرغبة عن التخلي عنها حيناً فلا يجدون الى ذلك سبيلا لمكان تلك الملكات من نفوسهم ونزولها منها منزلة لاتُزعجها الرغبات ، ولا تزعزعها الارادات ، وربما عرض للبخيل ما يدفعه الى بذل شيء من ماله فاذا وضع يده فى كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه أحسن كان تياراً كهربائياً قد سَرى من نفسه الى يده فتشنجت أعصابها وأعيَت أناملُها على الالتواء والانثناء فأخرَجها صفراً كما أدخلها وبوده أن لايفعلَ

لولا أن للغريزة قوةً فوق قوة الإرادة وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنقاد اليه العقول الا اذا كان وراءها وازع من القانون ينزَعها فانه يكسر شِرَّتها أحياناً ، وإن لم ينتزعها انتزاعا

ويحكى أن شحيحاً تحركت فى قلبه يوماً الشفقة على ابنتهِ الجائعةِ العارية فأراد نفسَه على أن يبذل لها شيأً من ماله فتأبّت عليه فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يَسدّ خَلتها من حيث لايُعلمهُ بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه علماً بأنه لايستطيع أن يكون كما يريد

فالوجه فى السؤال أن يقال ما هي الأسباب التى غرست ملكة البخل فى نفس البخيل فيكون الجواب عن ذلك أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص البخلاء وأطوارهمْ وأخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الاسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق مايفترق منها واجتماع مايجتمع

الأول — الوراثة — وهي وان كانت سبباً ضعيفاً لما يَعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين باضدادها والتأثر بمخالطتهم الا أنها كثيراً ما تنمو وتتجسم اذا أغفلت ولم يعترضها مايسد سبيلها ويقف فى طريق نمائها

الثاني — التربية — إذا نشأ الطفل بين أهل أشحّاء ولم

يكن فى فطرته مايقاوم سلطان التربية على نفسه أخذ إخذهم فى
الحرص وتخلق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها فى العقائد والعادات
من حيث لا يفكر فى استحسان أو استهجان كأنما هى عدوى
الامراض التى تسرى الى الإنسان من حيث لا يدرى بها ولا
يشعر بسريانها ، ويحكى أن رجلا دخل منزلا يُعرف أهله بالشح
والحرص فرأى طفلا صغيراً فى يده ليمونة صغيرة فسأله إياها فاجابه
الطفل « إن يدك لا تسعها »

الثالث -- سوء الظن بالله — ذلك أن المتدين اذا أخذت
عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ فى قلبه الإيمان
بأن لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء فهو أرحم
من أن يُغفل شأنهم ويكلهم الى أنفسهم ويسلمهم لصروف
الليالى وعاديات الايام ، فلا يلجّ به الحرص على الجمع ، ولا يزعجهُ
الخوف من البذل ، وعلى العكس منه ضعيفُ الإيمان ضعيف
الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والجدود فهو لسوء ظنه
به لا يزال الخوف من الفقر نُصب عينيه حتى يصير البخل ملكة
راسخة فيه

الرابع — النكبات — كثيراً ما تحل بالانسان نكبات
تصْهر قلبه وتُزعج غريزته عن مستقرها ، ومن ذلك النكبات

التى يكون مرجعها قلةَ المال كأن يقع الرجل فى خصومة يرى
انه لولا ضيقُ ذات يده لما وقع فيها فلا يكون له فكر بعد ذلك
الا فى التوقى من الوقوع فى أمثالها ، فكلما تمثلت له نكبتُه لج به
الحرص وأغرق فى المنع حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً له ،
ومن ذلك جديد النعمة الذى ذاق مرارة الفقر برهة من الزمان
وتجسمت آلامه فى نظره فانه مهما حسنت حاله وأقبلت عليه
الدنيا بوجهها وفاضت خزائنه بالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة
ولا تضيع من ذاكرته آلامها فلا يزال يملكُ قلبَه وَسواس مقلق
يخيّل اليه مالا يُتخيل ويريه مالا يرى كمن تمثل له خيال الشيطان
مرة فى أبشع صورة وأفظع شكل فهالهُ منظره وذهب الخوف
الشديد برشده وطار بطائر عقله فلا يزال يراه فى كل مكان وزمان ،
وفى حالتي الأمن والخوف ، والوحشة والأنس

الخامس — اللؤم — فان النفس إذا خبثت طينتُها ولؤم
طبعها كان من أخص صفاتها الحقدُ على الوجود بأجمعه وبغضُ
الخير للناس قاطبة فكيف يمنحهم من ذات يده مايزيده ألماً على
ألم وحسرة فوق حسرة ، وهو لو استطاع أن يكفّ عنهم سارية
السماء ويعترض دونهم نابتة الارض لفعل

السادس — سقوط الهمة — إذا نشأ الانسان على الهمة

طموحا إلى المعالى محباً للذكر الحسن والثناء الجميل سهل عليه أن يبذل فى سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه ، وحب المجد أسال الذهب من خزائن الاغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسما بين شفرات السيوف وأسنة الرماح طلباً لسعادة الحياة بالذكر وسعادة الممات بالخلود ، فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه الى بذل المال على مكانته من قلبه وامتزاج حبه به ، أيدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بلذته ، أم خوف المذمة وهو لا يتألم منها ولا يتذوق مرارتها ، أم سعادة الحياة وسعادة الممات ، وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها ، وحلة يلبسها

السابع — فساد المجتمع الانسانى — ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها أو خير يطمعون فيه بل لانه ذو مال وذو المال فى نظرهم أحق الناس بالمحبة والاخلاص والاجلال والاعظام وان لم يحصلوا منه على طائل ، فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذى لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة فى نفوس هؤلاء ،

المتملقين وليس بينه وبينها الا الحرص الذى لا يتكلفه ولا يتعمل له والذى هو أشهى الاشياء اليه وأكثرها ملاءمة لفطرته ليزداد شرفا وعزاً ، كلما ازداد بالحرص ثراء ووفراً ، ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده يا بَنىّ لأن يعلمَ الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له فى أعينهم من أن يقسمها فيهم ، وقال رجل لآخر يابخيلُ ، فقال له لا أحرمنى الله بركة هذا الاسم فانى لا أكون بخيلا الا إذا كنتُ غنياً فسمّ لى المال ولقبنى بما تشاء

هذه هى أهم الأسباب التى تألفت منها رذيلة البخل فان أغفلنا النظر اليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق الى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة كان منال النجم أقربَ من تطبيق حالهِ على قاعدة من قواعد العقل لان الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه رغبات وشهوات مختلفة بعضها نفسى والآخر جسدى ، فهو لا يزال يتطلبها مالم يَعجز عنها، فصاحب المال الكثير الذى يقنع بالشملة والمضغة ، والجرعة والظُّلة ، ويحمل فى كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه إلى ميولها ورغباتها ، لا يمكن أن يُحمل حاله على محمل العجز لانه قادر ، ولا على الزهد لانه مازهِد فيما لا ينفع فيزهد فيما ينفع ، ولا على

الخوف من الفقر لأن عنده من المال ما يفنى الأعمار فهيهات أن
يُفنيَه عمر واحد ، ولا على الرغبة فى سعادة الذرية لأن محبة الاب
لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته فى أن يراه شريكا له فى سعادته ،
فأما أن يشقى هو فى حياته ، ليَسعدَ ولده بعد مماته ، فما لا يقبله
العقل ، ولا يدخل فى دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبق لنا إلا أن
نتوسل الى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع فى تفسير معنى
الجنون حتى لا يكون مقصوراً على المعربدين والهاذين ، بل
يكون شاملا للعابثين ، الذين لا يدرون ما يأخذون وما يتركون ،
والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم واختيارهم آلاماً نفسية هى أشد
مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ، ومطاردة الصبيان ،
كما نتوسل الى علماء الشرائع أن يضعوا قانونا لاستخراج المال من
خزائن المقترين ، كما وضعوا قانونا لحفظ المال فى صناديق المبذرين ،
فان تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً ، أما حبسه فيضر صاحبه
ويضر معه الناس أجمعين

البعوض

جلست ليلة أمس الى مكتبتي وعلقت قلمي بين أصابعي
وأنشأت أفكر فى الموضوع الذى يجمل بى أن أكتب فيه ،
وتلك عادتى التي يعرفها عنى كثير من خلطائى وعشرائى أننى لا أميل
الى الكتابة فى بياض النهار ولا أحب أن أخط حرفا على ما أحب
وأرتضى الا فى ظلام الليل وهدوئه

ولا يَظن المتفلسفون فى اكتناه الحقائق والمولَعون بالصناعة
اللفظية ، والانواع البديعة ، أننى أريد بذلك مراعاةَ النظير بين
سواد المداد وسواد الظلام ، أو أننى أترقب طلوع النجم لأتسلقَ
أشعته الى سماء الخيال ، فكلُّ ذلك لم يكن ، وليس فى الناس من
هو أدرى بدخيلة نفسى منى ، وكل ما فى المسئلة أن هذه عادتى ،
وتلك حكايتى ، وكفى

لم أكد أفرغ من التفكير فى الموضوع حتى شَعرت بطنين
البعوض فى أذنى ثم أحسست بلذعاته فى يدى فتفرق من ذهنى
ما كان مجتمعاً ، وتجمع من همى ما كان مفترقا ، ولم أرَ بداً من

إلقاء القلم وإعداد العُدّة لمقاومة هذا الزائر الثقيل

طاردته بالمِذَبّة فما أجدى ذلك نفعاً لأنه على الطيران أقوى
من يمينى على المطاردة ، وفتحتُ النوافذ لأُخرجَ ما كان داخلا ،
فدخل ما كان خارجا ، وحاولتُ قتله فوجدته متفرقا ، ولو كان
مجتمعاً فى دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة ، ولم أرَ فى حياتى أمة
ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غيرَ أمة البعوض ، فما أضعفَ هذا
الانسانَ وما أضلّ عقلَه فى اغتراره بقوّته ، واعتدادِه بنفسه ،
واعتقاده أن فى يدِه زمامَ الكائنات يُصرّفها كيف يشاء ، ويسيّرها
كما يهوى ، وأنه لو أراد أن يذهب بنظام هذا الوجود ويأتىَ لهُ
بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك الا أن يُرسل أشعة عقله ويبتعث
عزيمته ، ويقتدح فكرته

يزعم ذلك وهو يعلم أنه أضعف من أن يحتال لنفسه فى مدافعة
أصغر الحيوان جسما وعقلا . وأدناها قيمة وشأنا ، بيدَ أنهُ يعلم ذلك
بلسانه وفى فلتات وهمه ، ولو علمهُ علماً يتغلغل فى نفسه ، ويتمثل فى
سويداء قلبه لكفكف من غُلَوائه ، وخفّض من كبريائه ، وعلم علم
اليقين أن الانسان العاقل والحيوان الملهم والنبات النامى والجماد
الجامد سواء بين يدى القوة الالهية الكبرى التى لا ينفع معها
حول ولا قوة

علمتُ أنى عَييتُ بأمر هذا الحيوان فلذتُ بجانب الصبر ،
والصبرُ كما يعلم إخواننا الصابرون حجة العاجز ، وحيلة الضعيف ،
وأيسر ما يستطيع أن يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين ،
وفضول المتطفلين ، وقلت فى نفسى لو كان البعوض يفهم ما أقول
لقصصت عليه قصتى ، وشرحت له عذرى ، وسألتهُ أن يَمنحنى
ساعة واحدة أقوم فيها بكتابة رسالتى هذه ثم هو بعد ذلك فى حلّ
من جسمى ودمى يَنزِل منهما حيث يشاء ، ويمتص منهما ما يشاء ،
ولكنه ويا للأسف لا يسمع شكاتى ولا يرحم ضَراعتى ولا
يفهم معنى الرحمة ولا يعرف قيمة المروءة لأنه ليس بانسان

أحسَبُ أن لذعاتِ البعوض قد أخذت مأخذَها من عقلى
وفهمى وأنى قد بدأتُ أهذى هذيانَ المحموم فمن أينَ لى أنْ لو كان
البعوض إنساناً كان يسمع شكاتى ، ويكشف ظُلامتى ، أو يفهم
معنى الرحمة ، ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الانسان أحسن حالاً
من البعوض وأرحمَ منه قلباً وأشرف غاية فأتمنى أن لو كان مكانه ،
بل من أين لى أن هذا الذى أحسَبه بعوضاً ليس بانسان تقمّص
البعوضَ وتمثل لى فى جسمه الصغير وجناحه الرقيق ، وأىُّ غرابة
فى أن أتخيل ذلك مادام الانسان والبعوضُ سواءً فى حب الشر
والميل الى الاذى ، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها فى جانب

الأعراض الذاتية والصفات المقوّمة للماهية

أى قيمة لما يمتصه البعوض مجتمعاً من جسم الانسان فى جانب ما يمتصهُ القاتل منفرداً من جسم المقتول

إن البعوض فى امتصاصه الدمَ من الجسم أقلُّ من القاتل ضرراً وأشرفُ غاية وأجمل مقصداً ، لانه إن آذى الجسم فقد أبقى على الحياة ، ولأنه يطلب عيشَه وهذا طريقهُ الطبيعى الذى لا يعرف سواه ، ولا يستطيع أن يدبر لنفسه غيره ، ولو استطاع لعافت نفسهُ أن يكون كالانسان يتطوع للشر ، ويتعبّد بالضرّ

إنى وجدت بين الانسان والبعوض شبَهاً قريباً فى صفات كثيرة أنا ذاكرٌ لك طرفا منها وتاركٌ لفطنتك الباقي

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله ، فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر ، فهو يطلب الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة فى مكامن الهلاك ، وهو أشبه شئ بشارب الخمر يتناول الكأس الاولى منها لانه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته ، فتُطمعهُ الاولى فى الثانية ، والثانيةُ فى الثالثة ، ثم لا يزال يُلح بالشراب على نفسه حتى يتلفها ويُودِى بها من حيث يظن أنه يُنعشها ويَجلب اليها سرورها وهناءها

البعوض سيئ التصرف فى طلب العيش لانه لا يسقط على الجسم الا بعد أن يَدُل على نفسه بطنينه وضوضائه ، فيأخذ الجالس منه حِذْره ويدفعهُ عن مطلبه أو يقتله قبل البلوغ اليه ، فمثله فى ذلك مثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير أنهم لا يكتمونها ولا يحسنون الاحتفاظ بها فى صدورهم ولا يبتغون الوسيلة اليها إلا بين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلْقة الاولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ، ويُشهدوا الملأ الأعلى والأدنى عليها ، وهناك يُدرك عدوُّهم مقاصدَهم فيُعِدّ لها عُدَّتَها ويتلمّسُ وجه الحيلة فى إفسادها عليهم هادئاً ساكناً من حيث لا يشعرون

البعوض خفيف فى وطأته ، ثقيل فى لذعته ، فهو كذلك الصاحب الذى يسرك منظَره ، ويسوءك مخبره ، يلقاك بابتسامة هى العذب الزلال ، عذوبة وصفاء ، والسحر الحلال ، جمال وبهاء ، وبين جنبيه فى مكان القلب صخرةٌ لا تنفذُها أشعة الحب ، ولا يتسرب اليها ماء الوفاء ، يقول لك إنى أحبك ليَغلبَك على قلبك ، ويملك عليك نفسَك ، فان تم له ما أراد سلبَك مالَك إن كنت من ذوى المال ، أو استخدم جاهك إن كنت من ذوى الجاه ،

فان لم تكن هذا ولا ذاك أغراك بالسير فى طريق يُسقط مروءتك ويَثلِم شرفك ، فان فاته ما يَشفى به داءَ بِطنته ، لا يفوته ما يطفئُ به نار حقده وحسده

لا يزال البعوض مُلحًّا فى مهاجمتى ، فلا طاقة لى بكتابة سطر واحد أكثر مما كتبت والسلام



الجزع

ياصاحب النظرات

لى صديق سقط فى امتحان (البكالوريا) هذه السنة فأثّر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً فهو لا ينفك باكيا متألما حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول كيف أستطيع معاشرة إخوانى ومعارفى وكيف أستطيع مقابلة والدى وأهلى فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك التى طالما عالجت بها قلوب المحزونين ؟

حقوقى

ليست المسئلةُ مسئلة صديقك وحده بل مسئلة الساقطين أجمعين ، فان المرء لا يكاد يتناول نظره منهم فى هذه الايام إلا وجوهاً قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء ، وجفوناً تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرّجراج ، حتى ليخيَّل اليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم ، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائرَ نفوسهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت

بينهم وبين سعادة العيش وهنائه سداً لاتنفذه المعاول ، ولا تنال
من أيده الزلازل

خفض عليك قليلاً أيها الطالب فالأمر أهونُ مما تظن
وأصغرُ مما تقدر ، واعلم وما أحسبك إلا عالما أنك لم تسقط
من قمّة جبل شامخ الى سفح متحجر فتبكيَ علىَ شظيّة طارت
من شظايا رأسك ، أو دم مسفوح تدفق من بين لَحييك

إنك قد سعيت الى غرض فان كنت هيأتَ له أسبابه ،
وأعددت لهُ عدته ، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله
الباذلون فى مثله ، فقد أعذرتَ الى الله والى الناس والى نفسك
فحرى بك أن لاتحزنَ على مصاب لم يكن أثراً من آثار يديك ،
ولا جناية من جنايات نفسك عليك ، وان كنت قصرت فى تلمس
أسبابه ، ومشيت فى سبيله مشية الظالع المتقاعس ، فما حزنك
على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقبَ فواتهُ قبل وقت فواته ؟
وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه ؟

مالك تبكى بكاء الواثق بمواتاة الايام ومطاوعة الاقدار فهل
تستطيع أن تُبرز لنا صورة العهد الذى أخذته على الدهر أن يكون
لك كما تحب وتشتهى وعلى الفلك أن لايدور الا بسعدك ، ولا

يجرىَ إلا بجدك ، وعلى القلم أن لا يكتب فى لوحه الا ما دللته عليه ،
وأوحيت به اليه

لاتجعل لليأس سبيلا الى نفسك فلعل الأمل يعوض عليك
فى غدك ما خسرتَ فى أمسك ، وامض لشأنك ولا تلتفت الى
ما وراءك ، فان تم لك فى عامك المقبل من طَلِبتك ما أردت فذاك ،
أولاَ فما فقدت إذ فقدت الاَّ ورقة كان كلُّ ما تستفيده منها أن
تشترىَ بها قيداً لرجلك ، وغلاً لعنقك ، ثم ترتبط فى سجن من
سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلّين بأنفسهم
يسومُك من الذل والخسف مالا يحتمله الاسراء فى سجون الآسرين

إن اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتدادَ وإكبارك اياها هذا
الاكبار دليل على أنك كنت تريد أن تجعلها منتهى أملك وغاية
همتك ، وأنك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد ، فان
صدقَتْ فراستى فيك فاعلم أن الله قد خار لك فى هذا المصير وساق
اليك من الخير مالا تَعرف السبيل اليه ، انه ما خيب رجاءك فى
هذا الكمال الموهوم إلا لتطلب لنفسك كمالا معلوماً ، وما صرف
عنك هذه الشهادة المكتوبة فى صفحات الاوراق إلا لتسعى
وراء الشهادة المكتوبة فى صفحات القلوب

إن كنت تبكى على الشرف فبابُ الشرف مفتوح بين يديك

لا شأن للحكومة فيه ولا حاجب لها عليه ، وماهو الا أن تجدَّ فى التزيد من العلم والمعرفة واستكمالِ ما يَنقصك من الفضائل النفسية فاذَا أنتَ شريفٌ فى نفسك وفى نفوس الخاصة من الناس واذًا أنت فى منزلة يحسدك عليها كثير من أرباب الشهادات والمناصب ، ولا حيا الله شرفاً يحيا بورقة ويموت بأخرى ، ولا مجداً تأتى به قعدة وتذهب به قَوْمة ، وان كنت تبكى على العيش ففى أى كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقفٌ على الحاكمين ، وحبائس على المستخدَمين ، وانه لا ينفق درهماً واحداً من خزائنه الا اذا جاءته «حوالة» بتوقيع أمير ، أو إشارة وزير

أيها الطالب : قل لأبيك وأخيك وأهلك وأَصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء ان الذى وهبنى عقلى لم يسلبنيه ، وان الذى صوّر لى أعضائى لم يحُلْ بينى وبين الذهاب بها الى ماخلقت له ، وان الذى خلقنى سوف يهدينى فهو الرزاق ذو القوة المتين



الاتحاد

ألمّت بي كربة من تلك الكُرب التى لا تزال تختلف الى كما تختلف الى المحموم نوباتهُ حيناً بعد حين

كربة ما كفاها أنها حبست قلمى عن الكتابة وفكرى عن الحركة حتى حالت بينى وبين مطالعة الصحف والاشراف على الامة من نوافذها برهة من الزمان ، ثم أدركتنى رحمة الله فاستفقتُ فاذا صخَب ولجب ، وضجيج وضوضاء ، وأصوات ملء الفضاء ، وكظة الأرض والسماء ، فما هو الا سؤال السائل وإجابة المجيب حتى عرفتُ كل شيء

عرفت أن الأمة المصرية فى موقف من أحرج مواقفها ، ومسلك من أضل مسالكها ، وأنها بين ماضغى الاسد وفوق رَوْق الظبي ، وأن حوادث الدهر وعاديات الأيام قد ملكت عليها سبيلَها والتفّت حولها التفاف الحية بالعنق وأحاطت بها إحاطةَ الجامعة باليد والقيد بالرجل ، فمثلها كمثل رجل أحاطت النار ببيته من كل جانب وعلقت بسقوفه وجدرانه ، ونوافذه وأبوابه ، فما

هو بناج إن أراد نجاء ، ولا بباق إن أراد بقاء ، بل مثلها كمثل آخرَ ضـل به سبيله ، واشتبهت عليه مسالكه ، فى ليـلة داجية مدلهمة قد غابت كواكبهـا ، واستسرّت نجومها ، فوقف وقفة الحائر المضطرب يسمع العواء ، والزئير ، والفحيح والصفير ، فلا يعلم أيقدم فيزداد ضلالا ، أم يُحجم فلا يجد مجالا ، أم يقف فيصبح فريسة المفترس ولقمة المزدرد

عرفت أن الأمة المصرية أصبحت لا تدرى ما تريد ، ولا مايراد بها ، ولا تجد من يرد اليها رشدها ، ولا من يمد يده اليها ، ليأخذَ بيدها فى هذا الظلام الحالك ، والليل المدلهم

كثر رؤساؤها ، وتعـددت قادتهـا ، وتنوعت مذاهبهم ، واختلفت طرقهم ، واستحكمت حلقات البـأس بينهم فلم يتفقوا فى شأن من شؤن هذه الأمة على شئ الا على وضع حبلٍ متين فى عنقها قد أخذ كل منهم بطرف من طرفيـه يجذبه اليه جذبة المستقتلِ المستميت حتى بَح صوتهـا ، وضاق صـدرها ، وتعلقت أنفاسها ، وجحظت مقلتاها ، وجف ريقها ، وتحجر لسانها ، وهم ينظرون اليها نظرة المداعب اللاعب ، ولا أحسب أنهم تاركوها حتى يفرقوا بين الرأس والجسد فراقا لا لقاء بينهما من بعده

لو بُعث إرسطو واضع علم المنطق من قبره وأراد أن يضع لهذه الأمة حداً تاماً جامعاً مانعاً لما استطاع الا أن يضع لها هذا الحد « الامة المصرية هى التى تصدق كل مايقال » ، ولقد عرَفَ منها كل أولئك اللاعبين بهـا والعابثين بميولها وأهوائها هذا الخُلق وتلك الطبيعة وكانوا قسـاة القلوب غلاظ الأكباد فنفذوا من تلك الآذان اللينة الى تلك القلوب الطيبة فما بلغوها حتى أخذوا يلعبون بهـا لعب الصبى بكُرته ، ويتلقفونها واحداً بعـد واحد ، فهى لا ترتفع حتى تتناولهـا الصوالجةُ ، ولا تستقر حتى تدفعها الأقدام ، كلٌّ يزعم أنه صديقها ، وكل يزعم أنه يدلها على عدوها ، والله يعلم أنهم أعداؤها قبل الأعداء ، وخصومها أكثر من الخصماء ، وأن السماء بصواعقها ورجومها ، والارض بزلازلها وبراكينها ، أعجزُ من أن تبلغ منها مابلغوه ، أو تجنى عليها ماجنوه

فيأيها الرؤساء والزعماء : أى خير تطلبون لهذه الأمة بعد أن فرقتموها شيعاً ، وصيرتموها أحزابا ، وقطعتم أوصالها ووشائجها وألقيتم العـداوة والبغضاء بين الرجـل وولده ، والرجل وأخيه ، والجار وجاره ، والصـديق وصديقه ، حتى ركب كل فرد من أفرادها رأسه ومضى لسبيله ، وحتى تناكرت الوجوه ، واستوحشت النفوس ، وأصبحت ساحة البلد كساحة الحرب ، لا ترى فيها إلا

نابا يقرع نابا ، وعيناً تنظر شزْراً وصدراً يغلي حقداً ، وقلباً يخفق خوفا وحذراً

كل غرض تزعمون أنكم تسعون اليه لابلاغ هذه الأمة أمنيتها من السعادة والهناء ، لا قيمة له بعد ما أضعتم عليها غرضها من الاتحاد والائتلاف ، بل لا سبيل لها الى بلوغ غرض من أغراضها الا اذا كان الاتحاد قائدها اليه ، ودليلها عليه

ليس هذا التنافر بين أفراد الأمة والتفرق بين جماعاتها حالةً من الحالات الطبيعية التي لابد منها ، ولا مناص عنها ، أو حادثة من الحوادث السماوية التي تحتملها النفوس، وتسكن اليها القلوب، وتطرف عليها العيون إجلالا للسماء ، ورضاء للقضاء ، وانما هي صنعة أيديكم ، وجناية أقلامكم ، ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشأنها ، وخليتم بينها وبين فطرتها ، ما كان يخطر لها ببال أن تتعادى وأن تتباغض ولا كان يوجد بين أفرادها من تحدثه نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الاحزاب

عجز الاختلاف الديني بين عنصري الأمة المصرية عن أن يفرق بين أوصالها ، وأن يحل جامعتها ، وعجز الاختلاف الجنسي أن يؤثر في جامعتها تأثير أمثاله في أمثالها من الجوامع الاخرى ، فكان حريا أن يعجز الاختلاف السياسي ، عما عجز عنه الاختلاف

الديني والجنسي ، لولا أنكم كبرتم ما صغُر من هذا الاختلاف وعظمتم منه ما حقر ، وألححتم عليه إلحاحا شديداً حتى حولتموه الى فتنة شنعاء ، وغارة شعواء

أنا لا أطلب منكم رحمة بهذه الامة ولا شفقة عليها ، فان قلوبا مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحكم أقسى من أن ينفذ فيها سيف الضارب ، أو قلم الكاتب ، وانما أريد أن أحدث الامة المصرية بكلمة لا أريد منها أن تأخذها مني عفواً ولا أن تسلم بها قبل إنعام نظرها فيها ، وعرضها على عقلها ، فذلك مالا أحبه لها ، بل ذلك ما أنقمهُ منها

أيها المصريون ، إني لأكتب اليكم كلمتي هذه وليس على وجه الأرض ولا تحت أديم السماء أمةٌ أحب اليَّ منكم ، وحسبكم من ذلك الحب أني أسمع بالكارثة تحُل بكم ، والنازلة تنال منكم ، فيَشغَلُني من أمركم مالا يشغلني من أمر نفسي ، وتجود عيني في سبيلكم بما لا تجود بأكثر منه في أحرج مواقفها ، وأصعب مواطنها

بهذا القلم الذي يستمد مداده من هذا القلب المخلص اليكم أدعوكم الى الاتحاد والائتلاف وأن تتبايعوا بين يدي الله والوطن على الحب والوُد والصفاء والاخلاص وأن لا تجعلوا لهؤلاء المفسدين

منفذاً ينفذون منه الى قلوبكم،فان طاف بكم طائف من شياطينهم فاعرضوا عنه وامضوا فى سبيلكم، واحذروا أن تكونوا سَيِّقة لرئيس أو لُعبة فى يد زعيم وليكن كل منكم زعيم نفسه، ومسترشد قلبه، فنفوسكم أرحم بكم، وقلوبكم أصدق فى نصيحتكم، فان فعلتم ذلك نجوتم من ذل الانقياد، وسلكتم سبيل الرشاد، وأصبحتم وإذا أنتم أمة واحدة ترى رأياً واحداً وتُحس إحساساً واحداً

واعلموا أن ما بينكم اليوم من الاختلاف فى الرأى والاضطراب فى المذهب إنما هو وهم من الأوهام الكاذبة، وخيال من الخيالات الباطلة، ولو رجعتم الى أنفسكم وأصغيتم الى أصوات قلوبكم، لتبين لكم أنه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو أحرص من أخيه على حب الوطن وإرادة الخير له

سدد الله طريقكم، وأنار لكم سبيلكم، وأفاض عليكم من رحمته وإحسانه ما يفرج كربتكم، ويكشف غمتكم والسلام

النبوغ

من العجز أن يزدرى المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً، وأن ينظر الى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم الى الحيوان الناطق، وعندى أن من يخطئ فى تقدير قيمته مستعلياً، خير ممن يخطئ فى تقديرها متدلياً، فان الرجل اذا صغرت نفسه فى عين نفسه يأبى لها من أحواله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده، فتراه صغيراً فى علمه، صغيراً فى أدبه، صغيراً فى مروءته وهمته، صغيراً فى ميوله وأهوائه، صغيراً فى جميع شؤونه وأعماله، فان عظمت نفسه عظم فى جانبها كل ما كان صغيراً فى جانب النفس الصغيرة

ولقد سأل أحد الائمة العظماء ولده وكان نجيباً أى غاية تطلب فى حياتك يا بُنَىّ، وأى رجل من عظماء الرجال تحب أن تكونه، فأجابه أُحب أن أكون مثلك، فقال ويحك يا بُنَىّ لقد صغُرت نفسك، وسقَطتْ همتك، فلْتبكِ على عقلك البواكى، لقد قدّرتُ لنفسى يا بنىّ فى مبدإ نشأتى أن أكون كعلى بن أبى طالب

فما زلت أجدُّ وأكدح حتى بلغتُ المنزلةَ التى تراها ، وبينى وبين
علىّ ما تعلم من الشأوِ البعيد والمدى المستحيل ، فهل يسرك وقد
طلبتَ منزلتى أن يكون ما بينك وبينى من المدى مثلُ ما بينى
وبين علىّ

كثيراً ما يخطىء الناس فى التفريق بين التواضع وصغرِ
النفس ، وبين الكبر وعلوِّ الهمة ، فيحسبون التذللَ المتملق
الدنىء متواضعاً ، ويسمون الرجل إذا ترفع بنفسه عن الدنايا
وعرَّف حقيقةَ منزلته من المجتمع الانسانى متكبراً ، وما التواضعُ
الا الأدب ، ولا الكبرُ الا سوءُ الأدب . فالرجل الذى يلقاك
متبسما متهللاً ، ويُقبِل عليك بوجهه ويُصغى اليك إذا حدثته ،
ويَزورك مهنئاً ومعزّياً ، ليس صغير النفس كما يظنون ، بل هو
عظيمُها ، لأنه وجد التواضع أليقَ بعظَمة نفسه فتواضع ،
والأدبَ أرفعَ لشأنه فتأدب

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
ولكنّ كِبراً أن يقالَ به كِبْرُ

فان بلغ الذُّل بالرجل ذى الفضلِ أن ينكس رأسه للكبراء
ويترامى على أيديهم وأقدامهم لثماً وتقبيلا ، ويتبذّل بمخالطة
السُّوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه

وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ليكون متواضعاً ، ويُبصبصُ
برأسه بصبصةَ الكلب بذنبه ليكون متأدبا ، ويجلس فى مدارج
الطرق جلسةَ البائس المتسول ، ويمشى مِشيةَ الخائف المُبلَس ،
فاعلم أنه صغيرُ النفس ساقط الهمة لا متواضعٌ ولا متأدب

إنّ علو الهمة إذا لم يُخالطه كِبر يُزرى به ويدعو صاحبه
الى التنطع وسوء العشرةِ كان أحسن ذريعة يتذرع بها الانسانُ
الى النبوغ فى هذه الحياة ، وليس فى الناس من هو أحوجُ الى
علوّ الهمة من طالب العلم ، لان حاجةَ الأمة الى نبوغه أكثرُ
من حاجتها الى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين ، وهل
الصانعون والمحترفون إلا حسنةٌ من حسناته ، وأثرٌ من آثاره ،
بل هو البحرُ الزاخر الذى تستق منه الجداول والغُدران

فياطالبَ العلم كن عالىَ الهمة ، ولا يكن نظرُك فى تاريخ
عظماء الرجال نظراً يَبعث فى قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءلَ
وتتصاغرَ كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص
الحروب ، أو خرافة من خرافات الجن ، وحذارِ أن يملك اليأسُ
عليك قوّتك وشجاعتك فتستسلمَ استسلامَ العاجز الضعيف
وتقولَ من لى بسُلَّم أصعدُ عليها الى السماء حتى أصلَ الى قبة
الفلك فأجالسَ فيها عظماء الرجال

ياطالب العلم أنت لا تحتاج فى بلوغك الغايةَ التى بلغها النابغون من قبلك إلى خَلق غير خلقك ، وجوٍّ غير جوّك ، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ، ولكنك فى حاجة الى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل أوسعَ من رُقعةَ الارض وأرحبَ من صدر الحليم ، ولا يقعدنّ بك عن ذلك مايهمس به حاسدوك فى خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة ، فنعم الخُلُق هى إن كانت السبيلَ الى بلوغ الغاية ، فامضِ على وجهك ودعهم فى غيهم يعمهون

جَناحان عظيمان يطير بهما المتعلم الى سماء المجد والشرف ، علو الهمة ، والفهم فى العلم ، أما علو الهمة فقد عرفته ، وأما الفهم فى العلم فاليك الكلمة الآتية :

العلمُ علمان ، علم محفوظ وعلم مفهوم ، أما العلم المحفوظ فيستوى صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة ، أو تقرأ فى الكتاب صفحة ، فان أشكل عليك شىء مما تسمع فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته

الحافظ يَحفظ ما يسمع لانه قوى الذاكرة ، وقوة الذاكرة قدرٌ مشترَك بين الذكى والغبي والنابه والابله ، لان الحافظة ملكة

مستقلة بنفسها عن بقية الملكات ، وإنك لترَى الشيخ الفانىَ الذى لايميز بين الطفولةِ والهرم ، والذى يَبكى على الحلوى بكاءَ الطفل عليها ، ويرتعد فرقا إذا سمع ابنته تخيف طفلها باسماء الشياطين ، يَسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته مالو دونتَه لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر ، وقيل لأحد العلماء إن فلاناً حفظ متن البخارى فقال لقد زادت نسخة فى البلد

ذلك هو السر العظيم فى كثرة المتعلمين وقلة العاملين ، لان من فهم معلوماً من المعلومات حقّ الفهم أُشرِبَتْه روحه ، وخالط لحمَه ودمَه ، ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه فلا يرى له بداً من العمل به رضىَ أم أبى

لولا أن العلم الدينىّ اليوم علم محفوظ لما وجدتَ فى العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية والترددِ على أبواب الاحياء والاموات فى مزاراتهم أو فى مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً » من يسند النفع والضرر إلى كل من سال لُعابه ، وتمزق إهابه ، ولا وجدتَ فى الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ماورد على ألسنة النبوة والحكمة من مدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامة

فى ارتكاب المنكرات ، والنفور من الصالحات

لو كان العلم المحفوظ علماً وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الاثر وقلة الجدوى ماورد مدح العلم فى كتاب ولا سنة ولا قدسه كاتب أو ترنم بمدحه شاعر ، فاذا سمعت ذكر العلم فاعلم انه العلم المفهوم لا المحفوظ ، وإذا أردت أن تلقّب بالعالِم فلا تلقبْ به من يحفظ بل من يفهم ما يَحفظ ، وآيةُ فهمِ المعلوم تأثُّرُ العالِم به وظهورُه فى حركاته وسكناته وترقرقه فى شمائله ترقرق الصهباء فى وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل اليك فربما مَر بالمعلوم مُحرَّفاً فأخذه على عَلاته ، وأقبحُ ماعرفنا من أطواره أنه يَجمع فى حافظته بين النقيض ونقيضه ، والغث والثمين ، والجيد والزائف فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الادوية الشافية بالعقاقير السامة

وجملة الامر أن الحافظ البحتَ لارأى له فى مبحث فيسئل عن مذهب ، ولا أثرَ لمعلوماته فى نفسه فيُقتدَى به ، ولا ذوق له فى الفهم فيُعتمد على شرحه وتأويله

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التى إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار الى المجد بجناحين ، وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين ، والعلم سلسلة طويلة طرفاها فى يدى آدمَ

أبى البشر وإسرافيل صاحب الصور ، (١) ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من نوابغ العلماء منها حلقة ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع فى العلم الذى مارسه مسألة ، أو كشف حقيقة ، أو أصلح هفوة ، أو اخترع طريقة ، ولن يسلس له ذلك الا اذا كان علمه مفهوماً لا محفوظا ، ولا يكون مفهوماً إلا اذا أخلص المتعلم اليه ، وتعبد له ، وأنس به أنس العاشق بمعشوقه ، ولم ينظر اليه نظر التاجر لسلعته ، والمحترف إلى حرفته ، فالتاجر يجمع من السلع ما يَنفق سوقه ، لاما يغلو جوهره ، والمحترف لايهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء ، أحسن أم أساء

لا يزور العلم قلباً مشغولا بترقب المناصب ، وحساب الرواتب ، وسوق الآمال وراء الاموال ، كما لا يزور قلباً مقسما بين تصفيف الطرة ، وصقل الغرة ، وحسن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام ، بالكأسين كأس المدام ، وكأس الغرام

(١) المراد أن العلوم لايتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها مادامت العقول تفكر فالعمل دائب فيها من ابتداء الدنيا الى انتهائها

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة فى منزله فرأيت بين يديه فتاةً فى الثانية عشرة من عمرها بائسةً عليلة تشكو ألماً فى عنقها ، وجرحاً فى ذراعها ، وهماً فى نفسها ، وتدير فى الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما رُكبت على زئبق رجراج ، فسألتُ ما شأنها فعلمت أن أهلها زوجوها وهى فى هذه السن وعلى هذه السذاجة من رجل وحشىّ الخَلق والخُلق ثم زفوها اليه فحاول أن يفترشها وهى على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراشٍ فامتنعت عليه فأراد اغتصابها فعجزَ فضربها هذا الضربَ الذي رأينا آثاره فى جسمها ففرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الاباء الذى سموه بلادة أو غفلة وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفارّ من السجن إلى سجنه مرة أخرى ، وهنالك عاد زوجها الى عادته معها فعادت هى الى فرارها فعاد أهلها الى قسوتهم وجبروتهم ، فلما أعياها الأمر خرجت الى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا مستقراً حتى رُفع إلى ذلك الحاكم شأنها بعد أيام

فآواها إلى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذى كانت فيه بين ذراعى وجبهةِ الأسد ، وما فرغ من هذه القصة حتى رُفعت اليه حادثةٌ أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها إلا أن الزوج فى هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقرَ شقىُّ ثمودَ ناقته من قبل

إن المرأة المصرية شقية بائسة ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلُها وضَعْف مداركها

انها لا تحسن عملا ولا تعرف باب مرتَزق ولا تجد بين يديها سِلعة تتّجر بها وتقتات منها إلا قلبَ الرجل ، فان استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أوْ لاَ فلا مفر لها من الشقاء من المهد إلى اللحد

ودون امتلاكها هـذا القلبَ القاسىَ المتحجر أهوالٌ عظام وعقبات لو كلف الرجل على ما به من قوة وأيْدٍ وسَعة حيلة أن يجتاز عقبة واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو تقدير أولئك الجهلاء أولياء أمر تينك الفتاتين استثقل أهلها ظلها وبَرِموا بها وحاسبوها على المَضغة والجرعة ، والقوْمة والقَعدة ، ورأَوا أنها عالة عليهم ، وأن لا حق لها فى العيش فى

منزل لا يستفيد من عملها شيئاً ، وودوا لو طلعَ عليهم وجه الخاطب يحمل فى جبينه آية البشرى بالخلاص منها

وإن قوماً هـذا مبلغ عقولهم من الفهم وقلوبهم من القسوة وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها فى اختيار الزوج أو يحسنوا الاختيار لها

فاذا دخلتْ هـذا المنزلَ الجديد الذى لا تعرفه ولا تعرف شأناً من شؤون صاحبه دخلت فى دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل

فان كانت ذاتَ جمال أو مال فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق ، وإلا فهى تقاسى كل صباح ومساء فى الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع ، آلاماً جثمانية تُطفئ نور شبيبتها ، وتُذبل زهرة حياتها ، وتلاقى فى سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء فى موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسامِ فى موضع البكاء إن بكى ، ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، والخبث والرياء ، وهى على ذلك تنتظر من فم زوجها فى كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الاعدام

ليست كلمة الاعدام من قبيل الاستعمال المجازى فما أنسَ

لا أنسى ليلةً زرت فيها صديقاً لى فرأيت عنـد باب منزله امرأة بائسة ليس وراء مابهـا من الهم غاية ، وكأنمـا هى الخِلال رقة وذبولا ، ووراءها صِبية ثلاث يدورون حولها ، ويجاذبونها طرف ردائهـا ، فتُسبل فضـل مئزرها على مآقيها المقرحة رأفةً بهم أن يُلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها ، فسألتُها عن شأنها فأخبرتنى أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مرّ عليهـا زمن طويل و « الادارة » تماطلها فى إنفاذه ، فجاءت الى هـذه الصديق تستعين به على أمرها ، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها فى مقاساة الشدة ، ومعالجة القوت ، ما أسال شؤوننا ، وصعّد زفراتِنا ، وأمسكنا له أكبادنا خشيةً أن تَصدّعا

خففّت أنا وصديقى شيئاً من آلامها فانصرفت ، وفى صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمّى دماغيةٍ فسألنا عنها فعلمنا أنها صاحبتنا بالأمس وأنها ماتت شهيدةَ الزوجية الفاسدة

أيها الرجل ، إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلّمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هـذه الحرفة النكدة ، وإلا فأحسنْ اليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك

إن كنت زوجاً فلا تطردْها من منزلك بعد أن تقضيَ
مأربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها ، وإن كنت أباً فهذه
فلْذة كبدك فلا تَضقْ بها ذَرعاً ولا تُلق بها في حِجر وحش
ضارٍ يأكل لحمها ، ويمتص دمها ، ثم يلقي اليك بعظامها

ويا أيها المحسنون ، والله لا أعرف لكم باباً في الاحسان
تنفذون منه الى عفو الله ورحمته أوسعَ من باب الاحسان الى المرأة

افتحوا لها المكاتب ، وابنوا لها المدارس ، وعلموها من العلم
ما يرفع همتها ، ويرقي آدابها ، ومن الصناعة ما يناسب قوتها ،
وما يُشبع جوْعتها ، إن نَبا بها دهر ، أو تجهّم لها حظ

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلمُ فيها أولادُكم قبل المدرسة ،
وأدّبوها ليتربى في حجرها المستقبلُ العظيم ، للوطن الكريم

البيان

قال لي أحد الرؤساء ذات يوم « إني لتأتيني أحياناً رِقاع
الاستعطاف فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة
لولا أن الله تعالى يلهمني نياتِ كاتبيها وأين يذهبون ، ولولا ذلك
لكنت من الظالمين ، »

ذلك ما يراه القارئ في كثير من المخطوطات التي يخطها اليومَ
كاتبوها في الصحف ورِقاع الشكوى والكتب الخاصة
والمؤلفات العامة

هزلٌ في موضع الجد ، وجد في موضع الهزل ، وإسهاب
في مكان الايجاز ، وإيجاز في مكان الاسهاب ، وجهلٌ بفرْق
ما بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتأديب ، والاستعطاف
والاستخفاف ، وقصورٌ عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه
بين السُوقة والأمراء ، والعلماء والجهلاء ، حتى أن الكاتبَ ليُقيمُ
في الشوكة يُشاكها ، مَناحة لا يقيمها في الفاجعة يُفجعُ بها ،
ويكتب في الحوادث الصغار ، ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث

الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه ، ويناجى أجيره ، بمثل ما يناجى به أميره

ذهب الناس فى معنى البيان مذاهبَ متفرقة واختلفوا فى شأنه اختلافاً كثيراً ولا أدرى علامَ يختلفون ، وأين يذهبون ، وهذا لفظُه دال على معناه دلالة واضحةً لا تشتبه وجوهُها ، ولا تتشعب مسالكها

ليس البيانُ إلا الابانةَ عن المعنى القائم فى النفس وتصويرَه فى نظر القارئ أو مَسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ولا يقصّر عنه ، فان علِقَتْ به آفة من تينك الآفتين فهو العِيّ والحصَر

جَهل البيانَ قوم فظنوا أنه الاستكثارُ من غريب اللغة ونادر الأساليب فأغصّوا بها صدور كتاباتهم وَحشوْها فى حلوقها حشواً يَقبض أوداجَها ويحبس أنفاسَها ، فاذا قُدّر لك أن تقرأها وكنتَ ممن وهبهم الله صدراً رحْباً ، وفؤاداً جلْداً ، وجَناناً يحتمل ما حُملَ عليه من آفات الدهر ورزاياه ، قرأتَ متناً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذَر فى القول والتبسط فى الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاهُ حيث وقع ، فلا يزالون يجترّون بالكلمة اجترارَ الناقة بِجرّتها ، ويتمطّقون بها

تمطق الشفاه بريقتها ، حتى تسفّ ، وتتبذل ، وحتى ما تكاد تُسيغها الحلوق ، ولا تَطرف عليها العيون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً

يُخيل إلىّ أن الكتاب فى هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتاباتهم أشبه شئ بالأحاديث النفسية التى تتلجلج فى نفس الانسان حينما يخلو بنفسه ، ويأنس بوحدته ، فانى لا أكاد أرى بينهم من يضع فمه على أُذُن السامع وضعاً محكماً ، ويَنفُثُ فى رُوعه ما يريد أن يَنفث من خواطر قلبه ، وهواجس نفسه

البيان صِلة بين متكلم يُفهم ، وسامع يَفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلةُ الكاتب من الرفعة والسقوط ، فان أردتَ أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدةَ فى البيان قاعدتَك ، واحرص الحرصَ كلّه على أن لا يخدَعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين

ما أُصيبَ البيانُ العربى بما أُصيبَ به الا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية ، ولا أدرى كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب فى أوصافهم ونعوتهم ، ومدحهم وهجوهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل

أن يَعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنّبون ، ويعظون وينصحون ، ويتغزلون وينَسِبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأى لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمدَّ تلك الروحَ العربية استمداداً يملأ ما بين جوانحه حتى يتدفقَ مع المداد من أُنبوب يراعه على صفحات قرطاسه

إنى لأقرأ ما كتبه الجاحظُ وابن المقفع والصاحب والصابى والهمَذانى والخارَزمى وأمثالهم من كتّاب العربية الأولى ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون فى هذه الصحف والأسفار فأشعرُ بما يَشعرُ به المنتقلُ دفعةً واحدة من غرفة محكمة نوافذها ، مسبلة ستورها ، الى جوّ يسيل قَرا وصِرا ، ويترقرق ثلجاً وبَرَداً

ذلك لأنى أقرأ لغةً لا هى بالعربية فأغتبطَ بها ، ولا هى بالعامية فأتفكّه بهَذيانها ومجونها

رأيت أكثر الكاتبين فى هذا العصر بين رجلين ، رجلٌ يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها فى أساليبها من المؤلفات الحديثةِ والروايات المترجمة ، وربما كان كتّاب تلك المخطوطات أحوج من قارئيها الى الاستمداد ، فاذا علقتْ بنفسه تلك الملكةُ الصحفية ألقى بها فى رُوع قارئ كتابته أدونَ مما أخذها فيُدْلى به آخذُها كذلك الى غيره أسمجَ صورة وأكثرَ

تشويهاً ، وهكذا حتى لا يَبقى فيها من روح العربية الا كما يَبقى من الأطلال البالية بعد كرّ الغداة ومَرّ العشىّ ، وطالبٌ قُصارَى ما يأخذه عن أستاذه نحوُ اللغة وصَرفها وبديعها وبيانها ورسمها واملاؤها ومفرداتها ومتونها ومؤتلِفاتها ومختلِفاتها وغير ذلك من آلاتِها وأدواتها ، أما روحُها وجوهرها فأكثر أساتذةِ البيان فى المدارس علماءُ غيرُ أدباء ، وحاجةُ طالب اللغة الى أستاذ يُفيضُ عليه روحَ اللغة ويوحى له بسرها ، ويُفضى اليه بلبها وجوهرها ، أكثرُ من حاجته الى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتِها ، وعندى أن لا فرقَ بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان ، فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدها الاّ من أستاذ كملتْ أخلاقه ، وحسنت آدابه ، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مُبين

ولا يُقذفَنّ فى رُوع القارئ أنى أُحاول استلابَ فضل الفاضلين أو أنى أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان ، فما هذا أردت ، ولا اليه ذهبت ، وإنما أقول إن عشرةً من الكتاب المجيدين ، وخمسةً من الشعراء البارعين ، قليلٌ فى بلد يقولون عنه إنه بلد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب

وبعد فانى لا أرى لك يا طالب البيان العربى سبيلاً اليه الا مزوالةَ المنشئَات العربية منثورِها ومنظومِها والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهّم لا وقوفَ المتنزه المتفرّج ، فان رأيت أنك قد شغفت بها ، وكلفتَ بمعاودتها والاختلاف اليها ، وأنْ قد لَذّ لك منها ما يَلَذ للعاشق من زَوْرة الطيف فى غِرَّة الظلام ، فاعلم أنك قد أخذتَ من البيان بنصيب فامض لشأنك ولا تلوِ على شئ مما وراءك حتى تبلغَ من طَلِبتك ما تريد

ولا تحدثنَّك نفسك أنى أحملك على مطالعة المنشئات العربية لأسلوب تسترقه ، أو تركيب تختلسه ، فانى لا أحب أن تكون سارقاً ولا مختلساً ، على أنك إن ذهبتَ الى ماظننتَ أنى أذهب اليه فى نصيحتك لم يكن دركك دركا ، ولا بيانك بيانا ، وكان كلُّ ماأفدتَه (١) من ذلك أن تُخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تَناسب بين أجزائها ، وبُردة مرقعة لا تَشابه بين ألوانها ، وإنما أريد أن تحصّلَ لنفسك ملكة فى البيان راسخة تَصدر عنها آثارها بصورة واحدة حتى لا يكون شأنك شأن أولئك الذين قد علِقتْ ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها فقنِعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ماأرادوا ،

(١) أفاد واستفاد بمعنى

فاذا جَدّ الجِد وأرادوا أنفسهم على الافصاح عن شئ من خلجاتِ نفوسهم رجعوا الى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ، فان وجدوا بينها ما يَدل على المعنى الذى يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً ، وحشروه فى كتابتهم حشراً ، وإلاّ فاما أن يتبذّلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة ، أو يهجُروا تلك المعانى الى أخرى غيرها لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها ، فهم لا بد لهم من إحدى السوأتين ، إما فساد المعانى واضطرابها ، أو هُجنة التراكيب وبشاعتها

فاحذر أن تكون واحداً منهم أو أن تصدق مايقولونه فى تلمّس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيقُ من أن تتسع لجميع المعانى المستحدثة ، وأنهم ما لجئوا الى التبذّل فى التراكيب إلاّ لاستحالة الترفع فيها ، فاللغة العربية أرحب صدراً من أن تضيق بهذه المعانى العامة المطروقة بعد ماوسعتْ من دقائق العلوم مالا قِبلَ لغيرها باحتماله وقدِرَتْ من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وسرائر القلوب على الذى عَيَّتْ به اللغات القادرات

وليس الشأنُ فى عجز اللغة وضيقها وإنما الشأن فى عجز المشتغلين بها عن الاضطراب فى أرجائها ، والتغلغل فى أثنائها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البِلة التى لا تَثلج صدراً ، ولا تَشفى أُواماً

وكل ما يُعدّ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلامٍ لهذه
الهنات المستحدثة وهو فى مذهبي أقل الذنوب جرماً ، وأضعفها
شأناً ، مادمنا نعرف وجه الحيلة فى علاجه بالاشتقاق إن وجدنا
السبيلَ اليه ، أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق ،
فالأمرُ أهون من أن نحار فيه ، وأصغرُ من أن تقضىَ أعمارَنا
فى الوقوف ببابه ، والأخذِ والرد فى شأنه ، والمساجلة والمناظرة
فى اختيار أقرب الطرق اليه ، وأجداها عليه

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تُزاولَه
من المنشئات العربية فليس كلُّ متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر
يضرك ، ولا أحسَبك إلا واقفاً بين يدىْ هذا الأمر موقفَ
الحيرة والاضطراب ، لأن حسن الاختيار طَلِبةٌ تتعثر بين
يديها الآمال ، وتتقطعُ دونها أعناقُ الرجال ، فالجأ فى ذلك إلى
فطاحل الأدباء الذين تَعرفُ ويَعرفُ الناس منهم ذوقاً سليماً ،
وقريحة صافية ، وملكة فى الأدب ، كأنها مِصفاة الذهب ، فان
فعلتَ وكنت ممن وهبهم الله ذكاءً وفطنة وقريحة خصْبة لينة
صالحة لِنماء ما يُلقى فيها من البذور الطيبة عدت وبين جنبيك
ملكةٌ فى البيان زاهرة يتناثر منها منثورُ الأدب ومنظومه
تناثر الورود والأنوار ، من حديقة الأزهار

السريرة

لو كُشف للانسان عن سريرة الانسان لرأى منها ما يرى
من غرائب هذا الكون وعجائبه أعمى أدركتْه رحمةُ الله بعد
طول مِحنته فارتدّ بصيراً

تتراءى لك السريرةُ فى ظاهرها كأنها أديم السماء ، أو
صفحة الماء ، فان بدا لك أن تكتنهِ باطنها فانك غير بالغ من ذلك
مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق السماء فترى ماوراءها من
بدائع الكائنات ، وتغوص فى أعماق الماء فتشاهد ما فى باطنه من
عجائب المخلوقات

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريّثُ ريثما تمُجّ الشمس لُعابها
من نافذة غرفته فاذا هو مائج وضّاء يروحُ ويغدو رواح السانحات ،
وغُدوّ البارحات ، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار
يصورها فى نظره تصويراً يخيَّل اليه أنه يكاد يلمسها بيمينه ، ويعجز
عن اكتناه السريرة فلا يجد الى الوصول اليها سبيلاً

وقف آدمُ أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى

عليه ، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه ، فلجّ بهم
الشوق اليها لجاجاً طار بعقولهم ، وذهب بألبابهم ، فتراموا على
أقدام المنجمين والعرّافين لثماً وتقبيلاً ، وابتدروا النُّصُب والتماثيل
ركوعاً وسجوداً ، وهاموا بزاجراتِ الطير والضوارب بالحصى
هيام الابل العطاش بمنازل الماء يطلبون ماوراء السريرة والسريرةُ
كنز مرصود لا تنجع فيه النفثات ، ولا تجدى معه العزائم والرُّقى

إنك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكوكب فى جنح
ليل مُبرد ، ويفترّ ثغره عن الأنوار ، افترار الاكمام عن الازهار ،
فتحسدُه على نعمته وسعادته ، وتتمنى أن لو منحك الله مامنحه من
هناء ورغد ، وإنّ بين جنبيه لو تعلمُ هماً يعتلج ، وقلباً يَدِب فيه
اليأس دبيب الآجال فى الأعمار ، وكبداً مقروحة لو عرضها في
سوق الهموم والأحزان ، ماوجد من يبتاعُها منه بأبخس الاثمان

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه الحُلو ، وثغره
المبتسم ، ويروقك من وُدّه كلفه بك ، وإعظامه لك ، وإعجابه
بشمائلك ومحاسنك ، وتشيُّعُه لآرائك ومذاهبك ، ولو كُشف
لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو استطعت أن تبتاع
أقدام السُّليكِ (١) بجميع ماتملك يمينك ففررت من وجهِ فرارك

(١) السليك رجل معروف بسرعة العدو فى العرب

من وجه الاسود السالخ (١) ووددتَ بجدع الانف أن لا يصافح
وجهُك وجهَه من بعدها حتى فى جنة النعيم

لولا ما أسدلَ الله دون السرائر من الحجب لبُدّلت الأرض
غيرَ الأرض ، وكان للكون نظام غيرُ هذا النظام ، وللتاريخ
صفحات غيرُ هذه الصفحات

لو علم الجند أنهم لايحاربون إلا ليضعوا « نيشانا » فى صدر
القائد ، أو جوهرة فى تاج الملك ، وأنهم كثيراً ما يكونون
مخدوعين فى وقائعهم ومواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل الدين ،
لما دالت الدول ولا انتقلت التيجان ، ولضَعُفَ ظهر الارض عن
حمل ما فوقه من بنى الانسان ، ولو علم جهلة المتدينين أن رؤساء
الأديان كثيراً مايشترون عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من هذه
المدهشات الدينية ، والأحلام النفسانية ، ويملأون قلوبهم بالمخاوف
والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلامة بثمن غال لضعفتْ أصوات
النواقيس ، وقَصُرت قامات المنائر ، ولهلك أرباب الطيالس
والقلانس جوعا وسغبا ، ولاصبحت حبّات السُّبح أكسد فى
سوق الأديان من بعْر النوق فى سوق الأنعام ، ولو علم الابن أن
أباه يحبه لما يرجوه من منفعته فى شيخوخته ، وأنه لايعجب إلا

(١) ذكر الحيات

بنفسه فى إعجابه به وثنائه عليه ، ولا يفخر إلا بقوة عقله وحسن
تدبيره فى فخره بذكائه ونبوغه ، لضعفت صلةُ الوُد بينه وبينه ،
ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائجُ وتلك الأواصر ،
ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب
نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ويَعُد ليومها الساعات والايام ، لما
وثقت بوُده ، ولا اطمأنت لعهده ، ولما كان للمنازل سقوف
تُظل الاسرَّة والمهاد

زيد وعمرو

أراد داود باشا أحدُ الوزراء السالفين فى الدولة العثمانية أن
يتعلم اللغة العربية فأحضرَ أحد علمائها وأنشأ يتلقى عليه دروسها
عهداً طويلا فكانت نتيجةُ علمه ماستراه

سأل شيخه يوماً ما الذى جناه عمرو من الذنوب حتى استحق
أن يضربه زيد كل يوم ويقتّله تقتيلا ويبرّح به هذا التبريح المؤلم ،
وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلةَ من يضعُف عن الانتقام
لنفسه ، وضربِ ضاربه ضربةً تقضى عليه القضاء الأخير

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً ويضرب
الارض بقدميه فأجابه الشيخ ليس هناك ضاربٌ ولا مضروب ،
وإنما هى أمثلة يأتى بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين ،
فلم يعجبه هذا الجوابُ وأكبرَ أن يعجزَ مثلُ هذا الشيخ عن
معرفة الحقيقة فى هذه القضية فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم
أرسل الى نحوىّ آخر فسأله كما سأل الاولَ فاجابه بنحو جوابه
فسجنه كذلك ، ثم مازال يأتى بهم واحداً بعد واحد حتى امتلأت

السجون وأقفرت المدارس وأصبحت هـذه القضية المشؤومة
الشغل الشاغل له عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ، ثم بدا له أن
يستوفد علماء بغـداد فأمر باحضارهم فحضروا وقد علموا قبـل
الوصول اليه ماذا يُراد بهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من
الفضل والحذق والبصر بموارد الامور ومصادرها ، فلما اجتمعوا
فى حضرة الوزير أعاد عليهـم ذلك السؤال بعينه فاجابه الرئيس
إن الجناية التى جناها عمرو يامولاى يستحق أن ينال لاجلها من
العقوبة أكثر ممـا نال ، فانبسطت نفســه قليلا وبرقت أسارير
وجهه وأقبل على محدثه يسأله ما هى جنايته ، فقال له إنه هجم على
اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو فسلط النحويون عليه زيداً
يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله « يشير الى زيادة واو عمرو
واسقاط الواو الثانية من داود فى الرسم » فأعجب الوزير بهـذا
الجواب كل الاعجاب ، وقال لرئيس العلماء أنت أعـلم من أقلته
الغبراء ، وأظلته الخضراء ، فاقترح علىّ ما تشاء ، فلم يقترح عليه
سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين، فأمر باطلاقهم وأنعم عليهم
وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات

أحسن داودباشا فى الأولى وأساء فى الاخرى ، ولو كنت
مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم

عهداً وثيقاً أن يتركوا هـذه الامثلة البالية الى أمثلة جـديدة
مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم وتحول بينهم
وبين النفور من منظر هذه الحوادث الدموية بين زيد وعمرو ،
وخالد وبكر

لا ينال المتعلم حظه من العـلم إلا إذا استطاع تطبيقه على
العمل والانتفاعَ بهِ فى مواضعه ومواطنه التى وضع لاجلها ، ولن
يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلمه من الامثـلة والشواهد
الملائمة لقواعد ذلك العـلم وافتنّ له فى ايرادها افتنانا يقرّب الى
ذهنه تلك الصلةَ بين العلم والعمل ويسهل له الوصول الى القدرة
على تلك المطابقة ، وإن أكثر المتعلمين فى مدرسة الازهر أبعـد
الناس عن القدرة على المطابقة لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف
عند المثل الواحد لـكل قاعدة من قواعد العـلم ، فلو أنك أردت
أحـدهم على أن يخرج فى المنطق عن الحيوانية والناطقيـة ، وفى
النحو عن ضرب زيدٍ عمراً وقتـلِ خالدٍ بكراً ، وفى البيان عن
تشبيه زيد بالبدر واستعارة الاظافر للمنية ، وفى الصرف عن فعللَ
وافعوعل ، لوجدت فى نفسه من الجهد والمشقة وفى لسانه من العِيّ
والحصر ما يحزنك على أعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر ،
ثم لم يحصل من بعدها على طائل

علامَ يتعلم الطالب النحو والصرف ان عجز عن أن يقرأ صحيحاً فى كل كتاب وكل صحيفة ، وعلام يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه وعن البيان بياناً فصيحاً يضمّنه ما يشاء من أغراضه ومقاصده ، وعلامَ يتعلم المنطق إن عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها فى كل مناحيه ومذاهبه ، وإن لم يكن الموضوعُ الانسان ، ولا المحمولُ الحيوان الناطق

عجيب جداً أن يفهم الصانع الامىُّ أن العلم للعمل فلا يتعلم النجارة الا ليصنع الابواب والصناديق ، والحِدَادةَ إلا ليصنع الاقفال والمفاتيح ، وأن يجهل المتعلمُ هذه القضية الضرورية فلا يهمه من العلم إلاَّ الاستكثارُ من المعلومات والقواعد وان عجز بعد ذلك عن التصرف فيها ، والانتفاع بها فى مواطنها

مادامت مدرسةُ الازهر على هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها فى مستقبل الايام أن ينبغَ منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الامة انتفاعَ أمثالِها بامثالهم فى مشارق الارض ومغاربها ، فويل للعلم من العلماء

ابو الشمقمق [1]

إن كثيراً من الفقراء لم تمتدَّ يدُ الفقر الى رؤوسهم ، كما امتدت الى جيوبهم ، فهم يدركون كما يدرك الاغنياء ، ويفهمون كما يفهمون ، وكما أن فى أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس ، كذلك فى فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس

ولقد جلستُ فى منزلى صبيحةَ يوم مع قوم من الماديين المستهترين الذين ملأ المالُ فراغ أذهانهم حتى أنساهم كلَّ شئ وأنساهم أنفسهم قبل ذلك ، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الاحاديث الذهبية ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابحة ، وزارع يَفخَرُ بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ ، وآخر يعلل نفسه بكثرة الغَلات وارتفاع الاسعار ، والكل متفقون على أن السعادة التي أظلّتهم أجنحتُها فى هذا العهد الاخير عهد العدل عهد الحرية والمساواة عهد الترقى والعُمران هى أشبه شىء بسعادة المتقين فى جنات النعيم

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يَخزُرُ طرفَه ، ويهز

(١) هو فى الاصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر

رأسه ، ويصعّد أنفاسَه ، ويَعضّ أضراسه ، ويئن من قلبه أنيناً
خفياً يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر

فيالك بحراً لم أجد فيه مَشربا   على أن غيرى واجدٌ فيه مَسبحا

فما هو إلا أن قضوا لُباناتهم من الكلام الملول والحديث
المعاد حتى قاموا يطيرون مع الآمال ، وراء الأموال ، فأشرت
إلى أبى الشمقمق أن يتخلف ففعل فسألته مالك لم تشترك معنا
فيما كنا فيه ، فأجاب : إنى أكره الفضول فى الحديث وقد فرّق
المقدار بينى وبينكم فى المال ، فلا أشترك معكم فى المقال ، فقلت :
ألا يعجبك ياأبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التى نهضتها
الأمة المصرية فى العهد الأخير وأنت فرد من أفرادها ، وجزء
من أجزاء جسمها ، فنهوضها نهوضك وسقوطها سقوطك ،
والأمة كما تعلم هى الفرد المكرّر والواحد الدائر ، فأنت الأمة
والأمة أنت ، فقال والله لاأدرى هل تكلمنى بلسان الصوفية
ولستُ بصوفىّ ، أم بلغة الفلاسفة ولا أفهم للفلسفة معنى ،
وكأنك تقصدنى بالفرد المكرّر والواحد الدائر ، فان كنت تريد
أنى فرد مكرّر كثيرُ الأشباه والأمثال فى العوز والفاقة ، وواحدٌ
لاسَند لى ولا عضد ، ودائرٌ فى مدارج الطرق ومَعابر السبل ،
فقد أصبت وأحسنت ، وإن كنت تريد معنى غير ذلك ، فأنا

لاأفهم إلا كذلك ، فهل لك أن تعفينى من هذه المعمّيات وتَزنَ
كلامك على قدر عقلى وتحدّثنى فيما يتناوله سمعى وبصرى . فقلت
أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف ، ولا أريد إلا أن الأمة
ليست فى الخارج شيئاً غيرَ أفرادها فاذا سعدتْ أو شقيت
فالسعداء والأشقياء أبناؤها ، وحسبُك أن ترى تقدم الأمة
المصرية فى ثروتها وعمرانها ، وبذخها وترفها ، وكثرة ناطقها
وصامتها ، فتَسعدَ بسَعادتها وتُسر بسرورها ، فقال إن لم تبين لى
سهمى من هذه السعادة ونصيبى من ذلك الارتقاء فلا أُصدّقُ
سعادة ولا أتصور ارتقاء ، وما دمت أرى أن لى هُويّةً مستقلة
عن هُويّةِ سواى من السعداء ، ويداً تقصر عما يتناولونه ، وبطناً
لايمتلئ بما تمتلئ به بطونهم ، وما دمت لاأرى واحداً بينهم يَلبَس
معى ردائى المزق ، وقميصى المخرّق ، ويقاسمُنى همى ، ويشاطرنى
فقرى ، فهيهات أن أسعدَ بسعادتهم ، وأُسر بسرورهم ، وهيهات
أن أفهم معنى قولك أنت الأمة والأمة أنت ، فقلت إن الغيث
إذا نزل يسق الخصيب والجديب ، والنجد والوهد ، وينتظمُ من
الأرض الميتَ والحى ، فقال كلُّ سماء فيها هذا الغيثُ إلا سماء
مصر ، فانى أراه

كبدرٍ أضاء الأرض شرقا ومغربا   وموضعُ رجلى منهُ أسود مظلم

مالى وللروض الذى لاأستنشق رُوحه وريحانه ، والقصر
الذى لاأدخله مالكا ولا زائراً ، وهب أن الطرق مفروشة
بالحرير والديباج لابالحصى والمدر فهل أبقى لى الدهر من حاسة
اللمس شيئاً فأُميزَ بين خشن الملمس وناعمه ، ومعوج الأَرض
ومستقيمها ، وهبنى إذا مشيتُ خضت فى بحر مائج بأنوار
الكهرباء فهل يغنى ذلك عنى شيئاً ، وهل يكون نصيبى منه إلا
انكشاف سوأتى وزثاثتى لاعين الناظرين ، ولقد حُبّبَ الىّ
الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفينى
مؤونة الرتق والفتق ، والتمزيق والترقيع ، وبعد فما هو الارتقاء
الذى تزعمه وتزعم أنه يعنينى ويشملنى ، هل ترقت غرائز الاحسان
فى نفوس المحسنين ، وهل خفقت قلوب الاغنياء رحمة بالفقراء ،
فقلت نعم ، أما ترى الاموال التى يتبرع بها الاغنياء للجمعيات
الخيرية والتى ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب
والمستشفيات ، فقال ان هذه التى تسميها مكارم ، لايسميها أصحابها
الا مغارم ، ألجأهم اليها التملق للكبراء ، وحب التقرب من الرؤساء ،
والطمع فى الزخرف الباطل ، والجاه الكاذب

مالى وللمدارس والمستشفيات وأَنا جوعان خبز لا جوعان
علم ، ولا مرض عندى الا مرض الفاقة ، فهل أجد فى المدارس

خبزاً أو فى المستشفيات دواء كذلك الدواء الذى وصفه أحد
الاطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا اليه مرضاً فعرف سر
مرضه فاعطاه علبة وكتب عليها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما
ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى ، فلا قدرة لى
على العمل ، وعندى صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملا أو
يحسن صنعاً ، ولقد كان لى فى الزمن الذى تذمونه ، والعهد الذى
تنقمون عليه ، منفسح عظيم فى منازل المحسنين ، ومورد نمير من
صدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل من تحنن الاغنياء ورحمتهم بالفقراء
البائسين ، أما اليوم فانى أبيت طاوياً ، وأصبح شاكياً ، وأغدو
راجياً ، وأروح يائساً

وهنا أرسل من جفنيه دمعة ليست بأول دمعة بلّل بها رداءه
ولكنها أحرّ من سابقاتها لانه لم يبك فى غير خلوته غير هذه المرة
ثم نهض ومد يده الىّ مودّعاً فمسحت يمينى دمعة واحدة
من دموعه الكثيرات

دورة الفلك [1]

أيها القصر : أين الكوكبُ الزاهر الذى كان يتنقل فى أبراجك، أين النسر الطائر الذى كان يحلق فى أجوائك ، أين الملك القادر الذى كان يطلع شمساً فى صباحك ، وبدراً فى مسائك

أين الاعلام والبنود تخفق فى شرفاتك ، والقواد والجنود تخطر فى عرَصاتك ، أين الشفاه التى كانت تلثم ترابك ، والافواه التى كانت تقبل أعتابك ، والرؤوس التى كانت تطرق لهيبتك ، والقلوب التى كانت تخفق لروعتك

أين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذنَ الجوزاء . ويهدر فتتلفّت عيون السماء ، أين الفلك الذى كان يدور بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والابرام والنقض

كيف استطاع الدهر أن يمدّ يده الى شملك فيبدده ، وجمعك فيفرقه ، وسمائك فيكوّرَ شموسها ، وأرضكَ فيزعج أنيسها

أين كانت أسوارك وأبوابك ، وحراسك وحجابك ، وكيف

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد

عجزت أن تمتنع على القضاء ، وتصدّ عن نفسك عادية البلاء

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه
واذْ ذُعرتْ أطلاؤه وجآذره

تحمّل عنه ساكنوه وهتّكت
على عجل أستارُه وستائره

أيها السجن : حلّ بارجائك اليومَ ملك تضيق به الدنيا فكيف وسعته ، وتعجز عن احتماله قُلل الجبال الرواسى فكيف احتملته رفقاً به لا تزعجه ولا تحرج صدره ، وضم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطفْ عليه عطفَ المرضعات على الرضيع ، ارحم هذا الجلالَ الذاهب ، والعز الزائل ، والرأس الذى بيضته حوادث الدهور ، والظهرَ الذى قوسته أيدى المقدور

أيها الدهر : ألا تستطيع أن تنام عن هـذا الانسان لحظة واحدة ، ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خلصة لا يمازجها كدر ولا يشوبها عناء .

إن كنت تريد أن تسلبه فلم أعطيته ، وإن كنت تريد أن تُعطيه فلم سلبتَه ، كان خيراً له أن لا تعطيه حتى لا تفجعه فى تلك العطية وأن لا تسقيه كأس السرور حتى لا يتجرعَ ذلك السم الذى أودعته تلك الكأس

أيها الراحل المودع : كان ارتفاعُك عظيما فوجب أن يكون سقوطك عظيما

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصةً فلما ذقتَ مرارتها جزعت وقطَّبت كما يَجزع ويقطّب كلّ من ذاق من الشراب مالا عهدَ له به ، ولا قبل له باحتماله

لا تأسَ على مافاتك فانما كان وديعة من ودائع الدهر أعاركها برهة من الزمان ثم استردها

إنك لاتدرى لعل الله أراد بك خيراً فمنحك قبل حلول أجلك فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك ، وتراجع فيها فهرسَ أعمالك ، فان رأيت خيراً اغتبطت ، أو شراً استغفرت

قضى الله أن يقيم فى كل حين لهذا العالَم الغافل الراقد عبرة من العبر تزعجه من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته

من بات بعدك فى ملك يسر به فانما بات بالاحلام مغروراً

تأبين فولتير [1]

فى مثل هذا اليوم ، منذ مائة عام ، مات الرجل العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير

مامات فولتير حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال ، وأثقال جلائل الاعمال ، وأثقال الامانة العظمى التى عرضت على السموات والارض فأبين أن يحملنها فحملها وحده ، وهي تهذيب السريرة الانسانية فهذبها فاستنارت فاستقام أمرها

مات فولتير مرذولا محبوباً فى آنٍ واحد ، يبغضه الماضى لانه يجهله ، ويحبه الحاضر لانه عرفه

إن فى هاتين العاطفتين ، البغض والحب ، سراً عظيما من أسرار المجد العظيم ، لذلك الرجل العظيم

كان وهو على سرير الموت محفوفا بعاطفتين مختلفتين شكلا ، متفقتين معنى ، لأنهما جميعاً فى سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر

(١) وهى ترجمة خطبة خطبها فكتور هيجو فى باريس فى حفلة تأبين فولتير الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨ بعد مرور قرن على وفاته مع بعض تصرف

أمامه ، فيسره منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله ، ويلتفتُ وراءه فيُطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذى يكنه الماضى فى صدره لاولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه

كان فولتير رجلا وأكبرَ من رجل ، كان وحده أمة كاملة ، إنه عاهد نفسه على انجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده ، وكأن الارادةَ الالهية المتجلية فى الشرائع ، تجليها فى الطبائع ، نثرت كنانة هـذا المجتمع الانسانى وعجمت عيدانه فوجدت فولتير أصلبها عوداً فاختارته للقيام بالعمل الذى قام به فأتمه

إنا أتينا هنا لفصل الخطاب فى المسائل الاجتماعية ، جئنا لنرفع شأن المدنيـة ونكرِم الفلسفة إكراماً ينفعها ويفيدها ، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه ، جئنا لنكرم المجاهدين ، والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنمهدَ الطريق للوحدة الانسانية التى يسمى اليها العلماء ، والعاملون ، والصناع المجدّون ، وجملة القول إنا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجد العاطفة الشريفة السامية عاطفة السلام العام

إنا نمجد السلام حباً فى المدنية وحرصاً على رونقها وروائها ، فان السلامَ فضيلة المدنية والحربَ رذيلتها

نحن فى هذه الساعة العظيمة ، فى هـذا الموقف الرهيب ، نجثو على الركب ونُعفّر جباهنا بين يدى الشريعة الأدبيـة ونقولُ للعالَم الذى يُنصت لسماع صوت فرنسا « لاقوة إلا قوة الضمير ولا مجدَ إلا مجد الذكاء » ذلك فى سبيل العدل ، وهذا فى سبيل الحق

لقـد كان شأن المجتمع الانسانى قبل الثورة الفرنساوية على هذا المثال ، الشعبُ فى المنزلة الدنيا ، وفوق الشعب الدين والقضاء ، هذا يمثله القضاة ، وذاك يمثله « الاكليروس »

أتدرون كيف كان الشعب ، وكيف كان الدين ، وكيف كان القضاء فى ذلك العهد ، كان الشعب جهلا ، والدين رياء ، والقضاء ظلماً

إن كنتم فى شك مما أقول فانى أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غَناء ومقتَنعا

فى ١٣ اكتوبر سنة ١٧٦١ وُجد شاب مصلوباً فى الطبقة الأرضية من بيت فى مدينة « طولوز » فهاج الشعب ولغط « الاكليروس » وبحثَ القضاة ، فكانت النتيجة أن كان الشابُ منتحراً فسُمى قتيلا ، وكان والده بريئاً فسمى قاتلا

هكذا أراد الدينُ وأرادت مصلحته أن يَهلك والدُ الفتى

لانه كان بروتستانياً ولانه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكثلكة ، إنها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ويُحيلها العقل ، ولكن هان عليهم أمرها ولم يحفلوا بالشريعتين شريعة القلب وشريعة العقل ، فحكموا أن الشيخ الكبير ، قتل ولده الصغير

هكذا قضى القضاء، وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها

فى شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيقَ إلى المَيْدان العام شيخ أبيضُ الشعر هو « جان كالاس » ثم جُرد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشُدت به أطرافه وتُرك رأسُه متدلياً

ثلاثة رجال تلوثت أيديهم بدم القتيل ، كاهنٌ يحمل الصليب ، وجلاد يحمل القضيب ، وقاضٍ يحمل فى صدره عهدَ القوم اليه بالتنكيل والتعذيب

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته وتمشّى قلبُه فى صدره لينظر إلى الصليب فى يد الكاهن بل إلى القضيب فى يد الجلاد

رفع الجلاد القضيب وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح على أثرها صيحةً مؤلمة ثم أغمى عليه فتقدم القاضى الرحيمُ وأمر له بالمنبهات فانتعشَ فضربه الجلاد الضربة الاخرى فوق الذراع الآخر فعاد إلى صرخته وإغمائه ، فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه ،

وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثمانى مرات

فى الاغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهنُ ومدّ اليه الصليبَ ليُقَبله فحول وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينين ، فاقبلَ الجلادُ وسدد إلى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربةً ألصقت صدرَه بظهره فكانت القاضية

على هذه الصورة مات « جان كالاس »

وما هى الا أيامٌ قلائلُ حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحراً لامقتولا ، فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفذ سهم القضاء فيه ، وماذا يعنيه بعد الموت أمات جانيا أم بريئا

أما الحادثة الأخرى فهى عبرة الشباب كما كانت الأولى موعظة الشيخوخة

بعد مضى ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الاولى وجدوا في « ايفيل » فى ليلة عاصفة صليباً عتيقاً أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه مطَّرَحاً فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون

من ألقى به من أعلى السور ، من أهانه ، من ذا الذى دنس

هذا الأثر المقدس ، من ذا الذى أجرم هذا الجرم العظيم

ربما عصفت به ريح ، أو عبث به عابر طريق ، أو هوى به ضعف الشيخوخة وإعياء الهرم ، لالا ، كل ذلك لم يكن ، لان الدين أبى إلا أن يوجد مجرماً ، هنالك أعلن مطران « اميان » براءةً من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم أو ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه

إن الحرمان فى الكثلكة جريمة فظيعة قاتلة متى أوحى به التعصب الذميم ، الى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمانُ سبباً فى أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضابطين اسم أحدهما (لابار) والآخر (ديتالون) مرّا على جسر « ايفيل » فى تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكراً وينشدان نشيداً عسكرياً ، مرّا بالجسر وأنشدا النشيد فهما المجرمان ، وكانت المحكمة مَقدسَ « ايفيل » ولم تكن بأقل عدلاً وإنصافاً من مجلس « الكابيتول » فى « طولوز » فأمرت بالقبض على الرجلين فاختفى ديتالون وقبض على لابار وأُسلم الى القضاء ، فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر فحكمت عليه محكمة ايفيل بالاعدام وأيد حكمها برلمان باريس فدنت الساعة المخيفة الهائلة

لقد تفننوا فى تعذيب لابار وإرهاقه ليكشفوا عن سر

فَعلته ، وعن شركائه فى جريمته ، أى جريمة المرور على الجسر وإنشاد النشيد

لقد عذبوه عذاباً أليماً حتى أن الكاهن الذى جيء به ليَسمع اعترافَه أغمي عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثانى وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجيء بالشاب المظلوم الى ساحة « ايفيل » الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطراماً فأسمعوه نص الحكم ثم بتروا يده ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه ، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها فى النار

على هذه الصورة مات « الشيفاليه دى لابار » كما مات من قبله « جان لا كاس »

أحزنك هذا المنظرُ يافولتير وآلمَ نفسك وملك عليك شعورَك ووجدانك فصحت صيحة الرعب والجزع فكانت تلك الصيحة الحجرَ الأول فى بناء مجدك العظيم الخالد

هنالك انبعثتْ نفسُك الى النزول فى ميْدان المجتمع الانسانى لتكفَّ عاديةَ الظالمين وتُقلّم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست فى منصة القضاء لتحاكمَ الماضىَ على جرائمه وتنتصفَ منه للمستقبل فانتصفتَ وانتصرتَ وكنت من المحسنين

فيأيها الرجل العظيم : طبت حياً وميتاً

حدثتْ تلك الحوادث التى ذكرتُها على مشهد من المجتمَع المهذّب الراقى وفى حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء، يغدو اليها الانسان لاهياً، ويروح ساهياً، لا يرفع رأسه فيَعلمَ مافوقه، ولا يخفِضها فيرى ماتحته

حدث ذلك وأيام البلاط أعيادو « فرسايل » تتلألأ حسناً وبهاءً، ورونقاً وماءً، وظرفاء الشعراء مثلُ « سان اولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل

حدث ذلك وباريس تتجاهل مايجرى حولها فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد، وأن يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد

كان المجتمَع فى ذلك التاريخ مؤلفاً من قوًى عظيمة هائلة، قوةُ البلاط، وقوة الاشراف، وقوة المال، وقوة الشعب المائج المتدفّع، وقوة الحكومة التى كانت أسداً على الرعية ونَعامةً بين يدى الملك تجثو أمامه خاضعة صاغرة إلا أن جُثِيَّها كان على

جُثة الشعب، وقوةُ « الاكليروس » المؤلّف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عَواناً على هذا العالم المؤلّف من تلك القوى المختلفة المخيفة ولم يَره أكبر من أن ينخذل، ولم يرَ نفسه أصغر من أن ينتصر

أتدرى ما كان سلاحه، ما كان له سلاح غيرُ تلك الاداة التى تجاري العاصفة فى هبوبها، وتَسبق الصاعقة فى انقضاضها، ما كان له سلاحٌ غير القلم، فبالقلم حارب وبالقلم انتصر

انتصر فولتير، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة، فولتير أدار وحده رحى تلك الحروب الهائلة، حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، والعقل والهوى، والصلاح والفساد، فتم على يديه الغَلَبُ للخير على الشر وفاز فوزاً مبيناً

كان فولتير قلباً وعقلا، كان له رقة الفتاة فى غِلالتها [1] وشدة الاسد فى لِبْدته

فولتير محى الخرافاتِ الدينيةَ والعاداتِ الفاسدةَ وأرغمَ أنف الكبرياء، وأذل عز الرؤساء، ورفع السُوقيّ الى حيث لا يصل اليه ظلم القاضى وتنطّع الكاهن

(١) الغلالة شعار يلبس تحت الثوب

علّم ومدّن وهذب ولقى فى سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يَكسر سوْرة النفس فلم تَنكسر سورتُه ولم تفتر عزيمته ، بل كان يلاقى الاستبداد بالسخرية ، والغضب بالاستخفاف ، والقوة القاهرة ، بالابتسامة المؤثرة

أقفُ هنا قليلاً إجلالاً لابتسامة فولتير

فولتير هو الابتسامة ، والابتسامة هى فولتير

أفضلُ مزايا الرجل الحكيم أن يَملك نفسَه عند الغضب وكذلك كان فولتير

كان عقله ميزان أعماله ، فما غلبه حتى الغضبُ للحق

كنتَ تراه عابساً مقطّباً فما هى إلاّ كَرّةُ الطرف حتى ترى فولتيرَ الضاحكَ المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب

يكاد يكون ابتسامه ضحكا لولا حزن الحكيم وهمُّ العاقل

كان ابتسامُه كبارقة السيف يرتاع لها الاعداء ، ويرتاح لها الأولياء

كان يبتسم للقوى فيُخجله بتهكمه واستخفافه ، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه

فلنمجد تلك الابتسامة التى كانت أشعتها كأشعة الفجر تمحو الظلام وتبعث الأنوار

نِعمَ الابتسامُ ابتسامٌ أنار الطريقَ للعدل والحق والصلاح وبدّد ظلمات التقليد

إن ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزيّنتْها بالاخاء والمودة والحرية والمساواة ، فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام ، سواء أسكن القصر الكبير ، أم الكوخ الحقير ، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف فى العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير ، ونشر السلام أجنحته البيضاء على المجتمع الانسانى فقرّت السيوف فى الاغماد ، وهدأت الدماء فى العروق والأرواح فى الأجسام ، كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير ، ولسوف يأتى ذلك اليوم العظيم يومُ الرحمة بالضعفاء والعفو عن الخاطئين فيبتسم فولتير فى السماء ابتسامةً تتلألأ بين لألاء النجوم

فلنمجد ابتسامة فولتير كلَّ التمجيد ، ولنكبرها كلَّ الاكبار

هل كان فولتير يحلم دائما فلا يستخف حلمه الغضب ، كلا بل كان يغضب أحيانا فى سبيل الحق

إن التوسط وحفظ الموازنة بين الاخلاق هو القانون العقلى للانسان حتى لا تَهبط به كفة وتعلو به أخرى ، وحتى لا يَهلك بين عاطفتى الحب والبغض ، وإن الفلسفة هى الاعتدالُ وإظهارُ

الحقائق واضحة بين مؤتلفات الأعمال والافوال ، ولكن أرى أن حبّ الحق يجب أن يكون فى مرتبة الغلو حتى تهبّ عاطفته هبوب العاصفة فتذهب بالاقذاء والاقذار

يعيشُ المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الأولى فيكفلها العدل ، وأما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل ، لذلك يُحب الناس القاضي العادل ، والكاهن الصالح ، لان الأول صورة العدل ، والثانى مثال الرجاء ، فاذا انقلب العدل ظلماً ، والأمل يأساً ، عافهما الانسان ولوى وجهه عنهما ، وقال للقاضى « لاأحب قانونك » وللكاهن « لاأعتقد بدعتك » وهناك يهب الفيلسوف الغيور غاضباً فيُحاكمُ القضاء أمام العدل والكهنوت أمام الله ، وكذلك فعل فولتير فكان من المحسنين

إن الرجل العظيم لايظهر فى المجتمع وحيداً إلا قليلا ، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره ، فهو كالشجرة تكون فى نظر الناظر أطول فى الغابة الشجراء منها فى التربة الجرداء ، لانها تكون فى منبتها ومستقرها ، وكان فولتير فى غابة من العقول الكبيرة ، روسو وديدرو وبوفون وبومارشه ومونتسكيو ، أولئك القوم المفكرون هم الذين علموا الناس النظر فى حقائق الاشياء والتفكر الموصل الى إتقان الاعمال ، وعلموهم

أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل فاجادوا وأفادوا

مات أولئك القوم العظام وهوت من أفقها كواكبهم ، ولقد كانوا فى حياتهم جسداً وروحا ، أما الجسد فقد طواه القبر ، وأما الروح فهى الثورة التى تركوها من بعدهم

أجل ، إن الثورة روحهم والمظهر الساطع المتلألىء بحكمتهم ومبادئهم

هم فى الحقيقة أبطال الثورة المقدسة التى هى خاتمة الماضى وفاتحة المستقبل

انك تراهم بعين بصيرتك فى كل مواقفها ووقائعها ، اذا اخترقت أشعة العقل حجاب المسببات ونفذت الى الاسباب نرى فى نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفاً وراء دانتون وروسو وراء روبسبير وفولتير وراء ميرابو ونجد أن أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلاسفة (١)

ان الكلمة الاخيرة التى أنطق بها فى هذا الموقف هى دعاء المجتمع البشرى الى التقدم بهدوء وسكون وثبات ووقار

قد وجد الحق ضالته التى كان ينشدها وهى الاخاء الانسانى والتعارف النفسى ، فمن العبث أن تشغل القوةُ بعد ذلك مكانا من

(١) دانتون وروبسبير وميرابو أبطال الثورة الفرنساوية

هذا المجتمع ، فان فعلت كان أليق الاسماء بها الاستبداد

إن المجتمع الانسانى أنكر على القوّة حقها المزعوم وضاق صدره بجرائمها وآثامها فقاضاها بين يدى التمـدين ووضع بين يديه جريدة المتهمين من الرؤساء والزعماء وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه فقضى التمدين له عليها وجاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً

شفّ ثوبُ الرياء عما تحته وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لاغبارَ عليها فأصبح الابطال والمجرمون فى نظر الانسان سواء

هدمَ التمدن تلك القاعدة الفاسدة ، وهى أن الجُرْم العظيم أصغرُ من الجرم الصغير ، فأدرك الانسانُ أن قتل الشعوب أكبرُ إثماً وأعظم جريرة من قتل الأفراد ، واستكبرَ أن يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً ، وبالجملة عَرف أن الجريمة جريمة حيث حلت ، وفى أى مظهر ظهرت ، وأن القاتل لا يغنى عنه من الله شيئاً أن يسمَّى القيصرَ أو يُدعى الامبراطور ، ولا يخفى على الله من أمره شىءٌ سواءٌ ألبِسَ تاجَ الملك أم قلنسوةَ الاعدام

فلْنصرحْ بالحقيقة المقرَّرة الواضحة ، ولنحتقرِ الحرب أشد الاحتقار

إن الحرب المباركة لا أثر لها فى الوجود

إن منظر الدماء والاشلاء أفظعُ منظر

لا يُعقل أن يكونَ الشر طريق الخير ، وأن يكون الموتُ وظيفةَ الحياة

أيتها الأمهات الجالسات حولى ، خفّفنَ من أحزانكنّ فقد أوشكت يد الحرب أن تكفّ عن اختلاس أفلاذ أكبادكن

أتشقى المرأة فتلد ، ويَغرسُ الزارع فيكسوَ الارض بساطَها الأخضر ، وَيجهدُ العامل فيملأ الخزائن ذهباً وفضة ، ويأتى الصانعُ بعجائب المصنوعات ، وغرائب المدهشات ، حتى إذا أخـذت الأرض زخرفها ، وفاخرت السماءَ بنجومها وكواكبها ، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال

لا لا : إنا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا ونُنكرَ أن الساعة التى نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوَها وتنتقص من سرورها

لا تزال فى مرآة السماء الصافية سحابة سوداء

إن الشَّعب لم يقضِ كلَّ أربه من السعادة لأن الحرب لم تزل باقية

فلنذكر عند ذكرِ ملوكِ الحرب فولتير وجان جاك وديدرو ومونتسكيو ملوك السلام ، ولنوجهْ وجهتنا الى تلك الروح

العالية ، إلى تلك الحياة العظيمة ، الى ذلك الدفين المقدس ، الى فولتير ، ولنركع أمام قبره عسى أن يمدنا بروح منه ويَهدينَا الى حظيرة السلام ، فانه بعد مرور قرنٍ على موته لم يزل فى الاحياء الخالدين

ولنقف فى طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال ، كفى كفى ، إنها همجية ، إنها تشوه وجه المدنية الجميل

إن أسلافنا من الفلاسفة هم رُسلُ الحق الى البشر ، فلنضرع اليهم فى تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها ، ويُنادوا أن الحياة ملك للانسان ، وعظيمٌ عليه أن تُسلبَ منه ، وأن التمتع بالحرية حقٌ من حقوق العقول والافكار

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور

العلماء والجهلاء

لا تحسبنَّ أن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التى لا تُرام ، أو أن بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرقَ العظيم الذى يتصورُه الناس عند ما يريدون التفريق بينهما ، وإنزالهما منازلهما ، فالعلماء والجهلاء إن دققتَ النظر سواءٌ ، لا فرق بينهما إلاَّ أن هؤلاء يعلمون المعلوماتِ منظمة ، وأولئك يعلمونها مبعثرة ، وأنَّ هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يُبينون

ومن نظر الى البصائر نظراً ثاقباً نافذاً وجد أن المعانىَ الصحيحة والقضايا الكونيةَ المتعلقةَ بالخير والشر ، والنفع والضر ، والمسائل المنوطة بالانسان فى حياتيه الماديةِ والمعنويةِ يشترك فى العلم بها الناس جميعاً عامتُهم وخاصتهم ، كبارهم وصغارهم ، من نشأ منهم تحت سقوف الجامعات ، ومن عاش تحت سقوف السموات ، لأن العلم ينبوعٌ يفور من الداخل ، لا سيلٌ يتدفق من الخارج ، ولأن المعلوماتِ كامنة فى النفوس كمونَ النار فى الزّند والقوةِ فى

المادة ، وما وظيفةُ التعليم إلا استثارتَها من مكامنها ، وبَعثَها من مراقدها

وآيةُ ذلك أنك لا تجد مثلاً من أمثال العلماء التى يَفخرون بها ويَعدونها مَظهر حكمتهم ، وآيةَ فلسفتهم ، إلاّ وترى فى ألسنةِ العامة وشواردِ أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما انك لا تجد قاعدة من قواعد الحكمة ولا قضية من قضايا الآداب والأخلاق التى نعدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق إلا وهى مُلقاة تحت أقدام العامة ، ومُذالة بين أيدى الجاهلين والاميين

وعنـدى أنه لولا عجزُ العامة عن بيان مايجول فى خواطرهم ويَهجس فى ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة لما خُيل اليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، أو معنى غريباً

وليست هـذه الغِبطة التى نراها تَعلَقُ بنفوسهم عنـد ما يتلقوْن أحاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون ، أو أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل ، بل لأنهم عثروا على من يترجم عن أفكارهم ، ويجمع لهم شمل المعانى المبعثرةِ فى أنحاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدُوا فى أنفسهم لذةَ الأنس بأفكار تشابه أفكارهم ، وآراء تشاكل آراءهم

ولا أخشى بأساً إن قلتُ إن عِلمَ العامة أفضـلُ من عـلم

الخاصة ، لانه عِلمٌ خالص من شائبة التكلف والتعمّل ، حتى أنك لتجدُ فى بعض الاحايين بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم مايضحك الثكلى لغرابته وشذوذه وما يترفع أضيقُ العامة ذهناً وأضعفُهم فهماً أن يجعل له شأناً ، أو يقيمَ له وزناً ، ولانه يَعلقُ بالنفس ويتغلغل بين طياتهـا تغلغلا تظهر آثاره على الجوارح ، وكثيراً ماتجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته ، وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه ، وإن كان صحيحاً ما يقولون من أن العلـم ما ينتفعُ به صاحبه ، فكثير من الجهلاء ، أعلم من كثير من العلماء

فلا تبالغ فى تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ولا تنظر اليهم نظراً يملأ قلبك رهبة وهيبة ، ولا تَغْلُ فى احتقار الجهلاء ، وازدراء العامة والضعفاء ، ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب

وإن فى اختفاء الحقائق الكونية وتنكّرها وضلال هذا العالم فى مذاهبه ومراميه وتفرقه مذاهبَ وشيعاً وركوب كلِّ فريق رأسَه وهيامِهِ على وجهه ووقوف طُلاب الحقيقة فى كل دهر وعصر فى مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارَى يَنشدون فلا يجدون ، ويَجدّون فلا يَصلون ، لدليلاً على أن الفلاسفةَ والحكماء والعلماء كلمات غيرُ مفهومات ، وأسماءٌ بلا مسمّيات ،

وأنّ حقائق الأشياء وأسرارَ الكائنات قد استأثر الله بعلمها، واحتجبها من دون عباده، ولم يمنحهم منها الآ بلّة تزيدهم وجداً كلما وجدوا بَردها، وتملأ قلوبهم شوقاً كلما تذوّقوا طعمها

ضريبُك فى بنى الدنيا كثيرٌ   وعَزّ اللهُ ربُّك من ضريب
وما العلماءُ والجهلاءُ الآ   قريبٌ حين تنظر من قريب



الرجل والمرأة

حضرة السيد المحترم

لاتَعجب إن رأيتَ إعجابى بك ظاهراً فى كل سطر من سطور كتابى هذا فانما أنا أنطق بلسان كثير من العقلاء الذين يحبونك حباً جماً ويعتقدون أنك فريد فى أدبك، فريد فى قلمك، فريد فى تسامحك وتساهلك، لذلك أردنا أن نوجه اليك السؤال الآتى راجين منك الاجابة عليه

لماذا نرى الهيئةَ الاجتماعية تحكم على المرأة الفاسقة حكماً صارماً فتنبذُها وتحتقرها ولا تحكم بمثل هذا الحكم على الرجل الفاسق مع أن جريمتهما واحدة

هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه والسلام

سائل

يعتقد كثير من الناس أن الرجل والمرأة سواءٌ فى العقل والذكاء، وعندى أنهم أخطأوا فى الأولى وأصابوا فى الأخرى تَستطيع المرأة أن تجارىَ الرجلَ فى سرعة الفهم وحضور

البديهة ولا تستطيعُ أن تجاريه في الأناة والرفق والاستمساكِ
وامتلاكِ هوى النفس والأخذِ بفضيلة الصبر على ما تكره
وعن ما تحب

تستطيع المرأة أن تُدرك ما يدركه الرجل من الشؤون
والأطوار وأن تَستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات،
ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع، لأن بين جنبيها
نفساً غير نفسه، وهوًى غير هواه، ولأن لها قلباً صغيراً لا يقوى
على احتمال ما يحتمله عقله الكبير

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه، وتمشي المرأة وراء قلبها
فيُضلُّها، فما وقفت معه في موقف الآ سقطت بين يديه عجزاً
وضعفاً، لانه يعرف السبيل الى قلبها، ولا تعرف السبيل الى عقله

لا تعجب إن قلتُ لك إن الذكاء غيرُ العقل، فاللصوص
والمحتالون والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياء
وليس بينهم عاقل واحد، لانهم يوردون أنفسهم موارد التلف
والهلاك من حيثُ لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً، وكثيراً ما يكون
الذكاء الشديد داعيةَ الجنون، حتى أنك لا تكاد ترى ذكياً من
الأذكياء إلا وترى له في شؤونه وأطواره أحوالا شاذة لا تنطبق
على قانون من قوانين العقل ولا قاعدة من قواعد الطبيعة،

وعندي أن أكثر ما يصيب النوابغ والأذكياء من بؤس العيش
وسوء الحال عائدٌ الى ضعف في عقولهم، ونقص في تصوراتهم،
وبعد فالذكاء في رأس الانسان كالسيف في يد الشجاع، وكثيراً
ما يضرب الشجاع رأس نفسه بسيفه إذا كان طائشاً أهوج لا يملك
نفسه في موقف من مواقف الحزن أو الغضب

فماذا يغني المرأةَ ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها
ويصرّفها ويمسك بيدها أن تعثر في جريانها واشتدادها بعقبةٍ من
عقبات هذه الحياة

سيَثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين
يجاملونهنّ، ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس
في استطاعتهنّ أن ينازعنني فيه مع شدة ذكائهنّ، ولا في
استطاعة أنصارهنّ من الرجال أن ينقضوه ولو كان بعضهم
لبعض ظَهيراً

لولا أن الرجل أعقلُ من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان
وذلك الغلَبُ ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقادُ الجنيب (١)
ولا أن يَملك عليها أمرَ فقرها وغناها وحبسها واطلاقها وحجابها
وسفورها ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها

(١) الجنيب المهر الذى يقادالى مهر آخر

من حيث لا ترى فى نفسها قوة لدفعها والخروج عليها

القوى يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شىء حتى نفسه وهواه ، وكذلك كان شأن الانسان مع الحيوان وشأن الرجل مع المرأة

الانسان نوع من أنواع الحيوان لم يكن فى مبدأ خليقته خيراً منها فى شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفر منها عقلا وأوسع حيلة ، فما زال يطلب لنفسه الغاية التى تناسب استعداده وفطرته حتى أصبح سيد الحيوان ، فمدّن المدن ومصر الأمصار وشاد وبنى وتأنق وترفه ثم طرد صاحبه الى تلال الرمال ، ورءوس الجبال ، يأكل بعضه بعضا ، والرجل أخو المرأة وقسيمها فى الرحم والمهد ، والأبوة والأمومة ، والقومة والقعدة ، والنومة واليقظة ، ولكنه وجد فى نفسه فضلا من قوة العقل والتدبير عليها وكان ظالماً خشن النفس قاسى القلب فأبى إلا أن يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها فتم له ما أراد

ملك عليها جسمها لانه حجبها عن النور والهواء فأذعنت ، وملك عليها نفسها لأنه ألقى فى روعها أن ذنبها فى الفسق المشترك بينه وبينها أكبر من ذنبه ، وان جريمتها ضعف جريمته فصدقت ، وطلب منها أن تسلم اليه الأمر فى تدبير شؤونها والتصرف بأموالها

فسلمت ، وأصبحت تنظر إلى هذه القوانين الجائرة التى وضعها لها والاعتبارات الفاسدة التى اعتبرها بالنسبة اليها كما ينظر اليها هو بعين الاجلال والاعظام

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فاذا سقطت هاج المجتمع الانسانى عليها وملأ قلبها هولا ورعباً وأوسع نفسها تقريعاً وتأنيباً من حيث لا تطير على الرجل شرارة واحدة من هذه النار المتأججة ، لانه هو الذى وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة ، وما كان له أن يقصر فى مجاملة نفسه ومحاباتها لانه شره طماع محب لذاته ، ولا أن يعدل فى القضاء فى قضية غيره لانه ظالم جبار

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل لاستطاعت أن تحجبه فى المنزل وأن تتولى شأنه وأن تعبث بعقله فتعظم جريمته وتصغر جريمتها فى عينه وان تنفذ الى قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة وأن تحدثه فيصدق وتأمره فيأتمر وان تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها ايمانه بالاله المعبود كما صنع هو بها فى جميع ذلك فبلغ منها ما أراد

لا أريد أن هذا الفرق فى القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق فى ظلمها وغلبتها على حقها ، بل أريد أن هذا

الفرق هو سبب ذلك السلطان القاهر ، والحكم الجائر

وجملة القول أن حكم المجتمع الانسانى بادانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزانى حكمٌ ظالمٌ ، ولو أنه أنصفهما لعرف فرْق ما بينهما في القوة العقلية فجعل عقاب الرجل القوى المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة ، ولكنه لم يفعل ذلك لان رجاله ظلمة جائرون ، ولان نساءهُ ساذجات ضعيفات ، يصدقن الرجال فى أقوالهم وينظرن الى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم ، فان أردنا أن تنال المرأة حقها من الرجل وان تنتصف منه فليس سبيلُها الى ذلك المغالبة والمصارعة ، فانها أضعف منه جسما وعقلا ، بل السبيل اليه أن نعلمها العلم لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه وكيف تحمله على اجلالها وإعظامها ، وأن نعلمه كذلك ليستطيع أن يكون شخصاً كريماً ، وانسانا رحيما



الدعوة

مامن قائمٍ يقوم فى مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً الى ترك ضلالة من الضلالات إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمدُ نارُها ولا يخبُو أُوارها حتى تهلك تلك الضلالة أو يهلك دونها

ليس موقفُ الجندى فى معترك الحرب بأحرجَ من موقف المرشد فى معترك الدعوة ، وليس سلب الاجسام أرواحها بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها

لا يضن الانسان بشئ مما تملك يمينه ضنه بما تنطوى عليه جوانحه من المعتقدات ، وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانةً لدمه ، وماسالت الدماء ولا تمزقت الاشلاء فى مواقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم إلا حماية للمذاهب وذوْداً عن العقائد

لذلك كان الدعاةُ فى كل أمة أعداءها وخصومها لانهم يحاولون أن يرزءوها فى ذخائر نفوسها ، ويفجعوها فى أعلاق قلوبها

الدعاةُ أحوج الناس الى عزائمَ ثابتة وقلوبٍ صابرة على احتمال

المصائب والمحن التى يلاقونها فى سبيل الدعوة حتى يبلغوا الغاية التى يريدونها أو يموتوا فى طريقها

الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة أو جهلة أو زنادقة أو ملحدين أو ضالين أو كافرين ، لان ذلك ما لا بد أن يكون

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم عاش بين أعدائه ساحراً كذّاباً فلما مات مات سيد المرسلين ، وأن الغزالى عاش متهما بالكفر والالحاد ومات حجة الاسلام ، وأن ابن رشد عاش ذليلا مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه ومات فيلسوف الشرق، فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتاً

سيقول كثير من الناس وما يغنى الداعى دعاؤه فى أمة لا تحسن به ظناً ، ولا تسمع له قولا ، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته فيكون أجهل الناس وأحمق الناس

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين ، وهذا هو الداء الذى ألم بنفوس كثير من العلماء فأسكت ألسنتهم عن قول الحق وحبس نفوسهم عن الانطلاق فى سبيل الهداية والارشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الاذهان وسكنت المدارك ، وأصبحت

العقول فى سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ولا ينفذ اليه الهواء

الجهل غشاء سميك يغشى العقل ، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً ، فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى اذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نوراً ، والالم لذة وسروراً

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق فى ميدان ، لان الحق وجودٌ والباطل عدم ، وإنما يصرعه جهلُ العلماء بقوته ، ويأسهم من غلبته ، وإغفالهم النداء به ، والدعاء اليه

محالٌ أن يهدم بناء الباطل فرد واحد فى عصر واحد ، وإنما يهدمه أفراد متعددون فى عصور متعددة فيهزه الاول هزة تباعد ما بين أحجاره ، ثم ينقضُ الثانى منه حجراً والثالث آخر وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء ، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي فراراً من إزعاج المريض أو خوفاً من صياحه وعويله أو اتقاء لسبه وشتمه ، فانه سيكون غداً أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه

وبعدُ فقليلٌ أن يكون الداعى فى الأمة الجاهلة حبيباً اليها إلا اذا كان خائناً فى دعوته سالكاً سبيل الرياء والدهان فى دعوته ،

وقليل أن ينال حظه من اكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة دوائه ، وتشعر بحلاوة الشفاء ، بعد مرارة ذلك الدواء

الدعاة فى هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء ، وكظة [1] الارض والسماء ، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد لانه لا يوجد بينهم شجاع

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء المجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق وكلهم يعظون وينصحون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل فى سبيل الدعوة ضراً ، أو يلاقى فى طريقها شراً

رأيت الدعاة فى هذه الأمة أربعة ، رجل يعرف الحق ويكتمه عجزاً وجبناً ، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر ، ورجل يعرف الحق وينطق به ، ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة فى دعوته فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها ، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذى يضع الدواء المر فى « برشامة » ليسهل تناوله وازدراده ، ورجل لا يعرف حقاً ولا باطلا ، فهو يخبط فى دعوته خبط الناقة العشواء فى مسيرها فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل والضار والنافع فى موقف واحد ،

(١) الكظة البطنة

فكأنه جواد امرىء القيس الذى يقول فيه

مِكرٍ مِفرٍ مقبل مدبر معاً

ورجل يعرف الحق ويدعو الامة إلى الباطل دعوة المجد المجتهد ، وهو أخبث الاربعة وأكثرهم غائلة ، لانه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة فى سبيله ، فهو عدوها فى ثياب صديقها لانه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والارشاد ، فليت شعرى من أى واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها

ما أعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها ، فقد أصبح دعاتها فى حاجة إلى دعاة ينيرون لهم طريق الدعوة ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال فى سبيلها ، فليت شعرى متى يتعلمون ، ثم متى يرشدون



﴿ تم الجزء الأول من النظرات ﴾

﴿ فهرست الجزء الأول من النظرات ﴾

﴿ تمت الفهرست ﴾







